الغلاف الأمامي

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

السَّمِيَّة

فيبل 2

"مغامرة مدهشة مفعمة بالإثارة"
تعليق الممثلة رِيس ويذرسبون على رواية فيبل

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

الغلاف الأمامي

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

السَّمِيَّة

فيبل 2

"مغامرة مدهشة مفعمة بالإثارة"
تعليق الممثلة رِيس ويذرسبون على رواية فيبل

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

حقوق الطبع والنشر

السَّمِيَّة

فيبل 2

أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore
...ليست مجرد مكتبة



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى 2024

هذا عمل خيالي. جميع الشخصيات، والمؤسسات، والأحداث المُصورة في هذه الرواية هي إما نتاج مخيلة المؤلف أو تُستخدم بصورة خيالية.

NAMESAKE

ADRIENNE YOUNG

JARIR BOOKSTORE
مكتبة جرير
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

روايات أخرى بقلم أدريان يانج

Sky in the Deep
الفتاة التي أعادها البحر
فيبل

إهداء

إلى أمي،

التي غرست القوة في نفسي

استهلال

أتذكر أول مرة أشرب فيها الجاودار.. كانت عقب تجربتي الأولى في الغوص.

امتلأ البحر بالأصوات المنبعثة من الأحجار الكريمة وأنا أسبح متتبعةً شبح أمي الذي تراءى لي خلال الضوء المتماوج على سطح الماء.

سرى شعورٌ بالاحتراق في ساقيّ وأنا أركل بقوة لأقاوم ثِقل حزام التجريف الذي أرتديه، بيد أن إيزولد كانت قد أصرت على أن أرتديه حتى إن كانت أول تجربة غوص لي في الشعاب المرجانية. تلوى وجهي وانكمشت ملامحي، وتسارع خفقان قلبي في صدري المُترع بالألم، ثم شققت سطح الماء، وبرزت برأسي تحت صفحة السماء المتألقة بالنور.

أول ما وقعت عليه عيناي حين اتضحت الرؤية كان أبي وهو مرتكز بمرفقيه على السور ويطل من ميسرة السفينة لارك، ولاحت على شفتيه ابتسامة من ابتساماته النادرة جعلت عينيه الزرقاوين تلتمعان بوميض متألق.

سحبتني أمي من الماء، ورفعتني لأبلغ أدنى درجة في السلم الحبلي المتدلي، ثم ارتقيته وجسدي يرتعد من البرد. كان سينت ينتظرني بالأعلى، وحالما وصلت ضمني بين ذراعيه، ثم حملني وسار بي عبر سطح السفينة ومياه البحر تتقاطر من يديّ وشعري.

دلفنا إلى غرفة القبطان، وسحب سينت اللحاف من سريره، ولفّني به حتى غمرتني رائحة احتراق نبتة البوصير التي فاحت من اللحاف. وجاءت أمي بعد هنيهة، وشاهدتُ أبي يملأ كأسًا من كئوسه ذات اللون الأخضر الزمردي بالجاودار.

ثم وضع الكأس وسط مكتبه، فأمسكت به وجعلتُ أُقلبه حتى تلألأ من خلاله ضوء الشمس.

لبث سينت منتظرًا وقد ارتفع جانب من شاربه إثر ابتسامة لاحت على شفتيه وأنا أرفع الكأس صوب فمي وأتجرع الجاودار جرعة واحدة. اشتعل لهيب الاحتراق في حلقي وسرعان ما امتد إلى بطني، وندَّ عني فحيحٌ وأنا أحاول التقاط أنفاسي في غمرة هذا الإحساس.

عندئذ رنت أمي إليّ، وقد لاحت في عينيها نظرة لم أرها من قبل - نظرة إجلال. كأنما قد حدث للتو شيء عجيب ومروع في الوقت ذاته. ثم طرفت بعينيها وهي تسحبني بينها وبين سينت، وارتميت في أحضانهما، واستشعرت دفء جسديهما فغمرني في الحال شعورٌ بأنني عدت طفلة مرة أخرى.

بيد أنني أدركت الآن أنني لم أعد على متن السفينة لارك.

الأول



ارتطمت بَكرةُ الرفع بالسفينة فطرفتُ بعيني، وفجأة اتضحت الرؤية بعد أن كان بصري زائغًا، وانتبهتُ بعد أن كان وعيي شاردًا، وعاد إدراكي كاملًا إلى العالم من حولي؛ إذ انتبهتْ حواسي انتباهًا تامًّا مفاجئًا إلى ما يجري في محيطي. ثمة دبيب أقدام على الخشب، وظلال ترتمي على مؤخرة السفينة، مع فرقعة الأشرعة المتماوجة على الصاري الرئيسي.

انفجر الألم في رأسي وأنا أضيّق عينيّ لأتفادى وهج الشمس، ورحت أحصي عدد الطاقم. تألف طاقم السفينة لونا من عشرين بحارًا على أقل تقدير، وعلى الأرجح فالعدد يزيد على ذلك مع إضافة متشردي حي الساحل على متن السفينة والذين لا يدخلون في عداد الطاقم الرسمي. لا بد من وجود شخص أو شخصين آخرين في الطابق السفلي أو في غرفة القبطان. لم أرَ زولا منذ أن عاد إليّ وعيي على متن السفينة، ومرت الساعات ببطء شديد مع حركة الشمس المتثاقلة للغاية.

ترامى صوت صفقة باب من الممر، وثار الوجع في فكيَّ وأنا أكز على أسناني. وتتابعت خطوات كلوف الثقيلة على سطح السفينة وهو يتجه صوب عجلة الدَّفة، ثم وضع يديه الخشنتين على العصيّ المنبثقة من العجلة وهو يرسل بصره إلى الأفق المتوهج.

لم أرَ هذا الرجل الذي كان يعمل ملّاحًا على سفينة أبي منذ ذاك اليوم في جزيرة جيفال قبل أربع سنوات، عندما رحل رفقة سينت على القارب وتركاني على الشاطئ، بيد أنني تعرّفت على وجهه، ما كنت لأغفل عنه في أي مكان ألمحه فيه؛ إذ إنه منحوتٌ في كل

ذكرى من ذكرياتي تقريبًا - ذكريات السفينة لارك، ذكريات والديّ. لطالما كان حاضرًا في ذاكرتي، حتى في بقايا الذكريات وأكثرها قِدمًا.

تحاشى كلوف النظر إليّ منذ رصدتُه، لكنني لاحظت في طريقة رفع ذقنه وانجراف نظراته من فوق رأسي ما ينبئني بأنه قد عرف هويتي بكل تأكيد.

لقد كان هو الشخص الوحيد الذي أعده فردًا من عائلتي إلى جانب أبي وأمي، وقد أنقذ حياتي في ليلة غرق السفينة لارك ببحر شرك العواصف. ومع ذلك فإنه لم يلتفت نحوي التفاتة واحدة حين انطلق هو وأبي بالقارب مبتعدين عن جزيرة جيفال، إلا أنه لم يرجع من أجلي قط. حينما وجدت سينت في سيروس وأخبرني بأن كلوف قد رحل، تصورتُه كومة عظام منطرحة في أعماق منطقة المضايق. لكن ها هو ذا حي يُرزق، ويعمل ملاحًا على السفينة لونا.

كان بوسعه استشعار نظراتي وأنا أحدجه بنظرات ممحِّصة، لعل الذكرى ذاتها تنبعث من قبرها الذي كان قد دفنها فيه. وقد لاحظت أنه يُظهر رباطة جأش، ومع ذلك فقد بدا تأثره واضحًا في انتصاب جذعه بتوتر، ولاح طيفٌ من التزعزع على قناع الهدوء الذي يضعه على وجهه. لكنه لم ينظر إليّ، ولم أعرف ما إذا كان ذلك يعني أنه لا يزال كلوف الذي أتذكره، أم أنه قد تغير وتبدل. قد تكون حياتي مرتهنة بمقدار التغير بين كلوف الماضي وكلوف الحاضر.

توقفت أمامي قدمان، فرفعت عينيّ لأرى وجه امرأة كنت قد رأيتها صباحًا، وتساقطت خصلات شعرها القصير الأصفر على جبهتها وهي تضع دلوًا من الماء بجواري وتستل السكين من حزامها.

جلست القرفصاء، وقد انعكس ضوء الشمس على النصل حين مدّته نحو يديّ. حاولت التملص بعيدًا عنها، لكنها اجتذبت الحبل الذي يطوق معصميّ، ووضعت النصل البارد على الجلد الطري عند معصمي، ثم راحت تجز الحبل.

تجمدت في مكاني بلا حراك وأنا أراقب سطح السفينة من حولنا، وعقلي محموم بالأفكار بينما أحاول أن أحرك قدمي من تحتي بحذر لأتهيأ للنهوض. أخيرًا انقطع الحبل وتحررت يداي، فبسطتهما وأصابعي ترتجف. وحالما أشاحت ببصرها عني ملأت صدري بالهواء واندفعت بكل قوة نحوها، فاتسعت عيناها وأنا أصدمها صدمة شديدة طرحتها أرضًا، وارتطم رأسها بخشب الأرضية. وارتميت بثقلي عليها لأثبتها وأشل حركتها، ومددت يدي لأنزع السكين من يدها.

ترامى دبيب أقدام يندفع نحونا، في حين تناهى إلى أذنيَّ صوت عميق خلفي وهو يقول: «لا تفعلوا لها شيئًا. اتركوها تُنفّس عما يعتلج في داخلها».

سكنت حركة البحارة، وفي اللحظة التي نظرت فيها إلى الوراء كانت المرأة قد تدحرجت من تحتي وسددت ركلة إلى بطني بكعب حذائها، فتأوهت وأنا أرتمي عليها مرة أخرى حتى أمسكتُ بمعصمها. حاولتْ ركلي وأنا أضرب معصمها في ذراع المرساة الحديدية، وشعرتُ بالعظام الصغيرة تحت جلدها تتصدع وأنا أضرب معصمها في الذراع مرة أخرى بقوة أشد، حتى سقطت السكين من قبضتها.

التقطتُ السكين، واستدرت حتى يواجه ظهري سور السفينة، ورفعت السكين أمامي بيد مرتجفة وأنا أسددها نحو المرأة. ونظرت فإذا البحر يبدو بلا نهاية في كل جهة، لا توجد يابسة على مرمى البصر، فأحسست بأن صدري يكاد ينفجر وقلبي يغوص بين قدميَّ.

ترامى الصوت مرة أخرى يقول: «هل انتهيتِ؟»، واتجهت كل الرؤوس ناحية الممر، حيث وقف قبطان السفينة لونا ويداه مدسوستان في جيبيه، ولم يبدُ قلقًا ألبتة من مشهد تهديدي لأحد أفراد طاقمه بسكين في يدي.

ثم انطلق يشق طريقه نحوي وقد لاحت في عينيه نظرة تشي بالتسلي كتلك التي رأيتها في عينيه ونحن في الحانة في سيروس. لقد تألق وجهه بابتسامة ساخرة.

وهبطت عيناه على المرأة المرتمية عند قدمي، وقال: «قلت نظّفيها يا كالا».

حدجتني المرأة بنظرات غاضبة على مرأى من زملائها في الطاقم، وضمت يدها المكسورة إلى أضلاعها، وقد انتفخت يدها بالفعل.

خطا زولا أربع خطوات متأنية قبل أن يُخرج إحدى يديه من جيبه ويمدها نحوي وهو يومئ بذقنه نحو السكين. وعندما لم تبدر مني حركة لاحت ابتسامة عريضة على شفتيه، وجثم صمت بارد فوق السفينة هنيهة أخرى قبل أن تنطلق يده الأخرى وتمسك بحلقي. اشتدت قبضته على حلقي وهو يلطمني بالسور، وضيّق الخناق حتى عجزت عن التقاط أنفاسي.

وارتمى بوزنه إلى الأمام حتى انحنيتُ على السور، وارتفعت أصابع قدميّ عن سطح السفينة. وجعلتُ أفتش بعيني وسط الرؤوس من خلفه عن شعر كلوف الأشقر المشعث، بيد أنني لم ألمحه. وعندما كدت أسقط إلى الوراء رميت السكين، فوقعتْ على سطح السفينة محدثةً دويًّا حادًّا، وتقلّبت على الخشب حتى صارت بمنأى عن متناولي.

التقطتها كالا قبل أن تغمدها في حزامها، وفي الحال أفلتني زولا، فتهاويت على كومة الحبال من تحتي وأنا أكاد أختنق.

كرر زولا أمره: «نظفيها».

رمقني زولا لوهلة قبل أن يستدير على عقبيه ويمضي نحو عجلة الدفة، حيث اتكأ كلوف عليها وعلى وجهه نظرة اللامبالاة ذاتها.

جذبتني كالا من ذراعي بيدها السليمة لتنهضني، ثم دفعتني إلى الخلف، حيث كان دلو الماء لا يزال رابضًا بجوار الصاري الأمامي، وعاد الطاقم إلى العمل في حين راحت هي تسحب خرقة قماش من مؤخرة حزامها.

ثم بصقت وهي تنظر إلى ثيابي، وقالت: «اخلعيها. الآن».

زحفت عيناي مرة أخرى نحو العمال من خلفها قبل أن ألتفت صوب مقدمة السفينة، وخلعت قميصي. وجثمت كالا بجواري تفرك الخرقة بقطعة صابون وتغمرها في الدلو حتى تثار الرغوة. ثم مدت الخرقة نحوي بنفاد صبر، فأخذتها منها وأنا أتغافل عن نظرات الطاقم المصوبة نحوي أثناء تنظيفي لذراعي. لقد اختلط الماء بالدم الجاف فتحوّل إلى اللون الوردي قبل أن يجري على بشرتي ويتساقط على سطح السفينة عند قدمي.

وحين استشعرت ملمس بشرتي الطبيعي استثيرت ذكراي رفقة ويست بغرفته، حيث التحم جسدانا معًا. ولسعتني الدموع المترقرقة خلف عيني، فشهقتُ كي أحبسها وأفرق احتشادها قبل أن تطغى على عيني وتنسل. لقد هيّجت الذكرى نفسي؛ رائحة الصباح حين استيقظت في سريره، ومنظر وجهه في الضوء الرمادي، وتردد أنفاسه على جلدي.

ومددت يدي صوب نحري وأنا أتذكر الخاتم الذي اشتريته من صاحب محل المقايضة؛ خاتمه.

لقد اختفى من مكانه.

استيقظ ويست وحده في غرفته، لعله وقف عند مقدمة السفينة ينتظرني ويراقب الميناء، ولعله انطلق يبحث عني في ديرن عندما لم أعد.

لست أدري ما إذا كان أحدهم قد رآني وهم يجرُّونني إلى السفينة لونا، حتى إن رآني أحد فسيجعل الأمر طي الكتمان. كل ما سيخطر ببال ويست أنني قد غيرت رأيي، ودفعت لأي تاجر على الأرصفة ثمن رحيلي على سفينته لأعود إلى سيروس. ولكن إن كانت هذه الاحتمالية واردة لكنت قد نلت حصتي من الغنيمة التي حققناها معًا، هذا ما دار بخلدي وأنا أفند كل الاحتمالات الأخرى باستثناء الاحتمالية الوحيدة التي أردت أن تكون هي الحقيقة.

سوف يبحث ويست عني، سوف يأتي إثري.

ولكن إذا فعل، فهذا يعني شيئًا أسوأ. لقد رأيت الجانب الخفي لقبطان السفينة ماريجولد، وقد كان مظلمًا، كان خطيرًا ومدمرًا.

إنك لا تعرفينه.

تردد في رأسي صدى تلك الكلمات التي قالها سينت في الحانة صباحًا.

ربما سيقطع ويست وطاقمه علاقتهم بي وبسينت، وسينطلقون ليشقوا طريقهم الخاص. ربما لم أعرف ويست، لم أعرفه حق المعرفة.

لكنني أعرف أبي، وأعرف الألاعيب التي يستخدمها.

لسعتني المياه المالحة على جلدي وأنا أدعكُ بقوة، وحين انتهيت كانت كالا ممسكة بسروال جديد من أجلي، فارتديته وربطت حباله عند الخصر حتى لا ينزلق، وألقت لي قميصًا نظيفًا.

عقصتُ شعري وهي ترمقني، وحين أحست بأنها أتمت مهمتها استدارت نحو الممر الممتد أسفل مؤخرة سطح السفينة، ولم تنتظرني لأتبعها، وفي طريقها إلى غرفة القبطان مرت بجوار كلوف. وتبعتها، لكن خطواتي توقفت حين حاذيته، ورفعت بصري نحوه. وتبددت آخر ذرة شك عندي بشأن هويته وأنا أتفحص وجهه الذي بدت عليه آثار كثرة التعرض للشمس. وتأججت في نفسي عاصفة كلام أريد أن أنطق به، بيد أنها احترقت على لساني، وازدردتُ الرغبة الشديدة في الصراخ.

زمّ كلوف شفتيه قبل أن يفتح الدفتر الذي يعتلي الطاولة المجاورة له، وركض إصبعه ذو الجلد الثفن على الصفحة المفتوحة. ربما بُوغت برؤيتي على متن السفينة كما باغتتني رؤيته. ربما كلانا كان متورطًا بلا اختيار في صراع زولا مع ويست، لكنّ كلًّا منا في جبهة

مختلفة. وما لم أستوعبه هو كيف يمكن أن يكون هنا، وكيف يعمل لصالح أكثر شخص يبغضه أبي؟!

أنهى النظر إلى الدفتر وأغلقه، وعادت عيناه إلى الأفق وهو يحرك عجلة الدفة قليلًا. إما أنه كان يخجل من النظر إليّ أو أنه كان يخشي أن يراه أحد ويلاحظ نظراته. لم أكن متيقنة أي الخيارين أسوأ. إن كلوف الذي عرفته كان ليذبح زولا ذبحًا إذا مسّني بسوء.

عندئذ ترامى صوت كالا من الممر تنادي وهي تمسك حافة الباب لتبقيه مفتوحًا: «هيا يا جرافة».

سلطتُ عينيَّ على كلوف هنيهة أخرى قبل أن أواصل طريقي. ودخلت إلى الممر البارد الذي لا تصله أشعة الشمس، وحذائي يضرب الألواح الخشبية بإيقاع ثابت رغم الارتجافة التي سرت في أطرافي.

ومن ورائي ترامت زرقة البحر لا متناهية. كان السبيل الوحيد للخروج من هذه السفينة يتمثل في معرفة ما يبتغيه زولا، لكنني كنت خاوية الوفاض وليس لديَّ ما أساومه عليه. لا توجد سفينة غارقة تحوي أحجارًا كريمة لأقايضه بها، ولا أملك نقودًا أو أسرارًا من شأنها أن تنتشلني من المتاعب التي تورطتُ فيها. وحتى إن كان طاقم السفينة ماريجولد يبحثون عني فأنا هنا في معزل وحدي بلا نصير. كانت وطأة هذه الفكرة ثقيلة حتى قبعت في أعماقي، وكان غضبي العارم هو الشيء الوحيد الذي يحول دون انجرافي مع ثقلها والاستسلام، لقد تصاعد الغضب حتى ملأ صدري وأنا أنظر إلى الوراء مرة أخرى ناحية كلوف.

لا يهم كيف انتهى به المطاف على متن السفينة لونا، فما من عذر يشفع له عند سينت حيال خيانة كهذه، ولا عندي. لم أشعر قط بأن نفسي تنضوي على نصيب كبير من خصال أبي كما شعرت بذلك في تلك اللحظة، ولم يُخفني هذا الشعور، بل غمرني بقوة باعثة على الثبات ورباطة الجأش، حتى أحسست بأن قدميّ راسختان وتأهبتُ للمجابهة ببأس شديد.

لست مجرد جرافة من جزيرة جيفال، أو بيدق في صراع زولا مع ويست. إنني ابنة سينت، وسوف يعرف ذلك كل وغد في هذا الطاقم قبل أن أغادر السفينة لونا.

الثاني



اصطبغ خشب باب غرفة القبطان بلون رمادي، ونُحِت فيه شعار لونا الذي يتألف من هلال تكتنفه ثلاث سيقان من نبتة الجاودار. فتحته كالا ودلفت إلى الداخل، وتبعتها فاشتملتني رائحة عطنة منبعثة من الورق القديم وزيت الفانوس.

وانتشر ضوء يتخلل ذرات الغبار في جو الغرفة ملقيًا على المشهد ضبابية، بينما كان الضوء خابيًا في أركانها. وبدا عمق الألوان على الجدران متفاوتًا، ما ينمّ عن عمر السفينة الكبير، ومع ذلك فقد اكتست كل تفاصيل الغرفة بجمال عتيق وإتقان واضح.

كانت معظم المساحة خالية، إلا من مائدة طويلة تطوقها الكراسي المكسوة بالحرير، وكان زولا يجلس عند طرفها.

واحتل وسط المائدة شمعدانات مذهبة وصوانٍ فضية مليئة بالطعام، وتراقص الضوء على رجلي الديك المطبوخ المكتسيتين بالجلد المتألق وعلى كمية كبيرة من ثمار الخرشوف المكتسية بطبقة سوداء من أثر التحميص.

لم يرفع زولا بصره نحوي وهو ينتشل قطعة جبن من أحد الأوعية ويضعها على حافة طبقه. وتتبعت بعيني ضوء الشموع المنعكس على النجفة الصدئة المعلقة في السقف، حيث تأرجحت فوق رأسه بصرير خافت، وقد فُقدت معظم زينتها الكريستالية. المشهد بأكمله كان ينم عن محاولة بائسة لرجل يحاول التمسّح بطبقة النبلاء، ومع ذلك لم يبد زولا محرجًا من أوجه النقص البادية، لقد كانت كبريائه متعاظمة لدرجة أنه يأبى الاعتراف بقناع التنكر الذي يرتديه.

ثم نظر إليّ وزم شفتيه قائلًا: «أظن أنني لم أرحب بكِ بعد على متن السفينة لونا يا فيبل».

كنت لا أزال أشعر بوخز على رقبتي، حيث كانت يده تعتصر حلقي قبيل دقائق فقط.

والتقط السكين ذات المقبض المزين باللؤلؤ، وأمسك بشوكة، وراح يقطع من لحم الديك بعناية وهو يقول: «رجاء، اجلسي ومدّي يدك لما تشائين من الطعام، لا شك أنك جائعة».

عبثت الرياح المتدفقة من النافذة المفتوحة بالخرائط المبسوطة على مكتبه، فرفرفت حوافها البالية. وألقيت نظرة خاطفة في أرجاء الغرفة في محاولة لاستكشاف أي شيء بشأن ما يخطط له. لكن الغرفة لم تختلف عن أي غرفة قبطان رأيتها من قبل، ولم يبدر من زولا أي شيء يفصح عن نواياه وهو يرمقني من فوق الشمعدانات.

سحبتُ الكرسي الموجود عند الطرف الآخر من الطاولة وجلست عليه.

بدت عليه أمارات السرور وهو يعيد بصره إلى طبقه، أما أنا فأشحت بعينيّ بعيدًا حين بدأت العصارة التي تنز من الديك في التجمع بوسط الصينية؛ إذ كانت رائحة الطعام المالحة تثير شعور الغثيان في أحشائي، بيد أن هذا لم يكن شيئًا يُذكر بالقياس إلى الجوع الذي سينهشني بعد أيام إن امتنعت عن تناول الطعام.

وغرز الشوكة في قطعة لحم وأمسك بها أمامه وهو ينظر إلى كالا كي تغادر، فأومأت إيماءة إذعان ثم ولّت مدبرة وأغلقت الباب من ورائها.

والتقم قطعة اللحم وراح يمضغ وهو يقول: «أنا واثق من أنكِ قد تقبلتِ فكرة أننا أوغلنا في البحر جدًّا بما يقطع آمالك في محاولة السباحة إلى اليابسة».

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه على وجه اليقين هو أننا نبحر إلى جهة الجنوب الغربي، وما لم أستطع تبينه هو وجهتنا؛ إذ إن ديرن تقع في أقصى جنوب منطقة المضايق.

أبقيت صوتي هادئًا وظهري مستقيمًا وسألته: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

فأجاب: «منطقة البحر المجهول»، لقد أجاب بسلاسة بالغة، وكأن ذلك لا يضره في أي شيء، وقد أثار ذلك توتري وتأهبي في الحال. بيد أنني لم أستطع إخفاء دهشتي، وبدا زولا مسرورًا بالمشهد، وغرز الشوكة في قطعة جبن وأخذ يلفها بين أصابعه.

قلت وأنا أرتكز بمرفقيّ على المائدة وأنحني إلى الأمام: «لا تستطيع الذهاب إلى منطقة البحر المجهول».

فقطب أحد حاجبيه وهو يتمهل في المضغ قبل أن يقول: «إذن، لا يزال الناس يحكون تلك القصة، أليس كذلك؟».

لم يفتني أنه لم يصحح ادعائي. ما زال زولا رجلًا مطلوبًا في تلك المياه، وإن كان عليّ أن أخمن فسأقول إنه لا يملك ترخيصًا للتجارة في الموانئ التي تقع خارج منطقة المضايق.

ابتسم بخبث وهو يسأل: «بماذا تفكرين؟»، وبدا أنه يريد معرفة ما يدور بخلدي حقًّا.

أجبته: «أحاول استكشاف السبب الذي يجعل انتصارك في الصراع مع ويست أهم قيمة عندك من حياتك».

عندئذ اهتزت كتفاه ورأسه ينحني إلى أسفل حتى ظننت أنه كان يختنق من لقمة الجبن التي التقمها للتو، لكن سرعان ما أدركت أنه كان يضحك ضحكًا هستيريًّا.

خبط على المائدة بقبضته وقد ضاقت عيناه من شدة الضحك وهو يتكئ على ظهر كرسيه، ثم قال: «رباه! يا فيبل، لا يمكن أن تكوني بهذا الغباء. الأمر لا علاقة له بويست، أو بذاك الوغد الذي يعمل لصالحه في الخفاء»، وأسقط السكين على الطبق فأصدرت دويًا، ما جعلني أجفل.

إذن، كان يعلم أن ويست يعمل لصالح سينت، لعل هذا مَنشأ العداء أصلًا.

واستقرت يداه على ذراعي الكرسي مردفًا: «هذا صحيح، إنني أعرف بشأن السفينة ماريجولد، لست أحمق» .

تصلبت أعصابي؛ كان تعامله بهذه الأريحية يشعرني بأن ثمة تهديدًا أخطر لم أتبينه، لقد كان في غاية الهدوء والثبات.

وأضاف: «الأمر منوط بكِ أنت».

التهبت أعصابي حتى سرى وخز على جلدي، وتساءلتُ: «ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟».

فقال: «إنني أعرف مَن تكونين يا فيبل».

ترامت الكلمات إلى أذنيّ خافتة، مجرد صدى في محيط الذعر الذي اجتاح نفسي. حُبست أنفاسي واجتاحني شعورٌ خلف أضلعي كأن صدري ينفتل انفتالًا. كان محقًّا، لقد كنت غبية. عرف زولا أنني ابنة سينت لأن ملّاحه ثالث ثلاثة في منطقة المضايق يعرفون تلك الحقيقة، لا يمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفة.

إذا كان هذا صحيحًا، فهذا يعني أن كلوف لم يخن سينت فقط، بل خان أمي أيضًا، وقد كان هذا شيئًا لم يخطر لي مطلقًا أنه قد يتأتى من كلوف.

وأضاف: «إنك تشبهينها تمام الشبه. إيزولد».

اصطبغت نبرته بألفة وهو يتحدث عن أمي، ما أثار اضطرابًا في أحشائي. لم أصدق أبي حين أخبرني بأن إيزولد عملت على متن السفينة لونا قبل أن يأخذها سينت. وهي لم تخبرني قط عن تلك الأيام، كأن الفترة بين مغادرتها باستيان والانضمام إلى طاقم السفينة لارك قد تلاشت من ذاكرتها.

وحتى في تلك الآونة كانت العداوة ناشبة بينه وبين أبي. كانت الحرب بين التاجرين حربًا لم يخمد أوارها مطلقًا، لكن زولا قد وجد أخيرًا سلاحًا من شأنه قلب الموازين.

سألته وأنا أحدجه بنظرة باردة: «كيف عرفت؟».

فبادلني النظرة الباردة قائلًا: «هل ستتظاهرين بأنك لا تعرفين ملّاحي؟ لقد أحرق سينت الكثير من جسور التواصل يا فيبل، والانتقام حافز قوي».

استنشقت نفسًا بطيئًا، وملأت صدري المتألم بالهواء الرطب. ثمة جزء مني أراد عدم تصديق ذلك، ثمة جزء متصدع من ذهني كان يأمل ألا يكون كلوف هو الشخص الذي أخبره بذلك.

ثم قلت وأنا أرجو أن تكون الكلمات التي سأقولها حقًّا: «إذا كنت تعرف مَن أنا، فأنت تعلم أن سينت سوف يقتلك حين يكتشف ما جرى».

فهز كتفيه وقد بدا واثقًا وهو يقول: «عما قريب لن يمثل لي أي مشكلة»، ثم اعتدل في جلسته مرة أخرى وهو يمد يده نحو الخبز ويمزق قطعة من الرغيف متابعًا حديثه: «وهذا ما يقودني إلى سبب وجودك هنا. إنني أحتاج إلى مساعدتك في شيء ما».

راقبته وهو ينثر طبقة سميكة من الزبدة على الخبز، وتساءلت: «مساعدتي؟».

فأومأ بالإيجاب وقال: «نعم. وبعدها يمكنك العودة إلى ذاك الطاقم البائس أو العودة إلى أي خرابة في سيروس كنتِ تخططين لجعلها بيتًا لك».

ما أثار قلقي الشديد أنه بدا يعني كل كلمة مما يقول، لم يَلُح طيف خداع حتى في عينيه وهو يحدجني بنظرة مباشرة.

وعاد بصري إلى النافذة حيث انعكست أطياف من زرقة البحر على الزجاج. ثمة اتفاق يجب إبرامه هنا، لقد احتاج إليَّ. سألته: «ما الذي تريده مني؟».

فقال: «إنه شيء بوسعك الاضطلاع به»، والتقط ثمرة خرشوف وقشّرها قبل أن ينهش قلبها بأسنانه، وسألني: «ألن تأكلي؟».

صوبت عيني نحوه، يجب أن تكون أصابع قدمي على شفير الهلاك كي أضطر إلى قبول وجبة أو أي شيء آخر من أي شخص على هذه السفينة. سألته: «هل عادتك إطعام سجنائك على مائدتك؟».

فأجاب: «أنت لست سجينة يا فيبل. لقد أخبرتكِ. الأمر ببساطة أنني بحاجة لمساعدتك».

قلت: «لقد اختطفتني وقيدتني في صاري سفينتك».

فقال: «ارتأيت أنه من المستحسن إخماد نيران غضبك قليلًا قبل أن نتحدث»، ثم عادت الابتسامة إلى شفتيه وهو يهز رأسه ويواصل حديثه: «كما قلتُ، تشبهينها تمامًا»، وضحك ضحكة غليظة قبل أن يتجرع كأسه المترعة بالجاودار ويخبطها بقوة على المائدة، ثم نادى: «كالا!».

ترامى دبيب أقدام خارج الغرفة قبل أن ينفتح الباب، ومن ورائه وقفت كالا في الممر منتظرة.

قال زولا: «سوف ترشدك كالا إلى أرجوحة شبكية في غرفة نوم الطاقم. وإذا احتجتِ لأي شيء فاطلبيه منها».

فرددت بصري بينهما في حيرة وتساءلتُ: «أرجوحة شبكية».

أجاب: «سوف تكلفين بمهماتك غدًا، ومن المتوقع أن تنجزيها دون طرح أسئلة. إن من لا يعملون على هذه السفينة لا يحصلون على طعام، وفي الغالب لا يعودون إلى الشاطئ أيضًا».

لم أتبين ما إذا كانت تلك النظرة في عينيه تشي بالجنون أم المرح، ربما كليهما. قلت: «أريد استعادة سكيني».

فرد وفمه ممتلئ: «لن تحتاجيها. تلقى الطاقم أوامر بعدم التعرض لكِ. ما دمتِ على متن السفينة لونا فأنت بأمان».

فكررت طلبي: «أريد استعادتها. وكذلك الخاتم الذي أخذته مني».

بدا أنه يفكر في الأمر وهو يمسك بالمنديل ليمسح أصابعه، ثم نهض من كرسيه المزخرف متجهًا إلى مكتبه، ومد يده نحو ياقة قميصه، وبعد ثوانٍ ظهرت سلسلة ذهبية من الياقة ومفتاح حديدي أسود يتدلى في الهواء قبل أن يستقر في راحة يده. ثم دسه في قفل الدرج وفتحه، فالتمع الخاتم المعلق في الخيط وهو يخرجه ويسلمني إياه.

ثم التقط السكين وجعل يقلبها في يده قبل أن يمدها نحوي ويقول: «لقد رأيتُ هذا النصل من قبل».

كانت سكين ويست. لقد أعطاني إياها قبل أن نغادر ماريجولد في ديرن لكي نبيع الغنيمة التي استخرجناها من السفينة لارك. وأخذتها من زولا، وتفاقم الألم في حلقي وأنا أفرك المقبض البالي بإبهامي. واستشعرت وجود ويست في لحظة خاطفة مع مرور هَبّة رياح عابرة على سطح السفينة قبل أن تنزلق فوق السور مرة أخرى وتفر إلى البحر.

أمسك زولا بمقبض الباب منتظرًا، وأغمدت السكين في حزامي قبل أن أخطو إلى الممر.

قالت كالا باهتياج: «هيا».

سارت حتى هبطت العتبات المفضية إلى الطابق السفلي، وترددتُ قبل أن أتبعها، وألقيت نظرة إلى الوراء بحثًا عن كلوف، لكن عجلة الدفة كان قد تولاها شخص آخر، أما كلوف فقد توارى عن الأنظار.

وتعالى صرير من جهة العتبات وأنا أهبط إلى الطابق السفلي، وأحسست باشتداد برودة الهواء في الردهة التي ينيرها وهج الفوانيس الخافت. وعلى عكس ردهة السفينة

ماريجولد فإن التصميم هنا أكثر تعقيدًا؛ إذ لم تكن هذه الردهة سوى المسار الرئيسي وسط مجموعة مسارات متشعبة في الطابق السفلي تفضي إلى غرف وأقسام مختلفة.

توقفت هنيهة حين مررنا بأحد الأبواب المفتوحة، حيث جلس بالداخل رجل محدودب الظهر فوق مجموعة من الأدوات يدون شيئًا في كتاب. انتشرت حوله المعاول والمطارق والأزاميل، وتجعد جبيني حين وقعت عيناي على تلك الأدوات اللامعة المصنوعة حديثًا، كانت تلك أدوات تجريف، ولم أر حمولة من خلفه.

ضاقت عيناي وأنا أعض على خدي من الداخل. إن السفينة لونا مصممة كي تحمل شحنات كبيرة، لكن بدنها كان فارغًا. لا بد أن الحمولة فُرغت مؤخرًا، إذ عندما رأيت السفينة في سيروس كانت تنجرف بثقل ينم عن امتلائها. لم يكن الأمر مقتصرًا على أن زولا متجه إلى منطقة البحر المجهول فقط، بل كان متجهًا إلى هنالك خاوي الوفاض.

ظل الرجل ساكنًا حين شعر ببصري مسلطًا عليه، ثم رفع عينيه نحوي بنظرة جامدة حادة. مد يده نحو الباب ودفعه مغلقًا إياه، وكورت يديّ وقد تعرقت كفاي. كان زولا محقًّا، لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما يعتزم فعله.

مضت كالا في المسار الضيق حتى النهاية، حيث أفضى بنا إلى ممر لا باب له قادنا إلى غرفة معتمة. ودلفتُ إلى الداخل وإحدى يديّ تنجرف بحركة غريزية نحو السكين، وتأرجحت الأراجيح الفارغة المعلقة في عوارض خشبية سميكة، ورأيت السترات والأحزمة معلقة من الخطافات على الجدران. ومن زاوية الغرفة ترامى صوت شخير رجل نائم يده متدلية ومغطى بلحاف كتانيٍّ.

أومأت كالا برأسها إلى أرجوحة منخفضة وقالت: «هذا مكانك».

قلت: «هذه غرفة نوم الطاقم».

وأردفتُ بحدة: «أنا لست من أفراد الطاقم». كانت فكرة المكوث مع أفراد الطاقم تثير انزعاجي، لست أنتمي إلى هنا، ولن تكون هذه هي الحال أبدًا.

فقالت: «أنتِ كذلك حتى يقرر زولا خلاف ذلك»، وبدا أن هذه الحقيقة تثير حنقها، وأردفتْ: «لقد أصدر أوامر صارمة بألا يتعرض إليكِ أحد. لكن ينبغي لك أن تعرفي...»، وخفضت صوتها قبل أن تتابع: «نحن نعلم ما فعلتموه بزميلنا كرين أيها الأوغاد، ولن ننسى ذلك».

لم يكن تحذيرًا، بل كان تهديدًا.

تململت في وقفتي وشددت قبضتي على مقبض السكين في تأهب. معرفة أفراد الطاقم أنني كنت على متن السفينة ماريجولد حين فتك ويست والبقية بزميلهم كرين تعني أن كل من على متن هذه السفينة يعادونني.

تركت كالا الصمت الباعث على القلق يملأ الجو قبل أن تختفي عائدة عبر المدخل المفتوح، ونظرتُ من حولي في الغرفة المعتمة وأنا أزفر زفرة مضطربة، ووقع الأحذية يدق من فوقي، وقد مالت السفينة بعض الشيء حين تلقفت الرياح الأشرعة، فمالت معها الأراجيح.

ساد هدوء مخيف جعلني أطوق نفسي بذراعيّ وأضغط. وانزويت في إحدى الزوايا المظلمة بين الصناديق ليتسنى لي النظر من منظور واسع للغرفة الغارقة في الظلام. لن يتاح لي مغادرة هذه السفينة حتى نرسو في ميناء، ولست أدري إلى أين نتجه بالضبط، أو لماذا.

ثارت في ذهني ذكرى أول يوم لي على متن السفينة ماريجولد، وأنا واقفة في الممر ويدي تتحسس الشعار المنحوت على الباب، آنذاك كنت غريبة في ذلك المكان، لكن انتهى المطاف بانتمائي إليه. والآن يمور في نفسي ألم الاشتياق إليها، وقد سرت في جسدي موجة حرارة لافحة، واحتشدت الدموع في عيني؛ لأنني كنت حمقاء، لأنني ظننت - ولو لوهلة - أنني كنت بأمان؛ أنني وجدت البيت والعائلة، وفي طرفة عين تداعى كل شيء.

الثالث



انجرف ضوء القمر الخافت عبر الأرضية الخشبية مع مرور ساعات الليل، زاحفًا باتجاهي، حتى انقضى الليل وهلَّت أولى كتائب ضوء الصباح، فانسرب شيء من الدفء من خلال ألواح سطح السفينة بالأعلى.

نطق زولا بالحق حين أخبرني بأنه أصدر أوامره للطاقم بعدم التعرض لي؛ إذ لم يكونوا ينظرون لي مع دخولهم إلى الغرفة وخروجهم منها طيلة الليلة أثناء تناوبهم لأخذ ساعات الراحة. وتخاطف النوم أجفاني بين الفينة والأخرى في قلب الليل، ويدي لا تزال قابضة على سكين ويست.

تناهت إلى أذني أصوات قادمة من الممر فنبّهتني من غفلة النعاس التي غلبتني. لقد تباطأت سرعة السفينة لونا، وتوترت أعصابي حين تدحرجت زجاجة زرقاء على الأرضية بجواري، واستشعرت تباطؤ حركة السفينة وأنا أبسط ساقيّ لأنهض.

تتابع وقع أقدام ثقيلة على السطح بالأعلى، وألصقت نفسي بالجدار وأنا أحدق إلى الباب مترقبة ظهور أي حركة. لكن لم يكن ثمة شيء قادم من الباب سوى صوت الرياح وهي تنسل في الممر.

جفلتُ حين ترامى صوت كلوف المدوي: «اطووا الأشرعة!».

أحسست بأن قلبي يغوص بين أحشائي وأنا أشاهد خيالات تلوح لي من بين الألواح، لقد كنا نرسو.

وهتف مصدرًا الأمر تلو الآخر، واستجابت له المزيد من الأصوات. وحين ندّ صريرٌ عن السفينة مرة أخرى انزلقت قدماي على الخشب الرطب، فمددت يدي لأتشبث بالعارضة الخشبية.

كان هذا يعني أحد أمرين، إما أننا زدنا السرعة للغاية وخرجنا من منطقة المضايق في ظرف ليلة واحدة، أو أننا نتوقف في محطة مؤقتة قبل أن نُكمل الطريق.

ثم انطلقت وعبرت الباب وأنا أستند على الجدار بإحدى يديّ وأرسل بصري نحو العتبات المفضية إلى السطح. لم تخبرني كالا بملازمة الغرفة، بينما أكد زولا أنني لست سجينة، ومع ذلك فالتجول في السفينة بمفردي بثّ في نفسي شعورًا بأن أحدهم قد يسدد لي طعنة في ظهري في أية لحظة.

استقبلتني أشعة الشمس حين ارتقيت العتبات، فطرفت بعيني بشدة وأنا أحاول تكييف عيني مع وهج الضوء لتتضح رؤيتي. ورأيت اثنين من البحارة يتسلق كل منهما أحد الصاريين الهائلين، ويعملان بحركة متناغمة على طي الأشرعة.

وتجمدتُ حين رأيت كلوف واقفًا عند عجلة الدفة، ثم دسست نفسي في ظل الصاري. كززت بأسناني من الحنق واعتراني غضب مرير وأنا مسلطة عينيّ عليه. لم أتخيل مطلقًا عالمًا يمكن أن يُقْدِم فيه كلوف على خيانة سينت، لكن ما هو أدهى وأَمَرّ أن أمي كانت تثق به. لقد أحبت كلوف كأخ لها، واستعصى عليّ استيعاب فكرة أنه كان من الممكن أن يخونها، كانت الفكرة ضربًا من ضروب المستحيل.

وقف زولا عند صدر السفينة وذراعاه معقودتان على صدره، وياقة سترته مرفوعة كي تقيه الرياح، لكن المشهد من خلفه هو ما حبس أنفاسي تمامًا، إذ ذهبت إلى أقرب نقطة من السور وفغرت فمي من الصدمة!!

جزيرة جيفال!!

لاحت الجزيرة كأنها حجر زمرد لامع في البحر الأزرق المتألق، وانبثقت جزر الحاجز أمامنا من المياه المتماوجة كأنها أنياب سوداء، وانجرفت السفينة لونا إلى آخر الرصيف البحري مع بزوغ الشمس في الأفق فوق هذا المشهد المألوف.

آخر مرة رأيت فيها الجزيرة كنت أركض فرارًا بحياتي. لقد ألقيت بنفسي تحت رحمة طاقم ماريجولد بعد أربع سنوات من الغوص في تلك الشعاب المرجانية بُغية تأمين ما يبقيني على قيد الحياة. ومع اقترابنا انقبضت كل عضلات جسدي من شدة التوتر حتى اعتصرت عظامي.

وتعرفت على صبي حافي القدمين يركض على الرصيف ليستقبل حبل التثبيت الذي سيُلقى من السفينة مع اقترابها. واعتلى أحد أفراد الطاقم السور بجواري وانكب على فك العقدة التي تُبقي السلَّمَ الحبليَّ مطويًّا عند جانب السفينة، ثم فكها فانبسط السلَّم صافعًا الجانب الأيمن.

سألته بصوت خفيض: «ما الذي نفعله هنا؟»، لكن الرجل قطب حاجبه وهو يحدجني بنظرة تجوب وجهي، ولم يجد جوابًا. ثم هتف مناديًا: «يا ريلاند! يا ويك!».

فهرع شابان يافعان من مؤخرة سطح السفينة، أحدهما طويل نحيل ذو شعر أشقر منفوش، أما الآخر فكان عريض الجثة بارز العضلات حليق الرأس.

عندئذ رمى الرجل صندوقًا أمامهما، فجفلت من اصطكاك الأدوات المعدنية بداخله؛ إذ كان يزخر بأدوات التجريف التي رأيتها الليلة الماضية، ثم قال: «افرزا هذه الأدوات».

طَوَّق خصر كل منهما حزام، فاستنتجت أنهما يتوليان مهمة التجريف على سفينة زولا. وحين أحس حليق الرأس بنظراتي له رفع بصره نحوي وحدجني بنظرة مشتعلة.

لم تكن جزيرة جيفال مجرد ميناء. والسبب الوحيد للمجيء هنا يتمثل في إفراغ بقايا إحدى الحمولات، ربما صندوق من البيض الطازج لم يشتره أحد في الموانئ الأخرى، أو بيع

بضع دجاجات إضافية لم يأكلها الطاقم. وكذلك توجد هنا أحجار البايار النفيسة التي تستخرج من هذه المياه، لكن تلك الأحجار لم تكن من النوع الذي يجذب أحدًا مثل زولا، كما أنني لم أرَ سفينته هنا من قبل.

إن رسو هذه السفينة في جيفال يعني أن زولا بحاجة إلى شيء آخر، شيء لم يستطع الحصول عليه في منطقة المضايق.

تتبّعت السور باتجاه مقدمة السفينة، وتمركزت خلف الصاري الأمامي حتى تتسنى لي رؤية الرصيف دون أن يرصدني أحد قد يتعرف عليّ. كانت بقية السفن الراسية جميعها صغيرة، ومن بعيد رأيت القوارب الصغيرة المكتظة بالقادمين من جزيرة جيفال للتجارة وقد رُسمت على أثرها خطوط بيضاء في الماء.

لو كنا قبل أسابيع فقط لكنت على متن أحد هذه القوارب قادمة إلى جزيرة جيفال كي أبيع أحجار البايار التي استخرجتها لقبطان السفينة ماريجولد. كنت أستيقظ في تلك الصباحات وشعور القلق يتنازعني، وتُحدثني نفسي أنني قد لا أجد ويست راسيًا بسفينته عند جزر الحاجز حين ينقشع الضباب. لكن عندما أقف على الجرف المطل على البحر كنت أجد أشرعة ماريجولد تلوح هناك، لطالما كانت هناك.

رفع زولا يده ليربّت ظهر كلوف قبل أن ينطلق نحو السلم الحبلي، ويهبط إلى الرصيف. لم يكن ثمة أحد يتولى منصب مدير ميناء في جزيرة جيفال، لكن سورين كان الرجل الذي تتحدث معه حين تحتاج إلى شيء، وكان واقفًا بالفعل منتظرًا عند طرف الرصيف. كان يرتدي نظارة بدا أثر الضباب على عدساتها التي تعكس ضوء الشمس وهو يرنو إلى الأعلى نحو السفينة لونا، ولوهلة ظننت أنه رصدني.

لقد اتهمني بالسرقة على الرصيف أكثر من مرة، حتى إنه جعلني أسدد دينًا لم أكن أدين به لأحد، وأجبرني على إحضار كمية كبيرة من الأسماك. لكن ما لبثت نظراته أن انجرفت فوق السفينة ولم تثبت عليّ لوهلة، وفي هذه اللحظة تذكرت أنني لم أعد الفتاة التي وثبت

لتتشبث بسلم السفينة ماريجولد فرارًا بحياتها، لم أعد الفتاة التي كانت تتسول وتكشط قعر القوارب من الطحالب العالقة من أجل النجاة بحياتها لسنوات على جزيرة جيفال، كل ذلك في سبيل غايتها التي تتمثل في البحث عن الرجل الذي رغب عنها. أما الآن فأنا الفتاة التي شقت طريقها، وصار لديها شيء ثمين في حياتها تخشى فقدانه.

واستقرت عيناي على زولا حين وطئت قدماه الرصيف. ومشى سورين بتكاسل نحو السلم، ومال برأسه ليصغي بأذنيه جيدًا نحو زولا وهو يتحدث، ثم رفع حاجبه الكثيف فوق حافة نظارته قبل أن يومئ برأسه في تفهّم.

كان بدن السفينة خاويًا من أية بضائع، ومن ثم فليس أمام زولا سوى شراء ما يريده بالنقود، لكن لم يكن ثمة شيء يمكن شراؤه في هذه الجزيرة سوى الأسماك والحبال وأحجار البايار، وهي أشياء لا تساوي الكثير في منطقة البحر المجهول.

ترك سورين زولا وانطلق حتى ذاب وسط المحتشدين على الألواح الخشبية المتهالكة، وعاد إلى الخلف باتجاه الطرف الآخر من الرصيف حيث تباطأت القوارب لتُنزل الجرّافين ذوي الأقدام الحافية الذين أتوا للمتاجرة.

ثم لمحت سورين يشق طريقه وسط الحشد حتى توارى خلف إحدى السفن.

ومن حولى كان كل فرد يضطلع بمهمته، وبدا أن التوقف عند الجزيرة لم يباغت أحدًا من أفراد الطاقم. ورفعت عينيّ صوب الصاري الرئيسي، فرأيت البحارة يهيئون أشرعة العواصف، وقد كانت أشرعة مغايرة لتلك المستخدمة في منطقة المضايق؛ إذ كانت مصممة لمواجهة العواصف العاتية التي جابت منطقة البحر المجهول.

امتدت المياه العميقة من ورائي على طول المسافة وصولًا إلى ديرن. كنت أعرف كيف أنجو بحياتي في جزيرة جيفال. إذا تمكنت من مغادرة السفينة لونا، إذا وجدت طريقة لـ... وتواثبت الأفكار بذهني، من فكرة إلى أخرى. إذا كان طاقم السفينة ماريجولد يبحثون

عني، فمن المرجح أنهم سيقتفون أثر زولا إلى سوان، وفي نهاية المطاف قد يأتون إلى جيفال.

ولكن كان لا يزال هناك جزءٌ مني يتساءل عما إذا كان طاقم ماريجولد سيقررون تقليل خسائرهم ويُعرِضون عن البحث عني. لقد حصلوا على الغنيمة من السفينة لارك، ويمكنهم تسديد دين سينت وبدء تجارتهم الخاصة. وترددت همسة خافتة في رأسي تخبرني بأنهم ربما لن يبحثوا عني أصلًا.

وصررت بأسناني وأنا أحدق إلى طرف حذائي، وأقسمت أنني لن أعود إلى جيفال أبدًا، ولكن ربما لحظتي هذه هي الفرصة الوحيدة التي تتاح لي للبقاء في منطقة المضايق. وشددت قبضتيّ على السور ومددت بصري لأنظر إلى الماء بالأسفل. إذا قفزت فيمكنني الدوران حول جزر الحاجز بسرعة أكبر من سرعة أي شخص آخر على هذه السفينة في حالة لحاقهم بي، ويمكنني الاختباء في غابة الأعشاب البحرية عند الكهف البحري. وفي نهاية المطاف سييأسون من فكرة العثور عليّ.

وحين أحسست بأن أحدهم يراقبني، نظرت من فوق كتفي إلى الوراء، فرأيت كلوف واقفًا عند عجلة الدفة ويراقبني كأنما يقرأ ما يدور بذهني، كانت تلك المرة الأولى التي تلتقي فيها أعيننا، وحدجني بنظرة محتدمة كاحتدام التيار المائي في الأعماق من تحتنا.

أفلتت يداي السور، ثم استدرت واتكأت عليه، ورحت أبادله النظرات. لقد كبر سنه، لمحت خصلات فضية تتخلل لحيته الشقراء، وقد فقد جلده الذهبي شيئًا من نضارته تحت الوشم الذي يغطي ذراعيه. لكنه ما زال كلوف، ما زال الرجل الذي أنشد لي الأغاني وأنا أخلد للنوم على متن السفينة لارك، ما زال الرجل الذي علمني كيفية النشل واشترى لي برتقالًا عند أرصفة ديرن.

مرة أخرى بدا أنه يقرأ أفكاري وعضلات فكه تضطرب بالحركة.

لحظتئذ لم أكره أحدًا قدر كرهي لهذا الشخص الماثل أمامي، ولم أتحرق شوقًا لرؤية أحدهم قتيلًا كما تحرقت لرؤيته قتيلًا. وبدت عضلات كتفيه مشدودة مع تغلغل تلك الكلمات في عقلي، وتخيلته في ذلك التابوت الذي أسقطه ويست في البحر المصطبغ بالسواد، وتخيلت صراخه العميق. واختلج جانب فمي بطيف ابتسامة مريرة مع ترقرق الدموع في عينيّ، ولسعتني شفتي المجروحة.

ظل التواصل البصري مستمرًّا هنيهة قبل أن يعود إلى العمل، وتوارى في الممر المفضي إلى حجرة القبطان.

أحسست بلهيبٍ خلف عيني وغليان غضب يمور في صدري. إذا كان كلوف قد انقلب على سينت، فأغلب الظن أن زولا محق. أراد كلوف الانتقام لشيء ما، وكان يستخدمني لتحقيق انتقامه.

ارتفعت أصوات قادمة من الرصيف فالتفتُّ صوبه، حيث وجدت سورين قد عاد حاملًا ورقة مطوية، ثم بسطها أمام زولا الذي دقق النظر فيها، وحين انتهى من القراءة أخذ ريشة الكتابة من يد سورين ووَقّع. وكان بجواره صبي وضع بعض الشمع عند زاوية الورقة، فضغط زولا على الشمع بخاتمه قبل أن يبرد، لا شك أنه كان يعقد صفقة.

بعد هنيهة ظهر وراءهما صفٌّ من الجرّافين مصطفين كتفًا بكتف. وقطبت جبيني وأنا أشاهد زولا يسير مارًّا على الصف بخطوات بطيئة وهو يفحص كل واحد منهم، ثم توقف عندما رأى صبيًّا يخفي إحدى يديه خلف ظهره، فاجتذب زولا يده ليرى أن أصابع يد الصبي اليمنى كانت ملفوفة بضمادة.

فأسقط زولا يده قبل أن يصرفه، وأخذ مكانه جرّافًا آخر كان ينتظر عند حافة الرصيف.

حتى تلك اللحظة لم أدرك ما كان يفعله، لم نتوقف عند جزيرة جيفال للتزود بالإمدادات أو للمتاجرة، لم يأتِ زولا إلى هنا لشراء أحجار البايار، بل أتى من أجل الجرّافين.

هتف كلوف آمرًا: «استعدوا!».

دفعني أحد البحارة مزيحًا إياي من مكاني عند السور وهو يقول مزمجرًا: «أفسحي الطريق».

فتنحيت وبقيت على مقربة وأنا أحاول رؤية المشهد، لكن الطاقم كان يرفع المرساة بالفعل، وارتقت كالا العتبات المفضية إلى مؤخرة سطح السفينة فتبعتها على الأثر، وتمركزتُ على مقربة من كومة صناديق لأراقب، وظهر زولا مرة أخرى عند جانب السفينة بعد أن صعد السلم.

ومن ورائه تتابع صعود الجرّافين على متن السفينة، وتوقف طاقم السفينة لونا عن عملهم، وقد استقرت أعينهم جميعًا على ذوي البشرة المصطبغة باللون الذهبي المتوافدين من فوق السور.

لهذا احتاجني زولا، كان متوجهًا للاضطلاع بمهمات غوص. ولكن كان لديه بالفعل جرّافان على الأقل في طاقمه، وثلاثة بي. ومع توافد المزيد من الجرافين القادمين من جزيرة جيفال وجدت أن عددهم لا يقل عن ثمانية.

وعلى مرمى البصر ازدادت حدة اضطراب سطح البحر، وتلاطمت الأمواج مع هبوب رياح شمالية باردة، وسرت بجسدي قشعريرة مع انفكاك حبل التثبيت الذي يثبت السفينة بالرصيف. وصعد آخر الجرافين إلى السفينة، وتجمدتُ حين وقع ضوء الشمس على وجه أعرفه؛ وجه كنت أخشاه في كل يوم قضيته على جزيرة جيفال.

وقف كوي بقامة أطول بشبر تقريبًا من قامة بقية الجرافين في الصف، وحين استقر بصره عليّ لمحت في عينيه المتسعتين نظرة تشي بأنه تعرّف عليّ، وكنت أعرف أن النظرة ذاتها تلوح في عينيّ.

عندئذ قلت بصوت أجوف مبحوح في نفس طويل: «سحقًا».

الرابع



أبقيت ناظريّ عليه.

اتكأ كوي على الصناديق المرصوصة على طول مؤخرة السفينة، وبصره مثبت على الأشرعة المبسوطة بالكامل فوق رؤوسنا. كانت السفينة لونا تبتعد عن جزر الحاجز وأخذت جزيرة جيفال تتضاءل من خلفنا. أيًّا كانت وجهتنا، فإن زولا لا يريد إهدار أي وقت.

لم ينظر كوي نحوي، بيد أنني كنت أعرف أنه يشعر بعيني مصوبتين تجاهه، ولقد أردته أن يعرف ذلك.

آخر مرة رأيت فيها كوي كان يشق طريقه على الرصيف البحري بقوة تحت جنح الظلام ويَهدر صارخًا باسمي. ما زال بوسعي استحضار شكله تحت سطح الماء ودمه يتدفق في تيارات ملتوية. لست أدري ما الذي دفعني إلى القفز في الماء مرة أخرى لأنقذه، لقد سألت نفسي هذا السؤال مائة مرة ولم أظفر بإجابة منطقية. لو كنت مكانه وكان مكاني في ذاك الموقف ما تردد كوي في تركي لأغرق.

وكرهي له لم يكن يعميني عن خصلة عرفتها في كوي منذ البداية، لقد كان رجلًا مستعدًّا لفعل كل ما يتعين عليه فعله في سبيل تحقيق مآربه، بأي ثمن وأي كلفة. وقد قطع عهدًا على نفسه في تلك الليلة التي وقفت فيها لأول مرة على متن السفينة ماريجولد، وفحواه أنني إذا عدت إلى جيفال يومًا ما فسوف يقيدني في الشعاب المرجانية ويتركني لتتغذى الأسماك على لحمي.

حامت عيناي حول هيئته وأنا أقدر طول قامته ووزنه. إنني لا أضاهيه في أي عنصر من عناصر القوة الجسمانية، لكنني لن أوليه ظهري أو أعطيه فرصة واحدة ليفيَ بعهده.

لم أطرف بعيني حتى صعد كلوف العتبات بخطوات متثاقلة، ومرر يديه على شعره المتلوي ليزيحه عن وجهه، وكانت أكمام قميصه مطوية حتى مرفقيه، وحين لاحظت حركته المألوفة اجتاح الألم صدري مجددًا.

هتف مناديًا: «أيها الجرّافون!».

اصطف الجرافون من جزيرة جيفال في صف بمحاذاة ميمنة السفينة، حيث كان الجرافان من طاقم زولا، ريلاند وويك، منتظرين هنالك، وكل منهما يقبض على صندوق أدوات، ومن النظرة المرتسمة على وجهيهما لم يبد أن ما كان على وشك الحدوث يروقهما.

وعلق كوي حزامه على كتفه، ووقف أمام كلوف. هذا تصرف يتسق مع شخصية كوي، حيث يحدد أكثر وغد يُخشَى جانبه على السفينة ويحاول إظهار عدم خوفه. ولكن حين حولت بصري إلى وجه كلوف وجدته ينظر إليّ.

كان يحدجني بنظرة صلبة ثابتة زعزعت نفسي، وصاح: «جميعكم».

فعضضت على شفتي السفلية لأحول دون ارتعاشها. إن تلك النظرة أعادتني إلى الوراء سنوات، إذ أشعرتني في الحال بأنني تلك الفتاة الصغيرة على متن السفينة لارك التي كان يوبخها حين تربط عقدة الحبل بطريقة خاطئة. واحتدت تعابير وجهي وأنا أخطو خطوة للأمام كي أكون على مقربة من نهاية الصف.

ثم هتف قائلًا: «أثناء وجودكم على متن هذه السفينة ستلتزمون بالنظام. وستفعلون ما تُؤمرون به. وستُبقون جيوبكم فارغة». ثم سكت وجعل يحدج كلًّا من الجرافين الجيفاليين بنظرة صامتة قبل أن يستكمل حديثه. لقد رأيت كلوف يلقى مائة خطاب مثل هذا تمامًا على متن سفينة أبي، وكان الأمر مألوفًا ألفة باعثة على الألم. وأردف: «سوف

تحصلون على وجبتين يوميًا أثناء عملكم على السفينة، وسوف تحافظون على نظافة أماكن نومكم».

على الأرجح كان يكرر البنود المذكورة في العقد الذي يمسكه في يديه - ذلك الذي وقع عليه زولا على الرصيف - وما من أحد ينكر أنها صفقة سخية، فحصول أي أحد من هؤلاء الجيفاليين على وجبتين يوميًا يعد ترفًا، ومن المرجح أن يرجعوا إلى منازلهم بنقود أكثر مما يمكنهم كسبه خلال شهور.

وتابع: «أول مَن يخالف هذه القواعد سوف نلقيه في البحر ليعود إلى جيفال سباحةً. أية أسئلة؟».

كان كوي أول من تحدث موضحًا شروطه الخاصة: «سوف تبقى زمرتنا معًا». كان يتحدث عن أماكن نومهم، وخمنت أن ذلك الطلب كان تحرزًا من ألا يصبحوا فرائس يستفرد بها طاقم لونا. كان كل جرّاف يتدبر أمر نفسه على جزيرة جيفال، أما هنا فالوضع مختلف، فالجماعة أكثر أمنًا على هذه السفينة.

فقال كلوف: «لا بأس»، ثم أومأ إلى ريلاند وويك اللذين بدا مظهرهما كأنهما متأهبان لاستلال السكاكين، فتقدما للأمام، ووضع كل منهما صندوقه أمام صف الجرافين. وأردف كلوف: «خذوا ما تحتاجونه من أدوات تكفيكم للغوص لمدة يومين، اعتبروه جزءًا من أجركم».

فهجم الجرافون على الصندوقين قبل أن يتم كلوف حديثه حتى، وجثموا حول الصندوقين يتصيدون المعاول ويضغطون على أطرافها الحادة بأصابعهم ذات الجلد الثفن، وتعمّقوا في التفتيش بحثًا عن الأزاميل والنظارات لإضافتها إلى أحزمة أدواتهم. وراح ريلاند وويك يراقبانهم بنظرات يبدو عليها الاشمئزاز من طريقة عبثهم بالأدوات.

لم أكن الوحيدة التي لاحظت ذلك، إذ وقف كوي خلف الجرافين وسلط عينيه على جرافي زولا، وحين التقت الأعين، غمر السفينة صمت ملحوظ مشوب بتوتر. وأحسست بأن الانتباه لم يعد متركزًا عليّ في تلك اللحظة، وخطر لي لحظتئذ أن وجود الجرافين الجيفاليين ربما يكون أمرًا جيدًا لي؛ إذ شتت الانتباه عني، ولو قليلًا.

ترامى صوت ينادي: «فيبل».

فتصلّب جسدي وأنا أسمع اسمي يُنطق بصوت كلوف.

قطع ثلاث خطوات متمهلة باتجاهي، فجفلت، وراحت أصابعي تفتش عن مقبض سكين ويست.

وتوقف حذاؤه حيال حذائي، ولاحظتُ نظرته إليّ بأريحية. تعمقت التجاعيد حول عينيه ولاحت رموشه الفاتحة كخيوط ذهبية. ورأيت ندبة لم أرها من قبل تحت أذنه، تلتف حول حلقه وتختفي في قميصه، وحاولت ألا أتساءل من أين أتت تلك الندبة.

أومأ بذقنه ناحية الجرافين الجيفاليين وسألني: «هل علينا الحذر من أحدهم؟».

فنظرت إليه وأنا لست واثقة مما إذا كان يتحدث معي حقًّا. علاوة على ذلك فقد طلب مني معلومات، كأننا على الجبهة ذاتها. أجبته: «أخمن أنك ستكتشف ذلك بنفسك، أليس كذلك؟».

فقال: «أفهم»، ودس يده في جيب سترته وأخرج محفظة صغيرة وهو يسألني: «كم ثمن تلك المعلومة؟».

فأجبته بنبرة ثقيلة: «أربع سنوات».

فقطب جبينه في تساؤل.

فتقدمت خطوة نحوه، واشتدت قبضته على المحفظة. قلت: «أعد لي السنوات الأربع التي قضيتها على تلك الجزيرة، ثم سأخبرك أيًّا من هؤلاء الجرافين هو الأقرب لذبحك».

حدجني بنظرة تشي بكل الأفكار التي حامت في رأسه ولم ينطقها.

ثم قلت وأنا أحني رأسي جانبًا: «لا أظن أن ذلك سيُحدث فارقًا كبيرًا».

فتساءل: «ماذا؟».

فقلت: «ما من امرئ يعرف حقيقة أحدهم على وجه اليقين، صحيح؟»، وطويت المغزى الذي أرمي إليه بين الكلمات وأنا أحدجه بنظرة ممحّصة، لكن لم تفصح تعابيره عن أي شيء ولا لمحت أي إشارة عما كان يفكر به.

واقتصرت إجابته على هذه الجملة: «كلٌّ منا له مهمة يضطلع بها، أليس كذلك؟».

فقلت: «أنت على وجه الخصوص متعدد المهمات، فأنت ملّاح، وواش... وخائن».

فقال بصوت خفيض: «لا تثيري المتاعب يا فيبل. افعلي ما تؤمرين به وسوف تتلقين أجرك كالبقية».

فقلت مزمجرة: «كم يدفع لك زولا؟».

لكنه لم يجد جوابًا.

فسألته: «ما الذي يفعله زولا في منطقة البحر المجهول؟».

سلط كلوف بصره عليّ إلى أن دوى اصطكاك الحلقات المعدنية على الحبال من فوقنا خارقًا الصمت الذي جثم بيننا، وانبسط شراع ملقيًا بظلاله عليّ وعلى كلوف، ورفعت عيني

لأعلى فلاح لي الشراع في اتجاه الشمس فلم أستوضح تفاصيله ولم تر عيناي سوى مربع أسود.

وبعد هنيهة استبانت لي تفاصيل الشعار المرسوم على الشراع، فلاحظت عدم وجود منحنى الهلال الذي يميز شعار زولا، وضيقت عيني في محاولة لاستبانة التفاصيل أكثر، فرأيت ثلاثة طيور بحرية تبسط أجنحتها في شكل مثلث مائل، لقد كان شعارًا لم أره من قبل.

إذا كانوا يرفعون شعارًا جديدًا، فهذا يعني أن زولا لم يرغب أن يُتعرَّف عليه مع دخولنا في مياه منطقة البحر المجهول.

ثم نظرت فرأيت كلوف يدلف إلى حجرة القبطان، وأوصد الباب خلفه، ولمحت حركة قميصه الأبيض من خلف زجاج النافذة التي تطل على سطح السفينة.

عضضت شفتي مرة أخرى، وجاشت نفسي بهياج وحنق. كنت أعرف ليلة غرق السفينة لارك أنني فقدت أمي، لكنني لم أدرك أنني فقدت كلوف أيضًا.

الخامس



تردد صوت زولا فوق السفينة سابقًا إياه قبل أن يعبر المدخل المقوّس: «ثلاث شعاب مرجانية!».

فك أزرار سترته وخلعها، ثم رماها نحو صبي من متشردي حي الساحل كان واقفًا عند الصاري. وانطلق حتى أمسك بالحبال المربوطة بإحكام عند مقدمة السفينة، ورفع نفسه وأرسل بصره إلى البحر.

أما أنا فبصري كان مثبتًا على ريلاند وويك، حيث وقفا في صف الجرافين الجيفاليين وقد بدا الشد يعتصر جسديهما إثر ما استشعراه من هوان. لم يسرهما أن زولا أحضر جرّافين إضافيين، في الواقع كانا يستشيطان غضبًا.

أشار زولا بإصبعه إلى قمم الشعاب المرجانية الممتدة بالأسفل وتتبعها قائلًا: «هنا وهنا وهنا».

وعلى مرمى البصر ربضت جزيرة صغيرة على شكل هلال، وانبثقت في الماء كأنها نصف دائرة مغمورة.

ثم أردف: «وفيبل ستقود مهمة الغوص».

طرفت بعيني والتفتُّ إلى الوراء ناحية الجرافين الذين رموني بنظراتهم الحادة.

وانفجر ريلاند قائلًا بغضب ويداه تنفكان من حيث كانتا معقودتين على صدره: «ماذا؟».

لكن زولا تجاهله وظل مثبتًا بصره تجاه الجزيرة. وعبثت الرياح بشعره الذي اختلطت خصلاته بين اللونين الأسود والرمادي فطرحته على وجهه الغليظ وأنا أحاول استقراء ملامحه. لقد قال إنه أصدر أوامره للطاقم بعدم التعرض لي، بيد أنه كان يعطيهم أسبابًا كثيرة لمعاداتي والنيل مني.

قال زولا: «القسم الرابع من الشعب المرجانية لا ينضوي على شيء، ولكن ثمة الكثير من أحجار التورمالين وأحجار البالادين وأحجار الدم في بقية الشعاب، وربما توجد زمردة أو زمردتان»، ثم قفز عائدًا إلى السطح واتجه إلى صف الجرافين قائلًا: «سنتفحص ما تحضرونه حين تعودون، وأول جرّاف يأتي بأحجار كريمة تتجاوز العشرين قيراطًا سوف نضاعف له أجره».

فانتصبت قامة كوي بعض الشيء حين سمع كلمات زولا، ونظر الجرافون إلى القبطان بحاجبين مرتفعين. شد ويك قبضته على حزامه وقد ارتفع أحد جانبي فمه.

وتابع: «أحتاج على الأقل إلى ثلاثمائة قيراط من الأحجار الكريمة، أمامكم مهلة حتى غروب شمس الغد».

تقدم كوي للأمام متسائلًا بنبرة لا تخلو من حدة: «ماذا؟».

نظر إليه زولا قائلًا: «إن السفن تسير وفق جداول مواعيد. ألديك مشكلة مع ذلك؟».

عندئذ قلتُ: «إنه محق». وبدا كوي مندهشًا لأنني وافقته الرأي، لكنه كان مصيبًا فعلًا. ثم أردفت: «سيتعين علينا التناوب على الغوص بلا انقطاع ونحن نحظى بمزية ضوء النهار إذا كنا نريد تجريف تلك الكمية المطلوبة».

بدا زولا يمعن التفكير في الأمر قبل أن يسحب الساعة من سترته ويفتحها، ثم قال: «إذن، أرى أنه من الأفضل أن تسرعوا»، ثم دس الساعة في جيبه ونظر إليّ متسائلًا: «والآن، ما رأيك؟».

وتزحزح جانبًا كي يتيح لي مساحة بجواره عند السور، بيد أنني لم أتحرك. كان زولا يدبر تدبيرًا، لكنني لم أكن متأكدة مما إذا كان أي شخص على متن هذه السفينة يعرف ما يدبره. لم يرقني هذا الشعور، أما هو فمن الجليّ أنه كان يستمتع بالأمر كله، وهذا جعلني أرغب في دفعه لأسقطه في البحر.

عاود سؤاله: «ما رأيكِ؟».

فكورت يديّ وشبكت إبهاميّ في حزامي وأنا أرسل بصري إلى البحر، حيث كانت حركة الماء سلسة في حيز هلال الجزيرة، وساكنة للغاية في بعض الأماكن، حتى إن أشكال السُّحب تنعكس على صفحتها، ونظرت إلى الماء على الجانب الآخر من الحافة، فرأيت أن الهلال كان منحنيًا بزاوية مثالية تحمي الحيز الداخلي من التيار. ثم قلت: «تبدو تلك المنطقة جيدة. لا ألاحظ تيار ماء قويًّا، لكننا لن نتأكد من ذلك حتى نغوص».

فنظر إلى عينيّ قبل أن يتحرك حولي، وقال: «أنزليهم هناك إذن».

رفع الصبي سترته فدس زولا ذراعيه فيهما، ثم عاد إلى غرفته دون أن يلقي نظرة علينا، وصُفق الباب من ورائه، وفي اللحظة التالية التفت الجرّافون نحوي، في حين امتقع وجه ريلاند وضاقت نظرته وهو يحدجني.

وعلى الجانب الآخر من الصاري الرئيسي وقف كلوف صامتًا.

كان إجمالي عدد الجرّافين أربعة عشر، ومن ثم فمن المنطقي تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة تتألف من أربعة أو خمسة وتعمل على أحد الشعاب المرجانية. تقدمت خطوة للأمام وأنا ألقي نظرة ممحّصة على الجيفاليين، كانت أحجامهم وأطوالهم متفاوتة، لكن من نظرتي إليهم أستطيع تحديد أسرعهم في السباحة. وسوف يتعين عليّ أيضًا توزيع جرّافي السفينة لونا على المجموعات.

الأفضل أن يترأس كوي إحدى المجموعات. سواء أحببته أم لا فقد كان أحد أمهر الجرافين الذين رأيتهم في حياتي. كان ملمًّا بالأحجار الكريمة وعلى دراية كذلك بالشعاب المرجانية. لكن سبق أن أخطأت بتركه بعيدًا عن عيني، لذا لن أكرر خطئي مرة أخرى.

توقفت أمام ريلاند وأومأت بذقني نحوه ونحو الجيفالي المجاور له، وقلت: «أنتما الاثنان معي، وكوي أيضًا».

فقطب أحد حاجبيه وهو يرمقني بنظرة مرتابة. لم أكن أرغب في الغوص معه أيضًا، ولكن ما دام على متن هذه السفينة فأنا بحاجة إلى معرفة مكانه بالضبط وما يفعله في جميع الأوقات.

ووزعت البقية في مجموعات؛ حيث جعلت أعضاء كل مجموعة متنوعين في أحجام أجسادهم، على أمل أن ما يفتقر إليه أحدهم قد يعوضه الآخرون. وعندما تشكلت المجموعات على سطح السفينة التفتُّ إلى الجزيرة وفككت الأزرار العليا من قميصي وخلعته من فوق رأسي. واصطدمت ذراع كوي بذراعي عندما جاء للوقوف بجانبي، فتصلب جسدي وابتعدت لتتسع المسافة بيننا.

تمتم وهو يمرر إبهامه على المعاول المعلقة في الحزام الذي يطوقه ويحصي أعدادها بصمت: «هذا الوغد ليس لديه أدنى فكرة عما يفعله». وبدت المعاول التي أخذها من الصندوق متألقة بين معاوله الصدئة التي كان يستخدمها في جيفال.

لم أرد عليه، وجعلت أحصى عدد معاولى في حزامي. لم يربط بيني وبين كوي صداقة ولا أي تحالف، وتعامله بلطف وراءه سبب، وبالتأكيد هو سبب لن يروقني.

تساءل: «ماذا؟ ألن تتحدثي معي؟».

عندما رفعت عينيّ صوب وجهه جعلتني الابتسامة الخبيثة الممتدة على شفتيه أجفل، وسألته: «ماذا تفعل هنا يا كوي؟».

فارتكز بيديه على السور وبرزت عضلات ذراعيه تحت جلده، وقال: «أنا هنا للغوص».

فسألته: «وماذا أيضًا؟».

فهز كتفيه قائلًا: «هذا كل شيء».

ضاقت عيناي وأنا ألقي عليه نظرة ممحّصة. كان كوي يملك قاربًا وينقل الجرافين حول جزيرة جيفال، وكان ذلك العمل يدر عليه أرباحًا يومية. لعله كان أثرى جرّاف في الجزيرة، وفي الفترة التي عرفته فيها لم يغادر جيفال قط. هذا يعني أنه الآن يسعى وراء مأرب ما.

لاحت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقول: «بربك يا فيبل. نحن الجيفاليين علينا أن نتآزر».

فبدرت مني حركة تنم عن التأهب، واقتربت منه للغاية، واضطررت إلى إمالة رأسي للخلف لأتأمل عينيه، وقلت: «أنا لست جيفالية. والآن، هيا إلى الماء».

وعندئذ غمغم ويك وهو يتحرك على كثب منا: «حثالة».

أتى ريلاند في عقبيه، واحدودب فوقي وهو يعلق قميصه على الصاري، فاضطررت إلى التقهقر كي أمنعه من لمسي. كنت أعرف بالضبط ما كان يفعله، حتى إن أعطاني زولا زمام الأمور فقد أرادني ريلاند أن أعرف مَن الأقوى بيننا، ولم أكن ندًا له، ولا لأيّ منهم بصراحة. وإن آلت الأمور إلى مجابهة، فلن يساندني أحد على هذه السفينة.

شعرت بأنني ضئيلة تحته، وماجت أحشائي إثر هذا الشعور.

وقال: «حريٌّ بكِ أن تنتبهي لنفسك تحت الماء، فالتيار متقلب»، ولم تتبدل النظرة التي لاحت في عينيه وهو ينطق بتلك الكلمات. ثم ارتقى السور وقفز، وأمسك بأدواته لتثبيتها في مكانها أثناء سقوطه إلى الماء. وبعد هنيهة قفز ويك وراءه، واختفى كلاهما أسفل زرقة البحر المتلألئة.

راح كوي يرمق ويك حين شق سطح الماء مرة أخرى ووجهه يخلو من أية تعابير. ثم حدثني كوي قائلًا وقد اصطبغت كلماته بدعابة تنضوي على شر: «أنتِ لن تشيحي ببصرك عني، أليس كذلك؟»، وارتقى السور فتبعته.

انتظرت أن يقفز قبل أن أملأ صدري بالهواء وأقفز بدوري وأصطدم بالمياه الباردة بجواره. وتسارعت الفقاعات على جلدي مندفعة نحو السطح، ولسعني الملح في عيني وأنا أستدير في دائرة محاولةً تحديد اتجاهاتي. وتمايلت الشعاب المرجانية من الأسفل في متاهة متشابكة يزداد عمقها كلما ابتعدتُ عن الجزيرة.

واحتشدت أسراب الأسماك من شتى الألوان على قمم الشعاب المرجانية، وتألق الضوء على حراشيفها البراقة وزعانفها المتهادية. وتكدست تكوينات المرجان كأنها قباب قصر من عالم آخر، بعض التكوينات لم أرها من قبل.

لقد صرنا بالتأكيد خارج منطقة المضايق الآن، لكنني كنت أعرف الأنغام الصادرة عن الأحجار الكريمة، ولقد رصدت ترددها الجماعي في الماء من حولي، وبمجرد أن أبدأ في تمييز النغمة عن الأخرى سوف نشرع في العمل.

عدت إلى سطح الماء مرة أخرى، وشهقت شهقة ومسحت أثر الملح عن عيني، يمكنني تذوق طعمه في مؤخرة حلقي. ثم قلت: «ابدأوا من الطرف الأعمق لكل أخدود. سوف نستغل قوتنا في الشطر الأول من اليوم، ويمكننا العمل على الأماكن القريبة من سطح الماء في وقت العصر. وسنسير على المنوال ذاته غدًا، فعلِّموا مساراتكم، وانتبهوا إلى الجانب، يبدو أن التيار يلتف حول طرف الشعب المرجاني هناك».

فأومأ جرَّافان جيفاليان في تفهم، وبدآ في ملء صدريهما بالهواء. وفعل كوي الشيء ذاته وهو يربط شعره للخلف. وركلتُ في الماء لمقاومة ثقل حزامي وأنا أهيئ رئتي لملئهما بالهواء.

وسرت ارتجافة في جسدي وأنا أحس بامتداد رئتي المألوف خلف أضلعي وسط أصوات أنفاس الجرّافين، إذ أثار ذلك ذكريات غوصي في الشعاب المرجانية حول جزيرة جيفال والخوف الذي اعتصرني في تلك السنوات.

ولم أحس بأن تلك الذكريات وذلك الخوف يزايلني إلا بعد أن وطئت قدماي متن السفينة ماريجولد.

دسست أصابعي في طوق قميصي وسحبت خاتم ويست من الداخل، ووضعته في وسط كفي متلألئًا في ضوء الشمس. لقد كنا خارج منطقة المضايق بمسافة بعيدة، ومع ذلك كان بوسعي استشعار أن حبلًا يربط بيني وبين السفينة ماريجولد مشدودًا على طول تلك المسافة.

أفرغت صدري من الهواء وأنا أتخيل الضوء الكهرماني الذي يملأ غرفة ويست.
واستحضرتُ رائحته التي كانت خليطًا من الجاودار ورياح البحر، وتذكرت عندما أجريت بناني على أضلعه حيث تواثبت خفقات قلبه في صدره، فانبثت في جنباتي حياة نابضة.

وملأت صدري بالهواء وحبست أنفاسي قبل أن أميل رأسي للخلف وأستنشق رشفة أخيرة من الهواء، ثم غُصت.

السادس



تألق سطح السفينة لونا تحت ضوء القمر ونحن نصطف كتفًا بكتف والرياح تهب علينا ومياه البحر تتقاطر من أجسادنا. جلس كلوف على مقعد، وتراصت أمامه الأحجار التي استخرجناها، وراح يزن الأحجار حجرًا تلو الآخر ويعطي الأوزان لمسئول الحسابات الذي يسجلها في الدفتر المفتوح في حِجره.

وضع كلوف قطعة خام بصلية الشكل من حجر العقيق على الميزان النحاسي، وانحنى للأمام وهو يضيّق عينيه لقراءة الوزن الظاهر على الميزان، وقال: «نصف قيراط».

وبجواري أصدر كوي نخرة تنم عن رضاه.

لم أتفاجأ من الغنيمة التي استطاع استخراجها. تساءلت كثيرًا فيما مضى عما إذا كان قد تعلم على يد خبير أحجار كريمة؛ ذلك أنه يستطيع استنباط شكل الحجر المنضوي تحت التكتلات المرجانية، ويعرف كيف يحدد الأماكن التي تحوي الأحجار الأكثر تركيزًا. سأكون كاذبة إذا قلت إنني لم أصقل مهارتي بعض الشيء بمراقبتي له وهو يعمل في الشعاب المرجانية. ولكن عندما بدأ نشاطه في نقل الجرّافين إلى جزر الحاجز منذ ما يقرب من عامين لم يعد بحاجة إلى الغوص كبقيتنا.

أما ريلاند فهز رأسه بمرارة وبدت عضلات فكه مشدودة. إن الغنيمة التي استخرجها لم تدخل ضمن المراكز الخمسة الأولى حتى، وغنيمة ويك كذلك. لا عجب أن زولا كان يبحث عن جرافة جديدة في اليوم الذي التقيت به في ديرن.

تجاوز وزن غنيمة كوي السبعة قراريط، ومن المرجح أن يعاود الكَرة غدًا. كان أقوى مني عضليًّا وبمقدوره ضرب المطرقة بقوة أشد مني، ما يعني أنه يأخذ وقتًا أقل لتحرير الأحجار الكريمة من مواضعها. ولست أتذمر؛ فلا يهمني إذا حصل على ضعف الأجر، وكلما أسرعنا في تحقيق الكمية المطلوب استخراجها اقتربتُ من العودة إلى منطقة المضايق والعثور على السفينة ماريجولد.

نهض كلوف وسلم الميزان إلى مسئول الحسابات وقال لنا: «جففوا أدواتكم. وجباتكم جاهزة». ثم نادى: «يا فيبل»، ونطق اسمي دون أن ينظر إليّ، لكنه أومأ بذقنه نحو المدخل المقوس في إشارة إلى أن أتبعه.

فعلقت حزامي على كتفي وتبعته إلى الممر الجانبي الواسع المفتوح، كان حجم هذا الممر ضعف حجم نظيره في السفينة ماريجولد. وثُبتت في الجدار طاولة عمل، حيث وقف ثلاثة من مسئولي الإمدادات والطعام يعملون على تنظيف الأسماك، وغلب على الجو رائحة الدخان المنبعثة من غرفة القبطان.

وفي الداخل جلس زولا عند مكتبه وأمامه كومة من الخرائط، ولم يكلف نفسه عناء رفع عينيه حين وضع كلوف الدفتر أمامه، وانبعث دخان احتراق نبتة المولين من غليونه معبئًا الجو، حتى خُيل لي من المشهد الذي أراه أن سينت في الغرفة معنا.

أنهى زولا ما كان يدونه قبل أن يضع ريشة الكتابة ويشرع في قراءة ما في دفتر الحسابات. ثم قال وهو ينتزع عينيه من الصفحة ويصوبهما نحوي: «حسنًا؟».

فحدجته بنظرة متسائلة وكررت كلمته: «حسنًا؟».

قال: «أحتاج إلى تقرير عن عملية الغوص». وانبعث صرير عن كرسيه وهو يتزحزح بعض الشيء إلى الوراء، ومد يده إلى غليونه الذي كان يعض عليه، وأمسك به أمامه، وما زالت أوراق نبتة البوصير تحترق وتبعث دخانها في هواء الغرفة.

فهبطت عيني على الدفتر المفتوح ورَقّت نبرتي وأنا أقول: «مُدون هناك».

فابتسم ابتسامة متكلفة وقال: «لقد ترأستِ عملية الغوص»، وزحزح دفتر الحسابات ناحيتي مردفًا: «أريد أن أسمع التقرير منكِ».

فنظرت إلى كلوف وأنا متحيرة بشأن ما يريده زولا، بيد أنه لم يبادلني نظرة تشي بأنه ينتظر معرفة الإجابة ذاتها التي أبحث عنها. استنشقتُ نفسًا طويلًا وأنا أكزّ أسناني، وقطعت الخطوات التي تفصل بيني وبين المكتب قبل أن أترك حزامي ينزلق من كتفي، فسقط على الأرضية بقوة واصطكت الأدوات ببعضها.

قلت: «حسنًا»، والتقطتُ الدفتر وأمسكت به أمامي وأردفت: «أربعة وعشرون قيراطًا من الزمرد، واثنان وثلاثون قيراطًا من أحجار التورمالين، وواحد وعشرون قيراطًا من أحجار العقيق، وخمسة وعشرون قيراطًا ونصف من أصداف أذن البحر الخضراء، وستة وثلاثون قيراطًا من المرو، وثمانية وعشرون قيراطًا من أحجار الدم. وتوجد أيضا ثلاث قطع من حجر الأوبال، لكنها معيبة، ربما تكون لها قيمة في التداول، ولكن لن تباع بنقود». وأغلقت الدفتر بحركة سريعة، ووضعته مرة أخرى على المكتب.

رمقني زولا من خلال ضباب الدخان المنبعث من الغليون المصنوع من عظم الحوت، وسألني: «هل أبلوا بلاء حسنًا؟».

فقطبت جبيني وأنا أتساءل: «الجرّافون؟».

فأومأ بالإيجاب.

فقلت: «لقد أخبرتك للتو».

فخبط مرفقيه على المكتب وارتكز عليهما رافعًا نفسه بعض الشيء، وقال: «أقصد كيف كان بلاؤهم، هل توجد مشكلات؟».

فحدجته بانزعاج وقلت: «إنني أتقاضى أجرى لأترأس عملية الغوص، وليس لإبلاغك بتقارير عن الجرافين».

زم زولا شفتيه مفكرًا، وبعد هنيهة فتح درج مكتبه وأخرج منها حافظة صغيرة ووضعها على كومة الخرائط، وأخذ منها خمس عملات نحاسية ورصها أمامي، ثم قال: «والآن أنا أدفع لك مقابل المهمتين». لاحظتُ ارتفاع فمه، واحتداد نظرته، كان لا يزال يمارس لعبته، ولكنني ما زلت لا أعرف قواعد تلك اللعبة.

إن الإبلاغ عن الجرّافين الآخرين هو الطريقة المثلى لانتزاعي من مكان نومي وإلقائي في خِضم البحر خلال الليل. فقلت بنبرة حاسمة: «لا، شكرًا».

ومن طرف عيني تراءى لي كلوف وهو يتململ في وقفته، لكن حذاءه ظل مثبتًا في الأرضية من غير حراك.

واستسلم زولا سريعًا قائلًا: «حسنًا»، وزحزح كرسيه مقتربًا من المكتب أكثر وقال: «نحن بحاجة إلى مضاعفة هذه الأرقام غدًا».

فانفلت مني التساؤل بصوت عال جدًّا: «الضعف؟».

ولفت ذلك انتباهه، فرفع حاجبيه وهو يحدجني بنظرة ممحصة، وكرر الكلمة مؤكدًا إياها: «الضعف».

فقلت: «ليس هذا ما قلته، ما من سبيل لتحقيق ذلك».

فهز كتفيه في طرب وقال: «كان ذلك متعذرًا قبل أن أعرف أن لديّ جرافة بارعة تقود عملية الغوص. لم أتوقع أن تحققي هذه الأرقام في يوم واحد».

عاودت تأكيد كلامي: «هذا غير ممكن».

فقال: «إذن لن يعود أي منكم إلى منطقة المضايق».

فكززت على أسناني وأنا أحاول إبقاء ملامح وجهي هادئة. أسوأ خطأ يمكن أن أقترفه مع زولا هو أن أسمح له بزعزعة ثباتي. كان عليّ أن أعود إلى سفينتي، وكان هذا كل ما يهم.

وطرفتُ بعيني لتلك الخاطرة، متى بدأت أفكر في ماريجولد بصفتها سفينتي؟ بيتي.

ولكن إن لم أجد طريقة لتكون لي اليد العليا فلن يتحقق مسعاي أبدًا. قلت: «أعرف ما تفعله».

فتساءل: «حقًّا؟».

فقلت: «لقد جعلتني أنام في غرفة نوم الطاقم وجميعهم يعلمون ما جرى لزميلهم كرين. وقد جعلتني أقود عملية الغوص بدلًا من الجرافين التابعين لطاقمك. إنك تريد أن يفتك بي أحدهم قبل أن نرسو في أي ميناء».

فرفع زولا حاجبيه كأنما اتضح له شيء، وقال: «إذن كنتِ هناك حيث قَتَل ويست كرين. ما كنت أتصور أنك قادرة على الاشتراك في جريمة قتل. ولم تكن فكرتي أن أجعل زمام الأمور في يدكِ». وانطلق بصره على الفور ناحية كلوف.

التفتُ لأنظر إليه، لكن استعصى عليّ استشفاف شيء من تعابير كلوف. كانت عيناه خاويتين وهو يحدجني بنظرة مباشرة في عينيّ. وكان هذا خطرًا من نوع مختلف.

كان هو وزولا يسيران وفق جدول زمني ضيق، جدول لم يبد أنهما قادران على تحمل عواقب التخلف عنه. إنني ابنة سينت، لكن إذا أرادوا استخدامي ضد والدي، فلماذا أخرجوني من منطقة المضايق؟ ثمة شيء في أمري أكبر قيمة بكثير من ذلك.

كان كلوف يعرف مهارتي فيما يخص الأحجار الكريمة، ولأول مرة يخطر لي أن هذا هو سبب وجودي هنا. ليس للتجريف فقط، ولكن للعثور على الأحجار الكريمة التي يحتاجونها

في مخططهم، أيًّا يكن مخططهم.

ظلت نظراتي مثبتة على كلوف وأنا أسأل زولا: «ماذا ستفعل بها؟».

فتساءل زولا بنصف ابتسامة: «بماذا؟».

فقلت: «ما السبب الذي يجعل سفينة مرخصًا لها بالتجارة في منطقة المضايق تبحر تحت شعار مزيف وتستخرج الأحجار الكريمة من الشعاب المرجانية في منطقة البحر المجهول دون تصريح؟».

فحنى رأسه جانبًا وهو يرمقني بنظرة فاحصة.

وأردفت: «لقد أفرغت مخزونك وغيرت مسارك، والجميع يعلم أن تاجرة أحجار كريمة كبيرة في باستيان تريد رأسك».

فقال: «و..؟»

تابعت: «وهذا يثير السؤال. ماذا ستفعل بأكثر من ثلاثمائة قيراط من الأحجار الكريمة؟».

قلب زولا غليونه وأفرغ رماده في وعاء برونزي عند زاوية المكتب، ثم نهض وقال وهو يطوي الخرائط: «انضمي إلى طاقمي وربما سوف أخبرك».

فحملقت إليه.

وأضاف: «ما البأس في ذلك؟ ستستبدلين قبطانًا وغدًا بآخر على شاكلته».

فقلت: «ويست ليس على شاكلتك في شيء».

كاد زولا يضحك وهو يقول: «يبدو أنك لا تعرفين قبطانك جيدًا»، وأصدر صوت فرقعة بلسانه.

عندئذ سرت قشعريرة في جسدي. هذا ما قاله سينت حين رأيته في ديرن.

وأردف: «آسف لأنني أنقل إليك أنباء سيئة يا فيبل، لكن ويست قد أراق دمًا مدرارًا يكفي لطلاء ماريجولد باللون الأحمر».

فقلت: «أنت كاذب».

فرفع يديه كأنه يستسلم وهو يدور حول المكتب صوب المائدة ليجلس على كرسي من كراسيها، وسأل: «أأنت متأكدة أنك لا تريدين مشاركتي العشاء؟»، واصطك طرف الشوكة بحافة الطبق وهو يلتقطها، وعادت تلك الابتسامة الخبيثة المروعة إلى وجهه.

التقطتُ حزامي وشرعت في المسير نحو الباب. لم يتحرك كلوف ليفسح لي الطريق حتى توقفت أمامه وقد اقتربت منه لدرجة أنني كدت ألمسه. ولم ينفتح فمي بيد أنني ألقيت عليه نظرة تطفح بكل ذرة من الكراهية بداخلي، وتركت موجات الكراهية تتابع عليه حتى لمحت اختلاجة في عضلات فمه. ثم تنحّى جانبا ومددت يدي نحو المزلاج وفتحت الباب بقوة جعلته ترتطم ارتطامًا شديدًا بالجدار وأنا أغادر.

ثم طوقت خصري بالحزام وشددته، وارتقيت العتبات المفضية إلى مؤخرة سطح السفينة حيث كان كوي جالسًا وساقاه متدليتان من طرف السفينة، وفي يديه وعاء من الحساء تتصاعد منه ألسنة البخار، وشعره المتماوج المنطرح على ظهره يجف من أثر الماء. وحين وقعت عيناه عليّ تجعد جبينه.

لم أكن أعرف السبب الذي أحضر كوي إلى لونا، لكني لم أكترث، لكنني أعرف أن ثمة جانبًا من كوي يمكنني التعويل عليه. ودُست على كعبي حذائيّ لأخلعهما.

أسقط ملعقته في الوعاء متسائلًا: «ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟».

عاودت فحص أدواتي بتمرير إصبعي على طرف كل إزميل وأجبته: «قبل غروب شمس الغد علينا استخراج ضعف الكمية التي استخرجناها اليوم، إذا كنا نريد أن نتقاضى أجورنا».

فتصلبت أعصابه وهو يتنحى ببصره بعيدًا ويرسله إلى البحر: «هل ستغوصين مجددًا؟».

كان القمر شبه مكتمل، وضوؤه يتناثر على المياه الهادئة من حولنا. ما دامت السماء صافية ولا تعكرها غيوم فيمكنني الغوص في المياه الضحلة والعمل على الصخور القريبة من السطح. سيكون الأمر بطيئًا، لكن ساعات النهار غدًا لن تكفي لاستخراج الكمية التي حددها زولا.

حين لم يتحرك حاولت استحثاثه مرة أخرى: «أعتقد أن بوسعي استخراج عشرين قيراطًا قبل الفجر».

فألقى عليّ نظرة فاحصة لهنيهة وعيناه السوداوان تلتمعان قبل أن يتنهد ممتعضًا وهو يلتقط حزامه من حيث رماه على سطح السفينة، وبعد لحظة اعتلينا السور. ومن صحن السفينة كان ريلاند يراقبنا.

أرسل كوي بصره من فوق رأسي نحو ريلاند وتمتم بصوت خافت: «هل ترين هذا؟».

فقلت بحنق: «نعم». منذ أن أسقطنا المرساة وأنا أشعر بنظرات ريلاند تتعقبني في كل مرة أظهر فيها على سطح السفينة، وتشككت فيما إذا كان طاقم زولا سوف يذعنون لأوامره بعدم التعرض لي حتى أغادر سفينته على قيد الحياة.

ثم قفزت، ولسعني الهواء البارد أثناء سقوطي قبل أن أغطس في الماء، وكل عضلة في ساقيّ تحترق من الإجهاد. وتبعني كوي، ثم شققنا سطح الماء مرة أخرى لنملأ صدرينا بالهواء في صمت. ولاح القمر الأبيض في الأفق، حيث كان يرتفع بوتيرة بطيئة ثابتة.

ثم قال خارقًا الصمت: «ظننت أنكِ قلتِ إنك لست جيفالية».

فبصقت وقلت: «أنا لست كذلك».

فقطب أحد حاجبيه في بادرة ذات مغزى، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة. لم أعترف بذلك مطلقًا، لكنني كنت أعرف ما يرمي إليه. كانت العودة إلى المياه المعتمة بعد يوم كامل من الغوص أمرًا جنونيًّا، وقد كان ذلك جنونًا من شِيم الجيفاليين، ولهذا عرفت أن كوي سيصحبني في تلك المهمة.

شئتُ أم أبيت، فثمة أجزاء مني نحتتها تلك السنوات التي قضيتها في جيفال. لقد غيرتني، وبطريقة ما شكلتني.

لاحت على شفتيه ابتسامة عريضة كأنما يقرأ أفكاري، ثم غمز لي قبل أن يغطس في الماء، وتبعتُه على الفور.

السابع



استللت المطرقة في الماء وطرقت بها على رأس الإزميل بضربة مباشرة، وكان ظل كوي يتحرك فوقي. كان شعورُ الاحتراق في صدري يخالجني الآن، وقطار الأفكار يشق طريقه في عقلي الذي شرد في مكان آخر، واحتشدت الذكريات في ذهني بينما كانت يداي تعملان بإتقان على الصخور المغمورة بنور الشمس.

كنت أغوص في مياه منطقة البحر المجهول، لكن في ذهني كنت أقف حافية القدمين على السطح الساخن بسفينة ماريجولد، وأوستر يعتلي قمة الصاري الرئيسي وتحيط به طيور البحر، والخصلات الذهبية تتألق في شعر ويلا.

وويست.

ما ينفك ذهني يجد السبيل إليه.

انزلقت المطرقة من أصابعي الخدرة، عندئذ طرفت بعيني، وعدت من عالم الخيال إلى عالم الواقع حيث الشعاب المرجانية أمامي، وامتلأ المشهد بزرقة البحر، وأحسست بضيق شديد في صدري كتحذير من اقتراب غيابي عن الوعي. ووجدتُ مرساة حديدية مثبتة في الشعاب المرجانية فتشبثت بها واعتصرتُ أجفاني اعتصارًا. وتناهى إليّ تردد طرقة من طرقات كوي على الصخرة فانتبه ذهني بما يكفي لأدرك أنني بحاجة إلى الهواء. أما هو فقد جمدت حركته وراح يرنو إليّ هنيهة من خلال سعف المرجان الأحمر المتهادي قبل أن يعود إلى العمل. لعل أكثر ما كان كوي يتحرق شوقًا إليه هو رؤيتي جثة مسجاة على هذه الشعاب المرجانية.

أعدت المطرقة إلى حزامي ودفعت نفسي إلى الأعلى نحو الضوء، ومن تحتي تصاغرت الشعاب المرجانية وتصاغر الجرّافون، إلى أن شققت سطح الماء وأنا أشهق بشدة، وصار المشهد أمامي ساطع البياض من أثر وهج الشمس على عينيّ. احتلت الشمس كبد السماء، بيد أنني لم أستشعر دفئها وأنا أستنشق الهواء الرطب؛ إذ كان جلدي كالثلج والدم يسري ببطء في عروقي.

وأطل وجه كلوف من فوق سور لونا، وحالما استقرت عيناه عليّ توارى مرة أخرى. وضيقت عينيّ لظني أنني ربما تخيلت صورته هناك، إذ كان الضوء شديد السطوع لدرجة فجرت الألم في رأسي.

لقد كانت ليلة طويلة عملت فيها على استخراج الأحجار الكريمة تحت ضوء القمر حتى اشتد الظلام لدرجة يتعذر معها رؤية الشعاب المرجانية. ولم أحظَ بقسط من النوم سوى ساعة أو ساعتين فقط قبل أن يرن الجرس على سطح السفينة مرة أخرى، وقد عدت إلى الماء مع بزوغ الشمس في الأفق.

شبّكت ذراعي في أدنى درجة من السلم الحبلي، وفككت الحافظة المعلقة في حزامي بيد مرتعشة. وحالما وضعت الحافظة في السلة المتدلية بجوار بدن السفن رفعها صبي حي الساحل كي يزنها كلوف ويسجلها في الدفتر.

لبثت هنالك ألتقط أنفاسي وأنا أريد أن يعود إحساسي بذراعيّ المنهكتين. كان عليّ تدفئة جسدي إذا أردت مواصلة الغوص، لكن قطعة حجر الدم التي كنت أعمل عليها في الشعاب المرجانية تكاد تتحرر، ما هي إلا ثلاث ضربات أخرى وسوف أحررها.

وتناهى إلى أذني صوت طرطشة ماء من خلفي، فنظرت خلفي لأرى ريلاند قادمًا من الأسفل يشق سطح الماء، وصدره العريض يسحب الهواء بصوت كأنه عواء ريح. وجعل يلهث وهو يشهق ويزفر حتى استقرت أنفاسه ووجهه إلى الشمس.

شاهدته يسبح إلى السفينة ويضع حافظته في السلة التالية التي رفعها صبي عند السور على الفور والماء يتقاطر منها أثناء ارتفاعها. وعندما أمسك الصبي بالحافظة التي تحوي ما استخرجه ريلاند قذفها في الهواء قبل أن يمسك بها مرة أخرى وهو يقدر وزنها، ثم قال ضاحكًا: «يبدو أن الضوء خافت بالأسفل يا ريلاند».

فابتسم ريلاند للصبي ابتسامة مقتضبة حانقة، وامتقع لون جلده. إن معرفة المرء بأن الجرافين الآخرين أفضل منه شيء سيئ، أما أن يعرف طاقمه هذه المعلومة فهذه كارثة. وتساءلتُ عما إذا كان وضع ريلاند على سفينة لونا قد أصبح حرجًا بدرجة لا تقل عن حرج وضعي.

واستقرت عليّ نظراته المتقدة، فاستدرتُ ونظرت لأعلى وأنا أوجّه ندائي نحو السفينة: «أحتاج إلى حبل!»، وقد بُح صوتي من أثر الملح.

وظهر صبي حي الساحل عند السور مرة أخرى، وأومأ لي بالإيجاب، وضغطتُ جبهتي على حبال السلم المبتلة وأنا مغمضة العينين. واضطرب بطني بشعور احتراق إثر ابتلاع مياه البحر، وانفتحت التقرّحات الموجودة على يدي من جديد. ولكن إذا كنت أرغب في العودة إلى منطقة المضايق، فلا يمكنني المجازفة بأن تكون الكمية المستخرجة أقل بقيراط واحد من الكمية المطلوبة.

سقط الحبل بجواري، فعلقته حول كتفي وأفلتُّ السلم. واجتاحني ألم شديد في صدري حين ملأت رئتي بالهواء مرة أخرى، وآلمتني عظامي. غطسة أخرى، ثم سأرتاح. سوف أعود إلى سطح السفينة الذي دفّأته أشعة الشمس وأرتاح حتى تهدأ أطرافي ويخبو ارتجافها.

واستنشقت نفسًا أخيرًا قبل أن أغطس، وسكنت حركتي كي يغرق جسدي ببطء مع توفير أكبر قدر ممكن من الطاقة. وفي أثناء ذلك كان كوي صاعدًا نحو السطح مرة أخرى ليتنفس، وتصاعد عنقود من الفقاعات أثناء مرور كوي بجواري. وحين حطت قدماي على الشعاب المرجانية تراءى لي كوي شبحًا أسود في ضوء الشمس المتساقط من الأعلى.

ودبت حركة في كائنات المرجان الوردية، وتناثرت الأسماك بحركة محمومة أثناء غوصي تجاه المرساة الحديدية. وأحسست بألم في منتصف حلقي فعرفت أن الهواء لن يدوم طويلًا في صدري؛ كان جسدي منهكًا بشدة لدرجة أنه لا يستطيع التحكم في الهواء كما ينبغي، لكن يمكنني توفير قدر من طاقتي بربط نفسي في الشعاب المرجانية باستخدام الحبل. لقد وصلت إلى المرحلة التي كانت أمي ستأمرني عندها بالخروج من الماء، ولسوف أخرج حالما أحصل على حجر الدم بين يديّ.

وربطتُ نفسي في الشعاب المرجانية باستخدام الحبل، كان الحبل متصلبًا جراء تشرّبه بالملح، ما يجعل انفكاكه احتمالية ضعيفة.

ولاح حجر الدم الموشك على التحرر من موضعه بلون الطحالب التي جففتها الشمس على الشاطئ، وتلألأ الجزء المكشوف منه تحت الصخرة. كان الصوت الصادر عن حجر الدم من أوائل الأصوات التي تعلمتها عندما بدأت أمي تعلمني، كأنه طنين رقيق للحن مألوف.

قالت أمي إن مثل هذه الأحجار يجب أن تُستخرج من الشعاب المرجانية بعملية دقيقة متأنية، وإن استخراجها يحتاج إلى مستوى معين من البراعة ليست متيسرة لكل شخص.

سحبتُ المطرقة من حزامي واخترتُ أكبر مِعول. لو لم يكن الوقت ضيقًا لكنت سأتعامل بحرص أكبر وأستعمل أصغر الأدوات كي لا تتضرر حواف الحجر، لكن على زولا أن يرضى بما سيأتيه وحسب.

عدّلتُ زاويتي وطرقت على الزاوية طرقات سريعة، وحين ترددت أصداء احتكاك صخري من حولي التفتُ ونظرت إلى أعلى الشعب المرجانية، فرأيت الجراف الذي يعمل عند الطرف الآخر رفقة ريلاند يركل حافة صخرية ليدفع نفسه نحو السطح.

وطرقت بالإزميل طرقة أخرى، وتشققت قشرة صخور البازلت ونشرت ضبابًا من حولي أثناء سقوطها نحو قعر البحر. وانتظرتُ حتى صفا الماء قبل أن أقترب لأتفحص زوايا

الحجر، كان أضخم مما توقعت، ويطوقه خط منقوط بنقاط قرمزية لامعة.

تردد صرير الصخور مرة أخرى، ورفعت نفسي على الحافة وأنا أراقب الشعاب المرجانية. لم يكن ثمة أحد. وأحسست بقشعريرة تسري على جلدي، وخطرت لي خاطرة توجُّس عابرة، ثم استشعرت وطأة ثقيلة على فخذي.

استدرتُ وكانت يدي قابضة على الإزميل كأنه سكين أمسك بها أمامي، وافترقت شفتاي حين سرى الدفء المنبعث من جسده في الماء حولي، كان ذلك ريلاند. شدني من حزامي بقوة وهو يدس سكينه بين أدواتي ووركي ويحرك السكين في حركة جزّ. ركلته بقدمي مع انقطاع الحزام الذي سقط في قاع البحر، وأنا أحاول دفع ريلاند للخلف. بيد أنه طوّق رقبتي بيده وثبتني في الشعاب المرجانية.

جعلتُ أخدش أصابعه بأظفاري وأنا أصرخ تحت الماء، وجعلت أتلوى في حركات عشوائية حتى جُرحت ساقي جرحًا عميقًا جراء ارتطامها بنتوء مرجاني. وحدجني ريلاند بنظرة مباشرة في وجهي وهو يراقب فقاعة الهواء تنفلت من بين شفتيّ. واجتاحني خوف حاد، فنُفضت البرودة عن جلدي وعادت الحرارة إلى وجهي.

كان ينتظر إفراغ رئتي من الهواء، كان يحاول إغراقي.

زممت شفتيّ في محاولة لإبطاء خفقان قلبي قبل أن تنحرق ثمالة الهواء في صدري. أما هو فقد ثبت نفسه في صخرة وضغط عليّ بثقله، مهما ركلت فلن يتزحزح، وأرسلت بصري إلى الأعلى بحثًا عن شبح أحدهم، أي شخص قد يرانا، بيد أنني لم ألمح سوى تلألؤ الضوء على سطح البحر.

جعلت أنظر بلا حول ولا قوة، وارتخت قبضتي، وانفلتت صرخة يائسة من صدري. لم يكن ثمة متسع لتحريك يدي، بالكاد استطعت ثني أصابعي.

انطلقت عينا ريلاند نحو الشعاب المرجانية، وشد قبضته عليّ قبل أن يتركني فجأة ويركل الحافة بقدميه ليدفع نفسه نحو الأعلى، وشاهدته يختفي فوقي، فركلت الصخرة واندفعت لأعلى أشق طريقي في الماء بأسرع ما يمكن، وجعلت أركل وأنا أنظر إلى أعلى نحو ضوء الشمس المنتشر على السطح وفي الوقت ذاته كانت كتائب الظلام يزداد زحفها في ذهني.

اثنا عشر مترًا تفصلني عن السطح.

تباطأت حركة ذراعيّ. كانت مقاومة الماء تزداد قوة مع كل خفقة من خفقات قلبي في صدري.

تسعة أمتار.

فجأة أوقفتني جذبة حادة، فالْتَوَتْ ذراعاي وساقاي وفُغر فمي وتدفق الماء البارد داخل حلقي.

الحبل. كان لا يزال مربوطًا حول خصري، وطرفه الآخر مربوط في الشعاب المرجانية بالأسفل.

صرخت في ذعر، وانفلتت ثمالة الهواء في صدري متصاعدة في سلسلة من الفقاعات نحو السطح، في حين اندفعت يدي نحو العُقدة في محاولة لفكها بعضلات واهنة، وحين لم تتحرك عقدة الحبل مددت يدي خلف ظهري من أجل السكين. بيد أنها لم تكن موجودة، كان حزامي كله في القاع.

احتلت كتائب الظلام ذهني مع حركة الانفتال الشديدة التي اعتصرت صدري، وماجت أحشائي. حاولت أن أحرك الحبل فوق خصري، لكن دون جدوى. ثم لمحت من أسفلي رأسًا ذا شعر داكن يطل من وراء الشعاب المرجانية، كان ذلك رأس كوي الذي رمقني بعينيه السوداوين.

سال الدم أمامي في خيوط متهادية كأنها ألسنة دخان، وفجأة شعرت بأن وزني صار أخف، شعرت بخواء. اختفى الألم الذي اعتصر صدري حتى أحسست بأنني جوفاء من الداخل.

لم يكن هناك سوى خفقات قلبي تدق في أذني وأنا أنظر إلى ساقي مجروحة ويسيل منها خيط دماء. واشتملتني العتمة، واستسلمتُ لكتائب الظلمة لتبتلعني بالكامل.

الثامن



«تنفّسي!».

انتشلني الصوت الهادر من أعماق غياب الوعي، ودبّ وخزٌ على خدي وانبعث صوت غرغرة عن حلقي.

«تنفسي!».

انفتحت عيناي بما يكفي لأرى وجه رجل أمامي في ظل بدن السفينة، وجهًا بالكاد تعرفت على صاحبه، وجه عامل من عمال السفينة. وحامت عيناه الرماديتان فوقي، بيد أنني لم أستطع حراكًا، ولا استطعت حتى أن ألتقط أنفاسي.

فطوّح يده ثم هوى بها مرة أخرى صافعًا إياي على وجهي؛ فاندلع الألم في صدري وأنا أشهق الهواء وأختنق بمياه البحر الدافئة الطافحة في فمي. وبدأت ملامح الأشياء من حولي تتضح شيئًا فشيئًا، وملأني الذعر. ووثبت وثبة لأمسك بالحبل بجواري وألفُّ به ذراعي لأبقى فوق الماء.

ودوى صوت العامل في أذني دويًا مؤلمًا وهو يهتف: «ارفعوها!».

عندئذ بدأ جسدي في الارتفاع، وتردد صرير الرافعة من سطح السفينة لونا وهم يسحبونني بها، وازداد ثقل وزني فأحسست بأنني أنزلق من الحبل المبتل إلى أن لففت ساقيّ حوله.

وحين رفعت بصري لأعلى، لمحت كلوف يرمقني من مؤخرة سطح السفينة، وحين طرفتُ ارتعشت صورته في عينيّ واضطربت رؤيتي للمشهد. وسعلتُ حتى جاش الوجع في رئتيّ،

ثم هبط العتبات عتبتين عتبتين حتى وصل إليّ.

وتساءل: «ماذا حدث؟».

بيد أنني عجزت عن الكلام، وتهاويت على ركبتيّ وأنا أتقيأ الماء المالح من بطني إلى أن فرغ بطني. وزحف دم متدفق على الألواح الخشبية حتى لامس يدي المرتكزة على الأرضية، فنظرت إلى ساقيّ وأنا أتذكر الدم الذي كان يسيل في الماء، حيث ما زال الدم ينزف من جرح ساقي إثر الاصطدام بالنتوء المرجاني.

فارتميت بتثاقل لأجلس، وفتحت الجلد الممزق بأصابعي كي أتفحصه، لم يكن عميقًا بما يكفي لرؤية العظام، لكن يجب تخييطه. واجتاحتني موجة أخرى من الغثيان، وتهاويت مرة أخرى على سطح السفينة الساخن، ومررت يدي عبر شعري وأنا أحاول استحضار ما حدث للتو.

تحلّق طاقم السفينة حولي وأخذوا يحدجونني بنظراتهم، لكن ريلاند لم يكن موجودًا في أي مكان على مرأى مني، لعله لا يزال يرتعد على الشعاب المرجانية منتظرًا معرفة ما إذا كنت سوف أشي بفعلته.

وبعد دقيقة أخرى، ظهر زولا فوق السور صاعدًا من البحر، وهبط بقدمين ثقيلتين بجوار الصاري الرئيسي.

خطا كلوف خطوة أخرى نحوه وهو يتساءل مرة أخرى: «ماذا حدث؟».

لكن كوي كان ينظر إليّ، وقد فهمتُ النظرة التي تلوح في عينيه. كان يتصرف بقوانين جيفال؛ منتظرًا أن يرى ما سأقوله قبل أن يجيب.

عندئذ قلت بصوت مبحوح وحلقي يكاد يحترق: «لقد نفد الهواء من رئتيّ».

نظرت مرة أخرى إلى كوي وقلت: «فقدت حزامي ولم أستطع تحرير نفسي من الحبل الذي كان يربطني بالشعاب المرجانية».

تأمل كلوف نظرتي إليه، وشاربه ينتفض. ثم سأل: «من رأى ذلك؟»، واستدار في دائرة وهو يراقب وجوه بقية الجرّافين على سطح السفينة، لكن لم يحر أحد جوابًا.

قلت بغضب وأنا أنهض على قدمي: «ما الذي يهمك في هذا؟»، تشبثت بالشراع لأحافظ على توازني وأنا ألتقط أنفاسي في محاولة للحيلولة دون التقيؤ مرة أخرى.

كان الحبل المعقود لا يزال ثقيلًا على وركي، وبقيته لا تزال تتدلى من جانب السفينة وتختفي في الماء، فسحبته ولففته في لفافة على سطح السفينة وجثوت لأرفعه، ولاحظت أن طرفه مقطوع بإتقان حتى إن نسيجه غير مهترئ.

لقد قُطع بنصل حاد.

ثم نهضتُ والحبل في يدي وأنا أنظر إلى مقدمة السفينة. وهبطت عينا كوي على سطح السفينة واستدار وهو يشد وثاق حزامه حول خصره مرة أخرى. آخر شيء رأيته قبل أن أغيب عن الوعي كان وجهه وهو يرنو إليّ من وراء الشعاب المرجانية. لو لم أكن أعرفه لظننت أنه هو مَن قطع الحبل ليحررني.

انتزعت سكينًا من حزام جرّاف يقف بجواري وجززت الحبل الذي يطوّق خصري. واتجه نحوي أحد مسئولي الإمدادات قادمًا من الطابق السفلي ومرتقيًا العتبات المفضية إلى سطح السفينة، وفي إحدى يديه علبة صفيح تحوي إبرة وخيطًا، وفي الأخرى زجاجة جاودار.

مد يده نحوي ليثبتني، بيد أنني دفعت ذراعه بعيدًا عني وأنا أزمجر: «لا تلمسني»، وانتزعت الأدوات من يديه وتجاوزته وأنا أتجه صوب المدخل المقوس.

واستشعرت نظرات الطاقم مستقرة على ظهري وأنا أهبط الدرج بمشية عرجاء وأتكئ على الجدار. وأخذت فانوسًا من الخطاف وقطعت الممر حتى وصلت إلى مخزن الشحن، وترقرقت الدموع في عينيّ حالما دلفت إلى الداخل. ونشقتُ وأنا أحاول حبس الألم في صدري؛ لم أكن لأدعهم يسمعون بكائي.

دب الوخز في ساقي، لكن الجرح كان لا يستلزم إلا بضع غرز، والأهم أنه لن يحول دون غوصي. لقد شهدتُ ما هو أدهى وأمرّ.

أغلقت الباب وجلست على صندوق فارغ وأنا أحرك الفانوس على كثب مني قبل أن أفتح زجاجة الجاودار. واستنشقت نفسًا عميقًا وزفرته قبل أن أصب الجاودار على الجرح، وأصدرت أنينًا مكتومًا وأنا أطبق أسناني. اندلع إحساس اللهيب في ساقي حتى سرى إلى بطني، وعادت رغبتي في التقيؤ، ما أشعرني بالدوار.

ثم قرّبت الزجاجة من فمي وتجرعت وأنا أرحب بدفقات الدفء التي تتدفق في صدري. لو مرت ثانية أو ثانيتان أخريان تحت الماء، كانت أنفاسي ستنقطع إلى الأبد، ولم أكن لأفيق.

كان الممر خارج الباب صامتًا ومظلمًا. وحدقت إلى الأرضية وأنا أحاول تذكُّر ما قد رأيته. الشخصان الوحيدان عند تلك الشعاب المرجانية هما كوي وريلاند، ولاحت النظرة في عيني ريلاند واضحة وهو يخنقني، كان يريد قتلي.

هذا يعني أن كوي قد قطع الحبل، وأنه قد أنقذ حياتي. لكن هذا لا يمكن أن يكون حقيقة.

لضمتُ الخيط في الإبرة بيدين مرتعشتين، وضممت الجلد عند أعمق جزء من الجرح ليجتمع جانباه معًا، ثم غرزت الإبرة في الجلد دون أن أشعر بوخزة شديدة، وشعرت بالامتنان لأن جسدي كان لا يزال باردًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد شعرت بوخز الإبرة.

وجدتُ شفتيّ تتمتمان: «اغرزي وشدي، واغرزي مرة أخرى»، والدموع تتساقط من طرف أنفي أثناء عملي.

علمني كلوف خياطة الجروح في صغري. ذات مرة جرح نفسه بخطاف، وحين لمحني أتجسس عليه أمرني بالجلوس والتعلم.

همست لنفسي مرة أخرى: «اغرزي مرة أخرى».

رغم اتساع مساحة المخزن فقد أحسست بأنه يضيق عليّ، وشعرت بأنني متضائلة في الضوء الخافت مع توافد الذكريات بوضوح شديد ذكرى تلو الأخرى. أبي جالس عند مكتبه، وأمي ترص الأحجار الكريمة على الطاولة أمامي.

أيٌّ منها مزيفة؟

في أول مرة أنجح فيها في تحديد الأحجار المزيفة، أخذتني إلى قمة الصاري الرئيسي وأطلقنا صيحة فوز مع الريح.

وحملقت وأنا أتخيل شكل جديلتها، وجسدها يتهادى مع بصيص الضوء القادم من سطح السفينة، تراءت لي شبحًا، ولوهلة اعتقدت أنني ربما أنا الأخرى شبح، وأنني في برزخ ما تنتظرني فيه إيزولد، لعلي لم أنجح في الخروج من الماء وقضيت نحبي غرقًا.

في تلك اللحظة أردتُ أمي، أردتها بجانبي كما كنت أريدها بجانبي في طفولتي حين كنت أستيقظ مفزوعة إثر كابوس. خلال تلك السنوات التي أمضيتها في جيفال وحتى لحظتي هذه جعلت نفسي شخصًا صلبًا كما أرادني سينت، صار انكساري مستعصيًا. لكن الآن، وأنا جالسة هنا أخيط جرح ساقي، انفلتت من بين شفتيّ صرخة صامتة، وأحسست بأنني صغيرة، هشة، وأحسست بالوحدة.

مسحت خدى المبتل بظهر يدي الملطخة بالدماء وأتممت غرزة أخرى. وتناهى إلى سمعي دبيبٌ على ألواح الأرضية، فرفعت الفانوس، ومن أسفل الباب المغلق لاح شبح قدمين، وراقبت المزلاج في انتظار رفعه، لكن بعد لحظة اختفى الشبح.

استنشقت بعض الأنفاس بوتيرة ثابتة، وقبضتُ على خاتم ويست واعتصرته في كفي. مرت ستة أيام منذ الصباح الذي هبطت فيه سلم السفينة ماريجولد في ديرن، ومرت خمس ليال منذ آخر ليلة قضيتها في سريره. ويلا، وباج، وأوستر، وهاميش. تخيلت وجوههم في ذهني في مشهد ضبابي. ثم تخيلت وجه سينت، وازدردت ريقي، وتذكرته في الحانة في ديرن وكوب الشاي في يده. سأدفع أي ثمن لأراه الآن، حتى إن بدا شديد البرودة والقسوة.

عقدتُ الخيط بعد آخر غرزة، وسكبت بقية الجاودار على الجرح وأنا أتفحص عمل يدي. لم تكن غرزًا متقنة، وسوف تترك ندبة سيئة، لكنها سوف تفي بالغرض.

نهضت وألقيت الزجاجة فتدحرجت على أرضية المخزن وأنا أحمل الفانوس وأعود إلى الباب، ورفعتُ ذقني وأنا أفتحه قبل أن أخطو إلى الممر الفارغ. وحين عدت إلى سطح السفينة كان العامل الذي استفققتُ على صوته يحدجني بعينين واسعتين من موقفه أمام عجلة الدفة.

دفعت الفانوس إلى يديه وقلت: «أحتاج إلى حزام جديد».

بدا متحيرًا، فكررت بضجر: «حزام».

فتردد وهو ينظر إلى كلوف الذي كان لا يزال جالسًا على المقعد يزن الأحجار، وأُقسم أنني رأيت ابتسامة ارتسمت على شفتيه قبل أن يومئ إلى العامل برأسه.

مضى الصبي إلى الطابق السفلي بينما سرت ارتجافة في جسدي وأنا واقفة قبالة الرياح.

ما زالت مياه البحر تتقاطر من شعري وتسقط بجوار قدميّ. وحين رفعت عينيّ كان كوي يراقبني من مكانه عند مقدمة السفينة، حيث كان يلتقط معولًا جديدًا من الصندوق.

فتمشيت نحوه بخطوات متأنية وأنا أحاول إخفاء العرج في مشيتي، وحين وصلت إليه قلت: «لماذا فعلت ذلك؟».

دس المعول في حزامه وقال: «فعلت ماذا؟».

فقلت بنبرة مضطربة: «أنت... قطعت الحبل».

فضحك كوي ضحكة رقيقة وقال: «لست أدري عم تتحدثين».

فاقتربت منه وأنا أهمس: «بل تدري».

فأجال كوي بصره على سطح السفينة، ثم انحنى فوقي وهو يرمقني في وجهي وعيناه السوداوان مثبتتان في عينيّ، قائلًا: «لم أقطع الحبل».

مضى منطلقًا بجواري مع عودة الصبي بحزام مليء بالأدوات. طوقت خصري به وأغلقت مشبك الحزام بإحكام، وخيّم صمت على سطح السفينة حين صعدتُ ذراع رافعة المرساة ووقفت على جانب السفينة بقدم وحيدة وأنا أحاول موازنة نفسي. وقفت قبالة الرياح أرنو إلى اللون الأزرق المتماوج بالأسفل، ثم لم ألبث أن قفزت.

التاسع



دق جرس الميناء من بعيد، فتناهى إلى أذنيَّ وأنا غارقة في حلم تطوف فيه سفن مطلية باللون الذهبي ذات أشرعة تشبه الأجنحة ويتردد في أجوائه اصطكاك أحجار الأفعى مع هبوب الرياح.

وفتحت عيني على ظلام دامس.

كانت غرفة نوم الطاقم غارقة في صمت لا يقطعه سوى الشخير وصرير الصناديق إثر احتكاكها بالأرضية مع تباطؤ السفينة لونا. وراحت يدي تفتش تفتيشًا محمومًا عن سكيني وأنا أُنهض جذعي لأجلس وأبسط ساقيّ خارج الأرجوحة الشبكية وألمس الأرضية الباردة بأصابع قدمي.

لم أخلد إلى النوم قصدًا. لبثت أراقب أرجوحة ريلاند من فوقي في ظلام الغرفة إلى أن سكنت حركته، ورغم ثقل أجفاني ووجع عظامي، فإنني كنت مصممة على البقاء مستيقظة لأواجهه إن قرر إنهاء ما بدأه.

وعند الجانب الآخر من الغرفة كان كوي لا يزال نائمًا، ويده تتدلى من أرجوحته وتكاد تلامس الأرضية. ونهضتُ وأنا أستشعر الألم في ساقي، وتحسست الأرضية بقدميّ حتى وصلت إلى حذائي. وبعد أن انتعلت الحذاء فتحتُ الباب ودلفت إلى الممر.

تحسّست الجدار حتى وصلت إلى الدرج المفضي إلى سطح السفينة، ورفعت بصري لأتطلع إلى صفحة السماء الرمادية.

ترامى صوت زولا وهو يصدر الأوامر أثناء صعودي إلى سطح السفينة. وطوقت جسدي بذراعيّ حين سرت في جسدي ارتجافة من برودة الهواء. كانت لونا محاطة بضباب أبيض متألق كثيف لدرجة أنني استشعرت ملمسه على وجهي.

علا صياح عدة أشخاص يشق الضباب: «أبطئ أبطئ!»، وحنى كلوف رأسه جانبًا ليصيخ السمع قبل أن يلف عجلة الدفة قليلًا.

قصدتُ إلى السور وأنا أراقب الضباب الذي يحوم من حولنا. وكان بوسعي سماع عمال الموانئ، لكن الرصيف لم يظهر حتى صرنا على بعد أمتار فقط، وكانت عشرات الأيدي ممدودة استعدادًا كي تتلقى بدن السفينة قبل أن يصطدم بالرصيف.

ترامى الصوت ينادي مرة أخرى مع توقف السفينة: «الآن!»، فسقطت المرساتان في الماء بارتطام قوي.

وتحرك كلوف حولي لفك عقدة السلم الحبلي، وبعد هنيهة ظهر زولا وبعض مساعديه.

ولم تتبدَّ لنا سوى القمم السوداء النحيلة لأسطح المنازل وهي تنبثق من الضباب كأنها شواشي أعواد قصب في بركة مياه. لكن لم أشعر بأن منظرها مألوف.

سألت زولا وأنا أنتظره كي ينظر إليّ: «أين نحن؟».

فارتدى قفازيه تباعًا وهو يقول: «ساجساي هولم».

فارتفع صوتي وأنا أتساءل: «ساجساي هولم؟»، وشددت كتفي في بادرة تأهب وأنا أتوجه نحوه وقد فُغر فمي، ثم تابعت: «قلت إننا سنعود إلى منطقة المضايق».

فقال: «كلا، لم أقل ذلك».

فقلت: «بل قلته».

اتكأ على الصاري وهو يرمقني بهدوء ثم قال ببطء: «قلت إنني بحاجة إلى مساعدتك، ونحن لم ننته بعد».

فقلت بحنق: «لقد استخرجت لك تلك الغنيمة في ظرف يومين. لقد بلغنا النِّصاب المنشود».

رد ببساطة: «لقد استخرجتِ الغنيمة، والآن حان وقت تحويلها».

فغمغمت بلعنات مكتومة. لهذا نحن في ساجساي هولم، إن تحويل الغنيمة يعني تكليف تاجر أحجار كريمة بتنظيف الأحجار وصقلها لتجهيزها للتجارة. قلت: «لم أوافق على ذلك».

فاقترب مني متحديًا إياي أن أجادله: «لم توافقي على أي شيء. أنتِ على متن سفينتي وسوف تفعلين ما تؤمرين به إن كنت تنشدين العودة إلى سيروس».

فغمغمت وأنا أكزّ على أسناني: «أيها الوغد».

اعتلى السور ووضع حذاءه على السلم ثم هبط نحو الرصيف.

تردد في أذني صوت كلوف الحاد وهو يقول: «أنتِ معي».

فالتفتُ إليه وأنا أتساءل: «ماذا؟».

وضع صندوقًا مغلقًا بين يديّ ولوّح بيده ناحية السور ثم أعاد كلامه: «أنتِ قادمة معي».

فقلت: «أنا لن أذهب إلى أي مكان».

فقال: «يمكنك البقاء على متن السفينة إن شئتِ»، وأومأ بذقنه ناحية مؤخرة سطح السفينة حيث كانت مجموعة من أفراد الطاقم تحدق إليّ، ثم أردف: «القرار لكِ».

تنهدت وأنا أرنو إليهم عبر الضباب. إن خوت السفينة من أحد يحرص على التزام الطاقم بأوامر زولا فلست أدري ما يمكن أن يحدث لي. لقد أنقذ كوي حياتي مرة، بيد أن نفسي حدثتني أنه لن يُقدم على فعل ذلك مرة أخرى إذا آلت الأمور إلى أن يكون في جبهة معي ضد طاقم بأكمله.

ورأيت في عيني كلوف معرفته بانعدام الخيارات أمامي. سألته: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

فقال: «أريدك أن تتأكدي من أن التاجر لا يحاول خداعنا بأي خدعة. لست أثق بذوي الدم المملح».

هززت رأسي وأنا أبتسم ابتسامة ماكرة في عدم تصديق لما أسمعه. لقد أراد خبيرة أحجار كريمة للتأكد من أن التجار لم يستبدلوا أي حجر من الأحجار. قلت: «أنا لست كوالدتي». بدأت إيزولد تعلمني مهارة خبراء الأحجار الكريمة قبل وفاتها، بيد أنني كنت بحاجة إلى سنوات عديدة أخرى من التدريب لأصل إلى مستوى براعتها.

حين قلت ذلك اعترى مُحيا كلوف تغير، وجعلني ذلك أشد قبضتيّ على مقبضي الصندوق الثقيل. ثم قال وقد اعترى نبرته تغير أيضًا: «خبرة قليلة أفضل من انعدامها»، وتساءلت عما إذا كانت سيرة والدتي قد لمست وترًا حساسًا في أعماقه.

انتهزت الفرصة لأقول: «أنت تعلم أن إيزولد كانت ستكرهك لو رأت ما فعلته، أليس كذلك؟»، ثم دنوت منه خطوة.

لم يجفل وأنا أرمقه بنظرة مباشرة في عينيه، لكن فورة الجسارة غاضت سريعًا مع ذكر اسمها. لم يكن الوحيد الذي أثرت فيه ذكرى إيزولد، لقد التفَّت ذكراها حولي واعتصرتني اعتصارًا.

دس كلوف يديه في جيبي سترته وهو يقول: «إلى الرصيف. الآن».

رمقته هنيهة أخرى قبل أن أدفع الصندوق إليه وأرفع غطاء الرأس الملحق بسترتي. ولم أنبس بكلمة وأنا أرتقي السور وأهبط السلم نزولًا إلى حشد عمال الرصيف بالأسفل. وقف زولا على حافة الرصيف أمام مدير الميناء، وفتح وثيقة مطبوعًا على زاويتها شعار مزيف. وراقبتُ الرجل بإمعان وأنا أتساءل عما إذا كان سيكتشف الأمر، إن الإبحار بشعار مزيف جريمة من شأنها أن تحرم القبطان من الإبحار على أي سفينة طيلة حياته.

دوّن مدير الميناء شيئًا في دفتره، وتفحص الوثيقة مرة أخرى قبل أن يطويها، ثم قال متبرمًا: «لا يروقني وصول سفن في مواعيد مفاجئة».

فقال زولا بتأدب ولطف: «لن نلبث أن نرحل. نحتاج فقط إلى التزود ببعض الإمدادات قبل أن نصل إلى باستيان».

تأهب مدير الميناء للمجادلة، لكن بعد هنيهة سحب زولا حافظة صغيرة من جيب سترته ومدها نحوه، فألقى مدير الميناء نظرة من فوق كتفه ناحية الرصيف قبل أن يلتقط الحافظة دون أن ينبس بكلمة.

وهبط كلوف على الرصيف بجواري، وأومأ له زولا إيماءة قبل أن يشرع في المسير. ومشيت خلف كلوف نشق حشد الباعة المتجولين ومصلِّحي السفن حتى وصلنا إلى الشارع.

كان الشارع مرصوفًا بحجارة عريضة ومستوية، على نقيض الحجارة الدائرية في شوارع سيروس، لكن الأهم أن الشارع هنا كان نظيفًا. لم ألمح في الشارع لطخة طين أو حتى كومة من مهملات الميناء، وكانت نوافذ جميع المباني تتألق.

بدأت غيوم الضباب تنحسر أمام ضوء الشمس الساطع، وأثناء سيرنا رفعت عيني صوب المباني المشيدة بالطوب الأحمر، حيث احتلت واجهاتها نوافذ مستديرة عكس زجاجها

صورتي وصورة كلوف أثناء مرورنا بها، فكان مشهد اجتماعنا مشهدًا مألوفًا من ذكريات الماضي، مشهدًا لم أود النظر إليه.

لم أسمع أي شيء تقريبًا عن مدينة ساجساي هولم الساحلية، باستثناء أن والدي أتي إلى هنا عدة مرات في الاجتماعات التي ضمت مجلس تجارة منطقة المضايق ومجلس تجارة منطقة البحر المجهول. في تلك الآونة كان يسعى سعيًا حثيثًا للحصول على ترخيص يتيح له التجارة في هذه المياه. لعل كل ما فعله لتحقيق مأربه لم يكن قانونيًّا، بيد أنه في نهاية المطاف ظفر بما أراده.

شق كلوف الطريق عبر الحشد وبقيت على كثب منه أسير في عقبيه. وبدا أنه يعرف بالضبط إلى أين يتجه وهو ينعطف عطفة تلو الأخرى دون أن ينظر إلى اللافتات المكتوب عليها بخط اليد والمثبتة في الشوارع والأزقة. وعندما توقف أخيرًا وجدت نفسي أسفل نافذة دائرية ألواحها الزجاجية متداخلة مع بعضها في تناسق، وتعكس الزرقة العميقة لصفحة السماء.

نقل كلوف الصندوق بحيث يمسكه تحت ذراع واحدة، ومد يده الأخرى إلى المطرقة النحاسية في الباب. وتردد صدى الطَّرقات من حولنا، لكن لم يكن ثمة حركة من وراء الباب، وبدا الجو مظلمًا من وراء النافذة. وعندما طرق مرة أخرى انفتح الباب فجأة.

وقفت أمامنا امرأة ضئيلة ترتدي مئزرًا جلديًّا مهترئًا، وقد تورد وجهها بينما شعرها الداكن كان ملتصقًا بجبينها العريض. قالت: «ماذا؟».

أجاب كلوف دون تنميق للكلام: «أريد صقل عدة أحجار».

فقالت: «حسنًا»، وتركت الباب مفتوحًا ثم سحبت حزمة أوراق من جيب مئزرها، ووضعت نظارتها، ثم تابعت: «جدول الأعمال مزدحم هذا الأسبوع».

فقال كلوف: «أحتاجها اليوم».

تجمدت يداها ونظرت إليه من فوق نظارتها قبل أن تضحك وتقول: «مستحيل»، وحين لم يقل شيئًا وضعت يدها على خصرها وقالت: «اسمع، لدينا جدول زمني...»

فقاطعها كلوف وهو يدس يده في سترته قائلًا: «أفهم»، وأخرج حافظة كبيرة، وأمسكها من دون أن ينطق بشيء. ثم قال: «من أجل المتاعب»، وحين ضاقت عيناها دفع الحافظة نحوها وأردف: «بالإضافة إلى أجر العمل بالطبع».

بدا أنها تفكر في الأمر وقد ارتفع جانب فمها.

لقد كانت إحدى حافظات عديدة رأيتها تخرج من جيبه وجيب زولا، وبدأت أتساءل عما إذا كان زولا قد أنفق ثروته بالكامل في هذا المسعى. من الجلي أنه كان في عجلة من أمره، وكان مستعدًّا لخوض المجازفات. ما الذي جعله يدير مهمة غوص في ظرف يومين فقط ويُجري عملية سريعة لصقل الأحجار في ساجساي هولم؟ لقد رفع شعارًا مزيفًا على السفينة لونا، وأي وثائق استخدمها ليستطيع الرسو في الميناء لا بد أنها مزورة. ما هذا الهدف الجديد بالمخاطرة بخسارة رخصته التجارية؟

ترددت المرأة هنيهة أخرى قبل أن تأخذ الحافظة أخيرًا وتختفي في المدخل، وتبعها كلوف مرتقيًا الدرج، ودلفنا إلى الداخل ثم أغلقتُ الباب خلفنا.

وعلى الفور استشعرت طنين الأحجار الكريمة في الجو. ذبذبة عميقة صادرة عن حجر العقيق الأحمر، ونغمة حادة صادرة عن حجر العنبر، وأزيز ثابت منخفض صادر عن حجر العقيق الأسود. واشتملتني الأصوات في ضغط شديد من حولي كضغط الماء أثناء الغوص.

قادتنا المرأة إلى غرفة جلوس صغيرة يتدفق الضوء إليها من نافذة كبيرة.

وخلعتِ المئزر وعلقته على الجدار وقالت: «شاي؟ سوف يستغرق الأمر بعض الوقت».

فأومأ لها كلوف بالإيجاب، وفتحت هي بابًا جرارًا ظهر من ورائه رجل جالس عند طاولة خشبية في الورشة.

ثم وضعت الحافظة على الطاولة الخشبية وقالت: «مهمة مستعجلة»، فرفع عينيه مرسلًا بصره نحونا.

انحنت المرأة على الطاولة وتحدثت بصوت خفيض جدًّا كي لا نسمعها، ووضع الرجل حجر المرو الذي كان يعمل عليه في العلبة الموضوعة أمامه. وتألق الحجر الذي يزين خاتمه، ولاحت على سطحه آثار تآكل وخربشة، ما يعني أنه يعمل بالتجارة منذ أمد بعيد.

واتخذت مجلسي على الكرسي المجاور للموقد غير المشتعل كي أرى التاجر جيدًا. كان من الشائع في أوساط تجار الأحجار الكريمة ذوي المستوى المتدني أن يستبدلوا الأحجار أثناء عملهم على صقلها. وكان ذلك من الطرق القليلة التي تدخل بها المنتجات المزيفة في سوق تجارة الأحجار الكريمة.

أخلى التاجر الطاولة بسرعة، وصعّد بصره فينا، ثم سأل: «هل أتيتما للتو من منطقة المضايق؟».

ترامى صوت غليان إبريق شاي من الغرفة المجاورة.

أجابه كلوف بارتياب واضح: «نعم».

فقال الرجل بامتعاض: «حريٌّ بكما ألا تسببا أي متاعب هنا».

عندئذ سألته: «أية متاعب؟»، لكن كلوف حدجني بنظرة حادة كأنما يُسكتني بها.

فأجاب الرجل: «حرق السفن. كان ذلك مناط حديث الناس بالأمس في السوق».

فانجرفت عينا كلوف نحوي.

وأردف: «أحد التجار في منطقة المضايق يتنقل من ميناء إلى آخر ويضرم النيران في السفن، بحثًا عن سفينة تسمى لونا».

اعتراني جمود وقلبي يتواثب في صدري.

سينت أم ويست؟ لا شك أنه أحدهما.

لكن ويست وطاقم ماريجولد ليسوا قادرين على فعل أي شيء بهذه الدرجة من العدوان الصارخ دون الوقوع تحت مقصلة اقتصاص مجلس التجارة. إذا كانوا يبحثون عني فسيفعلون ذلك بهدوء. لكن حرق السفن في جميع موانئ منطقة المضايق ... تلك كانت فعلة على شاكلة أفاعيل والدي.

زفرتُ زفرة مرتعشة، واختلجتْ شفتاي بابتسامة خجولة، واستدرت نحو النافذة لأمسح دمعة من زاوية عيني قبل أن يلمحها كلوف. لا يمكن أن يكون ذلك النبأ قد باغته؛ إذ كانت معرفته بطباع والدي أوثق من معرفتي بها.

لم أكن قد سمحت لنفسي بنشدان الأمل في حدوث ذلك، بيد أنني بطريقة ما عرفتُ في أعماقي أنه سيأتي من أجلي.

فتح الرجل الصندوق واتسعت عيناه قبل أن يلتقط الحجر الأول - قطعة من التورمالين الأسود. لم يهدر أي وقت وعلى الفور وضع نظارته على عينيه واستعد للعمل وهو قابض على معول صغير للغاية.

وارتمى كلوف على كرسي بجوار الموقد ورفع قدمه على ركبته الأخرى، ثم سألني: «هل ستخبريني بما حدث في غوص البارحة؟».

لم أشح بعيني عن التاجر وأبقيت صوتي منخفضًا وأنا أقول: «هل ستخبرني بما فعله سينت ليجعلك تنضم إلى زولا؟»، واستشعرت عينيه وهما تتفحصانني. تابعت: «هذا ما

حصل، أليس كذلك؟ خانك سينت بطريقة ما واعتزمت الانتقام. ما من أحد يعرف تجارة سينت كما تعرفها، وما من أحد يعرف بشأن ابنته التي أنجبها، وهذا يجعلك مغنمًا لا يقدر بثمن لزولا».

عادت المرأة إلى غرفة الجلوس تحمل صينية شاي، ووضعتها على المنضدة الخفيضة، ثم ملأت فنجان كلوف قبل أن تملأ فنجاني، ورنوت إلى الفنجان وأنا أراقب تموجات الضوء على سطحه.

قالت المرأة: «هل أُحضر لكما أي شيء آخر؟».

فصرفها كلوف بحركة سريعة بيده، فأخذت المرأة المئزر من الخطاف قبل أن تشق طريقها إلى الورشة، وجلست قبالة الرجل عند الطاولة وهي تلتقط حجرًا آخر من كومة الأحجار.

قلت: «رأيتُ سينت في سيروس. لقد أخبرني بأنك رحلت».

قرّب كلوف الفنجان إلى شفتيه وارتشف رشفة أصدرت صوتًا حادًّا.

وتابعتُ: «حسبتُ أن هذا يعني أنك مِتَّ»، وخرجت الكلمات ثقيلة في الغرفة الصامتة.

فقال: «حسنًا، أنا لست ميتًا».

أمسكتُ بالفنجان وأنا أتتبع رسمة الزهور المرسومة يدويًا على طول حافته بطرف إصبعي، ثم قلت وأنا أرفعه إلى شفتي وأنظر إلى عيني كلوف عبر لسان الدخان المتلوي في الهواء: «لعله من الأجدر أن تكون ميتًا».

العاشر



مع عودتنا إلى السفينة لونا، كان الفانوس ينشر ضوءه على سطحها.

جعلني كلوف أفحص الأحجار الكريمة مرتين قبل أن نغادر مقر التاجر، ما أخرنا حتى غربت الشمس. لقد أبلى التاجر ومساعدته بلاء حسنًا بالنظر إلى الوقت الضيق الذي أتيح لهما لإتمام المهمة خلاله، ولذا لم أنوّه إلى أن بعض حواف الأحجار وأطرافها لم تكن حادة كما ينبغي. فالأحجار الكريمة تبقى أحجارًا كريمة على كل حال. وما دام وزنها مضبوطًا فلست أكترث بشكلها.

تألقت أضواء ساجساي هولم من خلفنا وزولا يهتف آمرًا: «استعدوا!»، وانطلق الطاقم يعمل بتناغم على إخراج السفينة من الميناء.

تسلق ثلاثة بحارة الصواري بنسق متسق، وعملوا على فك الحبال لبسط الأشرعة، ولم نكد نغادر الرصيف حتى تلقفت الرياح الأشرعة البيضاء المقوسة قبالة السماء المعتمة. إن أشرعة ماريجولد تبدو صغيرة بالقياس إلى أشرعة لونا، وحالما خطرت لي تلك الخاطرة حاولت إزاحة صورة السفينة الذهبية من ذهني وأنا أتجاهل الشعور الذي يمور بين جنباتي.

وعندما غادرت السفينة الرصيف همس زولا بشيء إلى كلوف، فترك عجلة الدفة وتبع زولا إلى غرفته، وانغلق الباب من خلفهما. أرسلت بصري إلى عنقود النجوم في الأفق، فأدركت أننا متجهون شمالًا وليس جنوبًا.

وشاهدت اضطراب الظل من أسفل باب غرفة القبطان، واستغرقت في التفكير. لم أبتعد عن منطقة المضايق هكذا من قبل، كانت منطقة البحر المجهول مجرد صورة رسمتها في ذهني استقيتها من الحكايات التي حكتها والدتي، ولكنها مثل منطقة المضايق تعج بالتجار السفاحين والأفاكين والنقابيين النافذين. غالب الظن أن زولا سيلاقي حتفه في نهاية مسعاه هذا، وحين يأتي وقت حسابه على ما اقترفته يداه لا أريد أن أكون في أي مكان قريب من السفينة لونا.

ارتقيت العتبات المفضية إلى الجزء الخلفي من سطح السفينة وانحنيت فوق سور المؤخرة. كانت السفينة ترسم خلفها أثرًا خفيفًا في وجه البحر وهي تحول المياه الداكنة إلى رغوة بيضاء. كانت كالا تعمل على ترتيب الحبال وهي ترمقني بعين الريبة، وعندما أتمت مهمتها هبطت العتبات نحو صحن السفينة. وألقيت نظرة حولي قبل أن أرفع إحدى ساقيّ فوق السور.

كان النحت المزخرف على الهيكل الخشبي للسفينة لونا يرتفع وينخفض في تماوج حول نافذة غرفة القبطان، وتحسست الشكل بطرف حذائي وأنا أنزلق عبر المؤخرة حتى تراءى لي الضوء المتدفق من غرفة زولا وهو يشق عباب الظلام من خلال زجاج مصراعي النافذة المغلقة.

وصلت إلى حافة النافذة وجسدي ملتصق بالهيكل كي أثبت نفسي، وتسنى لي رؤية الغرفة المضاءة بالشموع، وضيقت عيني وأنا أنظر إلى المرآة المعلقة بجوار الباب، حيث رأيت على صفحتها انعكاس كلوف وهو واقف بجوار المنضدة الخشبية الصغيرة عند الزاوية وفي يده كأس أخضر مترع بالجاودار.

أما زولا فقد جلس على المكتب وهو يدقق النظر في الدفتر، ثم قال: «هذه كمية كافية».

فسأله كلوف بصوت لا أكاد أسمعه من صخب المياه بالأسفل: «كيف تعرف ذلك؟».

فقال: «إن لم تكن هذه الكمية كافية، فما من كمية سوف تكون كافية».

أومأ إليه كلوف بإيماءة صامتة، ورفع الكأس إلى فمه.

أمسك زولا بزجاجة الجاودار وقال: «ماذا بعد؟».

استغرقتُ وهلة لأدرك أن كلوف كان مترددًا وهو يرسل بصره إلى ركن الغرفة بنظرة شاردة قبل أن يقول: «سمعت أحاديث في المدينة».

ارتفعت نبرة زولا وهو يقول: «حقًّا؟»، وحين رصدتُ وجهه في المرآة مرة أخرى رأيت مُحياه يتهلل بحس فكاهة خبيث.

أردف كلوف: «وصلت أنباء إلى ساجساي هولم البارحة بأن أحدهم يتنقل من ميناء إلى آخر في منطقة المضايق»، وسكت هنيهة قبل أن يتابع: «إنه يحرق سفنًا».

عندئذ اعترى وجه زولا شحوب، ولم أكن متأكدة من الباعث على ذلك. لا بد أنه كان يعرف أنه ليس من الآمن ترك أسطوله وراءه في منطقة المضايق. أيًّا كان ما دفعه إلى المجيء إلى منطقة البحر المجهول فلا بد أنه كان جديرًابهذه المجازفة. وارتجفت يده بدرجة جعلت بعض الجاودار ينسكب على المكتب، بيد أنه لم يرفع بصره.

أضاف كلوف: «أظنها سفنك».

تساءل زولا: «سينت؟».

فقال كلوف بغضب: «ويست».

عندئذ انحبست أنفاسي وانفجر خوف في نفسي جعلني أتجمد. إذا كان ويست يحرق سفنًا في منطقة المضايق فإنه يُعرِّض ماريجولد وطاقمها لخطر محدق؛ إذ ليس بوسعه إخفاء شيء من هذا القبيل عن مجلس التجارة كما يستطيع سينت.

أردف: « لقد احترقت ست سفن على الأقل. ولقى العديد من أفراد طواقمنا مصرعهم. ولعل الأعداد تزايدت الآن».

تنفست وعيناي مغرورقتان بالدموع. قال لي زولا في ليلة سابقة في غرفته إن ويست أراق دماء غزيرة تكفي لطلاء السفينة ماريجولد باللون الأحمر. لم أكن أريد أن أصدق ذلك، ولكن كان ثمة جزء بداخلي يصدق الأمر.

فقال زولا وهو يحاول إخفاء غضبه: «لا يهم. مستقبلنا وثروتنا كلاهما في مدينة باستيان».

ونطقت شفتاي الاسم دون صوت: «باستيان».

لم نتجه جنوبًا لأننا لن نعود بتلك الغنيمة إلى منطقة المضايق. كانت لونا منطلقة إلى مدينة باستيان.

تجرع زولا الكأس دفعة واحدة وراح يصب كأسًا آخر وهو يغمغم: «أريد تنظيف كل شبر من هذه السفينة وتلميعه قبل أن نرسو، مفهوم؟ يستحسن أن يعمل كل البحارة على هذه المهمة منذ شروق الشمس إلى أن تتراءى لي اليابسة في الأفق. لن أرسو في الميناء في باستيان بسفينة تبدو كأن قبطانها متشرد من حي الساحل».

وثبت كلوف نظرته تجاه كأسه وهو يلفه على نحو يجعل ثمالة المشروب تحوم في دوامة، وقال: «سوف تعرف بشأن وصولنا في اللحظة التي نرسو فيها. إنها تعرف كل شاردة وواردة في ذلك الميناء».

فابتسم زولا بمكر وقال: «جيد. إذن سوف تترقب زيارتنا لها».

ألقيت نظرة ممحصة على وجه زولا وأنا متحيرة بشأن ما يقال، لكن رويدًا رويدًا ترابطت الخيوط ببعضها، وحامت الأفكار في ذهني قبل أن تستقر.

هولاند!!

لم يكن يحتاج الأحجار التي استخرجناها لبدء تجارة جديدة خارج منطقة المضايق. كان زولا يسدد دينًا. طوال سنوات عديدة لم يكن قادرًا على الإبحار في هذه المياه؛ لأن هولاند كانت ستذبحه. لقد وجد أخيرًا طريقة لتسوية الأمور معها، لكن كيف؟ ثلاثمائة قيراط من الأحجار الكريمة لم تكن شيئًا ذا بال في عين أقوى تاجرة أحجار كريمة بمنطقة البحر المجهول.

لم يكن زولا يكذب عندما قال إن الأمر ليس متعلقًا بي أو بويست، وليس متعلقًا بسينت حتى.

انزلقت أصابعي على الإطار المبتل فتشبثت بمصراع النافذة وأنا ألصق جسدي بالهيكل.

وعندما رفعت نظري مرة أخرى كانت عينا كلوف مصوبتين نحو النافذة، فحبستُ أنفاسي وأنا أختبئ في الظلام. ضاقت عيناه وهو ينظر كأنهما مثبتتان على وجهي، وفي اللحظة التالية قطع الغرفة، فارتميت للوراء وأنا ألصق نفسي بالنحت الخشبي المجاور للنافذة. انفتح المصراع بقوة وارتطم بالخشب، ورأيت يده تظهر على حافة النافذة، وضوء القمر يسقط على الخاتم الذهبي في إصبعه. حاولت ألا أتحرك، واضطرم الألم في ساقي وأنا أضغط كعب حذائي على النتوء الخشبي كي أحافظ على ثباتي.

وبعد لحظة انغلق المصراع.

لم يلمحني. لم يكن بإمكانه رؤيتي من مكانه. لكن تسارعت دقات قلبي، وفار دمي في عروقي ساخنًا.

مددت يدي إلى السور ورفعت نفسي حتى ارتميت على سطح مؤخرة السفينة، وأسرعت صوب العتبات وقفزت حتى هبطت بكلتا قدميّ على سطح صحن السفينة، فشُدت غُرز خياطة الجرح ووخزتني. ونظر إليّ الرجال الواقفون عند عجلة الدفة بأعين واسعة وأنا أسير إلى الممر وأذوب في الظلام.

كان باب غرفة القبطان ينفتح وأنا أشق طريقي في الطابق السفلي، وترامى دبيب الأقدام فوق رأسي وأنا أركض في الممر المفضي إلى غرفة نوم الطاقم، وشققت طريقي بين الأراجيح نحو أرجوحتي في الصف الثالث. كان ريلاند نائمًا في أرجوحته التي تعلو أرجوحتي، فارتميت على أرجوحتي دون أن أكلف نفسي عناء خلع الحذاء، وضممت ركبتيّ إلى صدري وجسدي يرتجف.

تحرك ظلٌّ في المدخل، وعثرت يدي على السكين في حزامي، ولبثتُ منتظرة. لقد احتاط زولا كل الحيطة لإخفاء ما كان يفعله في منطقة البحر المجهول، وإن ارتاب في أنني اكتشفت أمره فمن المستحيل أن يتركني أعود إلى منطقة المضايق، ولا أن يجعلني أغادر هذه السفينة وبي رمقٌ من الحياة.

حملقت إلى العتمة، وقبضتي تشتد على السكين الملتصقة بصدري مع ظهور شبح إنسان تحت العارضة الخشبية، وضيقت عينيّ في محاولة لاستبانته. وومض شعاع من الضوء فوق رأس يكسوه شعر أشقر ضارب إلى الرمادي، فازدردت ريقي في محاولة لكتم رغبتي في الصراخ.

كلوف. لقد رآني.

تحرك شبحه عبر الأراجيح بخطوات صامتة وهو يدنو مني. ونظر إلى كل واحد في أرجوحته قبل أن يمضي للشخص التالي، وحين انتقل إلى الصف الثاني ضغطت بيدي على فمي وقلبي يكاد يتوقف. إن بادرت بحركة سريعة بما يكفي فيمكنني تسديد الضربة الأولى قبله، سوف أغمد النصل في أحشائه قبل أن تتسنى له فرصة مهاجمتي. بيد أن الفكرة أزعجتني، وانسلت دمعة من زاوية عيني.

لقد كان وغدًا خائنا، لكنه لا يزال كلوف.

وازدردتُ صرخة تريد أن تنفلت وهو يتوقف عند الأرجوحة المجاورة لأرجوحتي. خطا خطوة أخرى فصارت ساقاه بمحاذاتي وهو ينظر إلى أرجوحة ريلاند، ثم توقف، ورفعت السكين وأنا أُقدر زاوية الطعنة، إذا سددتُ الطعنة تحت الأضلع وأصبت رئته فسيعجزه ذلك عن ملاحقتي. هذا ما رجوت.

اهتز النصل وأنا أرفعه في انتظار أن يدنو كلوف نحوي، بيد أنه لم يتحرك. ثم لمحت التماعة نصل سكين تألقت في عتمة الغرفة وكلوف يرفع يديه نحو أرجوحة ريلاند. تجمدت في مكاني وأنا أرى وجهه من الأسفل وأحاول حبس أنفاسي، لكنّ عيني كلوف كانتا خاويتين من أي نظرة تشي بأي معنى، وبدت عضلات وجهه مسترخية وهادئة.

ارتجّت الأرجوحة من فوقي، وسقط شيء ساخن على وجهي، فجفلتُ ومددت يدي لأمسحه عن خدي، وسقطت قطرة أخرى على ذراعي. وعندما رفعت أصابعي باتجاه بصيص الضوء تصلب جسدي.

كان دمًا.

اهتزت الأرجوحة من فوقي في صمت، وأغمد كلوف سكينه قبل أن يمد يده مرة أخرى للأعلى ويسحب ريلاند من أرجوحته. راقبت المشهد في رعب وهو يرمي على كتفيه جثة ريلاند الذي تدلت يداه المرتخيتان بجوار وجهي.

لقد مات.

لم تند عني حركة مع تتابع دبيب الأقدام باتجاه الباب، وساد الصمت في الغرفة. وحالما اختفت الحركة جلستُ وأنا أحملق ناحية الممر المعتم بعينين متسعتين.

لم يتردد في الأجواء سوى صوت أنفاس النائمين وصرير حبل متأرجح وصوت ارتطام المياه ببدن السفينة. وخُيل إليّ لوهلة أن ذلك ربما كان حلمًا، أو أنني رأيت مشهدًا من عالم

الأشباح في الظلام. ونظرتُ إلى الوراء وأنا أجول ببصري في الغرفة، فتجمدتُ حين لمحته.

كان كوي ساكنًا في أرجوحته وعيناه المفتوحتان تحدقان إليَّ.

الحادي عشر



انتظرت حتى يستيقظ الآخرون قبل أن أتحرك، وبقيت مستيقظة وأنا مستلقية لساعات في الظلام أصيخ السمع لدبيب الأقدام المترامي من الممر، لكن السفينة سادها الهدوء طيلة الليلة حتى هلَّت بشائر الفجر، ما اقتضى استيقاظ الأفراد الذين سيتولون أول نوبة عمل.

لم أشعر بالإنهاك الذي جثم على نفسي في اليوم السابق. بالكاد شعرت بالألم في ساقي، حيث كان الجلد في محيط الغرز متجعدًا وملتهبًا. مات ريلاند؛ وانبثت في نفسي بوادر طمأنينة ارتياح أزاحت التوتر الذي كان يعتصرني. لم أكن بمأمن على السفينة لونا، لكن ريلاند مات، ولا أظن أن كوي هو الشخص الذي يقتلني أثناء نومي.

وكان السؤال الحقيقي: ما ذاك الذي جرى ليلة أمس، وما الباعث عليه؟!

ألقيت نظرة فاحصة على سطح السفينة قبل أن أرتقي العتبات القليلة المتبقية أمامي؛ إذ رحت أفتش بدافع غريزي عن ريلاند لأتأكد أن ما رأيته لم يكن حلمًا. كان ويك معتليًا الصاري ويعمل على استبدال حلقة معدنية في زاوية الشراع، والرياح تطرح شعره المجعد على جبهته. لكن لم يكن ثمة أثر لريلاند.

كان كلوف عند مقدمة السفينة يسجل الأرقام في دفتره، وتفحصتُ نظرته الهادئة غير المبالية التي ينظر بها في الصفحات. كانت ذات النظرة التي رأيتها في عينيه ليلة أمس وأنا أشاهده يسدد السكين نحو ريلاند ويحمل جثته ليخرجها من الغرفة.

هتف رئيس سطح السفينة مناديًا: «اصطفاف للتحقق من الحضور!».

فامتثل الجميع على سطح السفينة بتثاقل، تاركين أعمالهم ليصطفوا بمحاذاة ميسرة السفينة. وصعد بقية البحارة والجرافين من الطابق السفلي ولا تزال آثار النوم على وجوههم. واحتللت مكاني في طرف الصف وأنا أراقب رئيس سطح السفينة ينظر في دفتره ويضع علامات على الأسماء أثناء مروره.

ثم وضع يديه على خصره وهو يُقلب بصره في وجوهنا جميعًا ويتساءل: «أين ريلاند؟».

نظرت ناحية كوي، إلا أنه لم يطرف طرفة عين.

فترامى صوت كلوف من ورائه وبصره لا يزال مثبتًا في دفتره: «الوغد لم يرجع إلى السفينة الليلة الماضية».

تشابكت يداي خلف ظهري. ثمة باعث واحد فقط يخطر ببالي يفسر فَتك كلوف بريلاند، لكنه لم يكن منطقيًّا ألبتة. لقد كان كلوف هو مَن أخبر زولا بهويتي، وهو مَن وضعني في حالة عداء مع الطاقم، فلماذا سيحاول حمايتي؟

واغرورقت عيناي بالدموع، وحاولت أن أطرف لأفرقها، ومسحت زاوية عيني قبل أن تنسل دمعة. كنت أخشى تصديق تلك الاحتمالية.

ورنوت إلى ويك لأرى ما إذا كان ثمة ما ينم عن أنه سوف يبدي اعتراضًا؛ على الأرجح أنه رأى الدم في أرجوحة ريلاند عندما استيقظ صباحًا، ولكن حتى إن كان يجهل هوية المجرم إلا أنه يخشى اكتساب عداوته أيًّا مَن يكون، ومن ثم أطبق فمه وابتلع لسانه.

دوّن رئيس سطح السفينة علامة أخرى في دفتره، وصرف أفراد الطاقم، وبعد بضع دقائق استأنف كل شخص على متن السفينة لونا العمل.

لم ينظر إليّ كلوف وأنا متجهة صوب موقفه عند عجلة الدفة، وازداد انحناء كتفيه مع اقترابي. رمقته وأنا أدقق النظر إلى التجاعيد المحيطة بعينيه العميقتين، ولوهلة أرسل بصره من فوق رأسي بتوتر نحو سطح السفينة. كان يتأكد من عدم وجود أحد يراقبنا، وكانت هذه هي الإجابة التي احتجتها.

ثم مد يده إلى الوتد المثبت في الصاري المجاور لنا واحدودب فوقي قائلًا بصوت خفيض: «ليس هنا»، فازدردت ريقي بصعوبة.

إن كان كلوف يعتني بي، فهذا يعني أنه لم ينقلب على سينت، ولم ينقلب عليّ، وهذا لا يعني سوى شيء واحد فقط، لم يكن زولا الوحيد الذي يخطط لشيء ما.

كان أبي هو الآخر يخطط لشيء.

عندئذ هتف رئيس سطح السفينة ويداه معقوفتان حول فمه اتقاء للرياح: «أيتها الجرّافة! القبطان يطلبك! الآن».

حاولت أن أتواصل بصريًا مع كلوف، بيد أنه أغلق دفتره ومضى في سبيله قاصدًا غرفة القبطان، ودلف إلى الداخل، أما أنا فوقفت عند الباب المفتوح أشاهد زولا وهو واقف عند النافذة ويداه مشبوكتان خلف ظهره.

جلس كلوف عند طرف الطاولة، واضعًا قدمه على ركبته ومتكئًا على ظهر الكرسي المجاور لحوض مليء بالرغوة.

وحين لم أدلف، نظر لي زولا من فوق كتفه قائلًا: «حسنًا. ادخلي».

فرددت بصري بينهما بنظرة سريعة بحثًا عن أي لمحة تشي بما هو قادم. لكن كلوف بدا غير مكترث، لقد أتقن دوره في إقناع زولا بالثقة فيه، بيد أنه لا بد أن هناك ثمنًا قد دُفع في

سبيل نيل تلك الثقة. لم يكن كلوف رجلًا بريئًا في يوم من الأيام، لكنني تساءلت عما فعله ليكون على متن هذه السفينة.

رفع زولا حاشية معطفه ليجلس على المقعد المجاور للنافذة وسأل: «الأحجار الكريمة؟».

فأجاب كلوف برتابة: «مفروزة ومذكور تفاصيلها في وثيقة معتمدة من التاجر في ساجساي هولم. لقد قدر إجمالي القيمة بنحو ستة آلاف عملة نحاسية».

فجفلت حين طرق الرقم مسمعي. ستة آلاف عملة نحاسية في عملية تجارية واحدة، إنه مبلغ جدير بتدشين مسارات تجارية بأكملها.

ثم رفع زولا نظره نحوي وسأل: «هل فحصتِها؟».

فأجاب كلوف: «مرتين».

لكن زولا ظل مثبتًا عينيه عليّ، وقال: «أريد أن أسمعها منكِ. هل فحصتِ الأحجار؟».

فكررت إجابة كلوف بحنق: «مرتين».

فقال زولا: «إن هذه الأحجار ذاهبة إلى شخصية سوف تكتشف أي حجر مزيف يمكن أن يكون قد فاتك. ولا أظن أنني بحاجة إلى إخبارك بما سوف يحدث إذا اكتشفتْ ذلك».

فقلت بفتور: «أظن أنه سيتعين عليك الانتظار لترى».

فعقب: «أظن ذلك»، وأردف وهو يشير إلى الحوض: «أريدك أن تكوني نظيفة وجاهزة قبل أن نرسو في الميناء».

فتحركت من حيث كنت متكئة على الجدار وأنا أسقط ذراعيّ، وتساءلت: «جاهزة من أجل ماذا؟».

قال: «لديك عمل في باستيان».

قلت: «كلا. غير صحيح. لقد استخرجت لك الكمية التي أردتها، وفحصت أحجارك. لقد فعلت أكثر مما هو مطلوب مني».

فقال زولا: «يوشك أن يتم الأمر».

فحدجته بنظرة حادة وقلت: «لقد سئمت من ممارسة هذه اللعبة. متى سأعود إلى منطقة المضايق؟».

أجاب: «عما قريب».

ارتفع صوتي وأنا أقول: «أخبرني كم يومًا بالضبط».

فرفع زولا ذقنه لأعلى ورمقني بنظرة لم تخلُ الازدراء وقال: «يومان».

وتكورت يداي في قبضتين على جانبي، وأطلقت زفرة تنفث غضبًا محتدمًا.

وتابع: «لديّ شيء واحد آخر أريدك أن تفعليه، وبعد ذلك فإن مصيرك سيكون بين يديك».

لكنني لن أعتمد على سفينة لونا في إعادتي إلى الوطن، ستكون فرصي في هذا الصدد أفضل إذا استخدمت أي سفينة أخرى في ميناء باستيان، يمكنني دفع ثمن نقلي لقبطان آخر والعودة إلى منطقة المضايق وسط طاقم لا يعاديني بقدر ما يعاديني طاقم السفينة لونا. قلت: «أعطني نقودي الآن وسوف أفعل ما تريده».

فهز زولا كتفيه وقال: «هذا إنصاف، لكنك ستحصلين على نصف النقود فقط الآن، والنصف الآخر ليلة غد».

سألته: «ماذا هناك في ليلة غد؟».

أجاب: «إنها مفاجأة»، وفتح درج مكتبه وأخرج حافظة، وأحصى خمسًا وعشرين عملة نحاسية بسرعة. وحين انتهى وضع يديه على كومة العملات ودفعها على الخرائط باتجاهي.

ونهض كلوف واقفًا.

وتابع زولا قائلًا: «أريدك أن تكوني متأنقة وجاهزة بحلول الوقت الذي تلوح فيه باستيان على مرمى البصر»، وأغلق الدرج ونهض وسار حول المكتب ليقف حيالي.

قال كلوف: «الحذاء»، ومد يده منتظرًا.

نظرت إلى قدمي. كان جلد حذائي لا يزال مليئًا بالخدوش وملطخًا بالطين من أثر المشي في شوارع ديرن. وغمغمت بلعنات وأنا أخلع الحذاء وأتركه على الأرضية ليحمله بنفسه، واختلجت زاوية فمي بابتسامة قبل أن ينحني ليأخذه.

وفتح زولا الباب وانتظر دخول كالا قبل أن يغادر هو وكلوف. ودخلت حاملة على ذراعيها ثيابًا مطوية، وحملقتُ بعبوس إلى أسورة الأكمام المنفوشة.

همستُ: «لا بد أنكم تمازحونني».

حنت كالا رأسها جانبًا في ضجر.

خلعتُ القميص وفككت أزرار سروالي قبل أن أتجه إلى الحوض. ووخزتني مفاصل أصابعي حين غمست يديّ ببطء في الماء الساخن. وفاحت من الرغوة رائحة أعشاب، وبللت ذراعيّ بالماء، ثم فركتهما قبل أن أفرك وجهي ورقبتي. وعندما انتهيت مضيت إلى المرآة، وبطرف قماشة مسحت الأجزاء التي أغفلت مسحها.

وارتسم طيف ابتسامة على فمي وأنا أنظر إلى انعكاس صورتي في المرآة. ربما وقفت أمي أمام هذه المرآة يومًا ما. كانت إيزولد تماثلني في العمر أو أصغر مني حين أخذها زولا على

متن سفينته، وتساءلتُ كم استغرقتْ من الوقت لتكتشف حقيقته. لم تخبرني قط عن الأيام التي قضتها على متن السفينة لونا، وجزء مني لم يرغب في معرفة أي شيء عن تلك الأيام. في مخيلتي أرى أن روحها سكنت السفينة لارك؛ لم ترقني فكرة أن أي جزء من روحها علق هنا.

خللت شعري بأصابعي لأفك الخصلات المتشابكة قدر المستطاع، ثم لففته وثنيته كي أضمه في عقدة. ولم أحاول ضبط الخصلات المتماوجة المتحررة التي انطرحت حول وجهي. ربما احتاج زولا إلي شخص يمثل أنه من ذوي الدم المملح، لكنه مضطر إلى قبولي في هذا الدور على أية حال.

ألقت كالا القميص على السرير، فأمسكته وأنا أتفحص قماشه. لم تكن تلك ثيابًا يرتديها التجار عادة. بدا القميص الكتاني منسوجًا حديثًا ورقيقًا، والسروال بدا جديدًا أيضًا ومنسوجًا من صوف أسود سميك أزراره مصنوعة من عظم الحوت. كان زولا آخذًا أهبته بوضوح عندما باغتني في زقاق ديرن، كانت لديه خطة دقيقة التفاصيل. وقد بثت هذه الخاطرة قشعريرة في جسدي.

قلت لنفسي إنها مسألة يومين فقط، يومين وأكون في طريق عودتي إلى ماريجولد.

طرق أحدهم طرقة على الباب قبل أن أنتهي من دس القميص في السروال، وفتحته كالا فظهر من ورائه صبي من متشردي حي الساحل وهو يمسك بحذائي في يديه الصغيرتين، وقد نُظف الحذاء ولُمّع، وحل محل أربطته القديمة أربطة جديدة. أخذت أحدق إلى الحذاء، وأحسست بغصة في حلقي من فرط الانفعال وأنا أتذكر الليلة التي منحني فيها ويست هذا الحذاء.

كنت واقفة تحت المطر بالقرب من مقر مُقايض القرية أراقبه رفقة ويلا في الزقاق، وقد انعكس ضوء مصابيح الشارع على وجه ويست فبدت زواياه حادة، وتغيرت نبرة صوته

حين نطق اسمي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الجزء الخفي منه، ولو لوهلة. ولقد استبد بنفسي شوق شديد إليه.

ولم أستطع صرف ذهني عن التساؤل بشأن ما قاله والدي وزولا عن ويست. ثمة ظلمة في نفس ويست أعمق مما أعرف. جزء مني لا يريد أن يعرف، جزء مني يريد أن يقتنع بعدم أهمية الأمر؛ أي شخص نجا في خِضم أهوال منطقة المضايق لا بد أن في نفسه الظلمة ذاتها، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

لكن في تلك الليلة في ديرن، عندما تعاهدنا بألا يكذب أحدنا على الآخر، لم يخبرني بالحقيقة كاملة، وكنت خائفة مما قد أكتشفه إذا باح بها، خشيت أن أراه عندئذ بعين مختلفة، خشيت أن أراه على شاكلة سينت.

الثاني عشر



تألقت أضواء المصابيح على الساحل أمامنا كالنجوم.

باستيان.

وقفتُ عند صدر السفينة لونا أرقب المدينة وهي تدنو. لقد عرفت عن هذه المدينة من الحكايات فقط، وأحسست بألفة مع شوارعها وأضوائها وألوانها من ذكريات ليست ذكرياتي.

كانت أمي تحب باستيان، حيث تتألق الشوارع المبتلة تحت ضوء القمر، والامتداد العمراني على التل، ورائحة الأسواق. لكنها في نهاية المطاف رحلت للأبد.

تباطأت حركة أيدي عمال الميناء بالأسفل أثناء دخول السفينة لونا إلى الميناء، وطوى الطاقم الأشرعة وثبتوها بدقة على الصواري. تبدت السفينة جميلة في عباءة الليل بخشبها الداكن الذي بدت عليه أمارات التنظيف، لكن مهما فُرك الخشب أو زُينت القمصان فلن يجدي ذلك في إخفاء منبتنا، لقد كنا تجارًا من أبناء منطقة المضايق حتى النخاع، والنظرة التي لاحت في أعين جميع الموجودين في الميناء تنم عن أنهم عرفوا ذلك.

بدت بقية السفن الراسية في الميناء متألقة للغاية كأنما نُحتت من أشعة الشمس، ومزخرفة بإتقان بالغ، ونظيفة جدًّا. لقد تباهت مدن منطقة البحر المجهول بثرائها وترفها، لا سيما مدينة باستيان. لم تكن أمي على شاكلتهم، لكن شيئًا من خصالهم ظل عالقًا في سلوكياتها، مثل المحافظة على نظافة أدواتها في حزام التجريف بمستوى نظافة صارم، وكذلك نظافة أظافرها على الدوام.

ثمة أشياء لا يمكن انتزاعها من شخصية الإنسان مهما نأى عن موطنه.

ظهر مدير الميناء من بعيد وفي أثره حشد من عمال الموانئ، وبدت عيناه ضيقتين أسفل جبينه البارز، ورفرفرت الأوراق في يده وهو يلوح بذراعيه فوق رأسه. بيد أن زولا لم يهدر وقتًا، وسرعان ما تعامل بأريحية، ولم ينتظر حتى الإذن ليصدر أوامره للطاقم بإعداد حبال التثبيت.

هتف مدير الميناء وهو يتوقف ليرفع ناظريه لأعلى ويلقي نظرة فاحصة على الشعار المطبوع على الشراع الأمامي: «من ذا؟».

ونظر زولا إلى عيني كلوف قبل أن يهبط السلم إلى الرصيف، وأطل طاقم لونا من جانب السفينة ليراقبوه وهو يقطع الرصيف ليلقى المدير.

وأغمد كلوف سكينًا إضافية في حزامه وقال: «حان أوان الذهاب».

فحدجته بنظرة ريبة. لم يكن قد نظر لي نظرة منذ أن كنا في غرفة زولا، وأدركت أن دوره على متن السفينة لونا كان أشد خطرًا مما يعتقد زولا حتى. لكنه لم يعطني أي تلميح عما يوشك أن يحدث أو عن الدور الذي من المفترض أن أؤديه. كان كل شيء يمضي في تسارع محموم منذ غادرنا ديرن، وأردت أن أعرف ما سيحدث في نهاية المطاف. جيفال، الغوص، ساجساي هولم. كان زولا يخطو كل خطوة بدقة متناهية، وكنت أعلم أن الأمر ذو صلة بهولاند، ولكن هذا مبلغ علمي.

أتبعني كوي بناظريه من موقفه عند مؤخرة السفينة وأنا أتوارى وراء جانب السفينة أثناء هبوطي السلم. لقد أُصدرت الأوامر للطاقم بعدم مغادرة السفينة لونا لأي سبب من الأسباب، ويبدو أن الجرافين الجيفاليين لم يمانعوا ذلك ألبتة، وأرسلوا نظرات حذرة إلى المدينة الواقعة على التل كأن ثمة ما يخيفهم هنالك. كانت باستيان وحدها أكبر من جزيرة جيفال بأكملها.

كان زولا لا يزال يتحدث مع مدير الميناء بابتسامة رقيقة أثناء مروري رفقة كلوف بجوارهما ونحن متوجهان صوب السلم الحجري العريض المفضي إلى السوق. لم يكن مقر السوق هنا يشبه مقر السوق المتهالك في منطقة المضايق من قريب أو بعيد، فمقر السوق هنا مشيد بأحجار بيضاء نظيفة، وزواياه مزينة بتماثيل مزخرفة تصور طيورًا بحرية مبسوطة الأجنحة فوق الشارع.

وتوقفت عندما وصلنا إلى أعلى عتبة، واتسع الشارع ليكشف عن الامتداد المتدرج للمدينة الشاسعة. ولففت حول نفسي في محاولة لاستيعاب المشهد، لكن باستيان كانت متعملقة، هائلة، لم أرَ شيئًا كهذا من قبل.

وحين انتهيت من لحظة الانبهار كان كلوف ينعطف نحو مقر السوق، فتبعته ودلفت إلى الزقاق فوجدته في انتظاري متكئًا على جدار، ونصف وجهه مضاء بضوء مصابيح الشوارع. حتى وهو محاط بالمباني الشاهقة بدا عملاقًا.

ولاحظت أن النظرة الباردة القاسية التي كانت تحتل عينيه منذ رأيته على متن السفينة لونا قد رقّت الآن وهو يرنو إليّ من تحت حافة قبعته. لقد كانت نظرة مترعة بالألفة لدرجة أن عضلاتي التي تصلبت خلال الأيام العشرية الماضية قد استرخت الآن، وزايلني التوتر، واستكنتُ في طرفة عين. وتحرك جانب شاربه لأعلى ببطء وهو يبتسم ابتسامة مائلة جعلت عينيه تتألقان.

صفع حذائي ظهر الطريق وأنا أقطع الخطوات الأربع التي تفصل بيننا، وحين وصلت إليه طوقته بذراعيّ. وأخيرًا انفلتت مني الصرخة التي كانت محبوسة بداخلي، وعانقته وأصابعي تتشبث بسترته. لم أكترث بأن ذلك يُعري هشاشتي، إذ كان ذلك بمثابة اعتراف بمدى خوفي. أردت فقط أن أشعر ولو لوهلة بأنني لست وحيدة.

وقف كلوف جامدًا يراقب محيطنا بحذر، ولكن بعد هنيهة طوقني بذراعيه الضخمتين وضمني بقوة. ثم قال: «هَوّني عليكِ يا فيبل».

ضممت ذراعي إلى صدري وتركته يضمني بقوة أكبر. ثم سألته: «هل يعرف أين أنا؟»، ولم ألفظ اسم أبي، لأن ذلك سيجعل نفسي تجيش بمشاعر جياشة يظهر أثرها في صوتي.

أبعدني كلوف عن حضنه كي يتسنى لي النظر إليه، وبيده الثفنة مسح الدموع المنسلة على خدي المتورد، ثم قال: «إنه يعرف مكانك بالضبط».

إذا كان سينت مشتركًا في هذا الأمر، فهذا يعني أنه قد عرف بكل ما سيحصل في صباح اليوم الذي رأيته فيه في ديرن. كان يجلس قبالتي على الطاولة وهو يرتشف الشاي من دون أن يُلمح إلى ما كان ينتظرني في الزقاق.

صررت بأسناني من الغيظ. لقد سئمت من ألاعيب والدي. لكن الغضب الذي ساورني سرعان ما حل محله تهوّر نابع من القنوط، وأمسكت بسترة كلوف وجذبته نحوي وقلت: «لا بد لي من المغادرة، لا بد لي من العودة إلى منطقة المضايق».

فقال: «لن تذهبي إلى أي مكان حتى نُتم ما نحن بصدده».

وطبع قبلة على قمة رأسي قبل أن يعاود السير وهو يدس يديه في جيبيه.

فارتفع صوتي وأنا أتبعه: «نُتم ماذا؟ لم تنبئني بأي شيء».

قال: «لقد عملنا لفترة طويلة من أجل هذا يا فيبل، ولا يمكننا إتمامه من دونك».

فجمُدت خطواتي وأنا أحملق إليه.

وعندما لم يعد يسمع دبيب قدميّ خلفه، توقف وألقى نظرة إلى الوراء.

قلت بصوت منهك: «أخبرني بما يجري وإلا سأساوم أول قبطان سفينة ألقاه في الميناء ليعيدني إلى منطقة المضايق».

فتنهد وهو واقف تحت لافتة محل أسماك وقال: «سوف تعرفين كل شيء في ظرف يوم».

عرفت أنني لن أثنيه عن قراره. إن كان كل هذا من تدبير والدي، فهذا يعني أن ثمة الكثير من المنخرطين في المخطط، وكنت واحدة منهم.

خطوت خطوة نحوه وأنا أتحداه أن يكذب عليّ: «أتقسم على ذلك؟».

فأجاب: «أقسم».

أردت أن أصدقه، وفتشت في وجهه عما يعضد ذلك وأنا أسأله: «على روح أمي؟».

فجفل وقد زم شفتيه في خط رفيع قبل أن يجيب: «أقسم على ذلك»، ثم هز رأسه بابتسامة متغيظة وتمتم: «عنيدة مثلها تمامًا».

ثم رفع طوق سترته حول رقبته وانسلّ شعره الفاتح من تحت قبعته. وشعرت بأنني أستطيع الزفير لأول مرة منذ غادرنا ديرن. أحسست بالاطمئنان بجواره، ما دمت معه فلن يسمح بأن يصيبني أي ضرر، والحق، إذا كان هو وأبي سيقضيان على زولا فأنا أود الانخراط في هذا.

ومشينا حتى أفضى بنا الشارع إلى ساحة من المتاجر، كلها ذات نوافذ ضخمة ونظيفة، وكل متجر تزينه أصص الزهور والطلاء اللامع. توقف كلوف أمام المتجر الأول عند الزاوية وضبط قبعته، وكان مكتوبًا على اللافتة فوقه: «فساتين وبِدل».

دفع الباب ودلفت وراءه إلى داخل المحل الدافئ، حيث كانت تجلس امرأة وبجوارها فستان وفي يدها إبرة.

ورفعت عينيها لأعلى وقد مال رأسها جانبًا وعيناها تركضان علينا من الرأس إلى الأخمص، وسألتنا بنبرة كأنها نبرة اتهام: «هل يمكنني مساعدتكما؟».

فتنحنح كلوف وقال: «نحتاج إلى فستان، فستان يناسب حفلة»، فحانت مني التفاتة سريعة نحوه وأنا أحدجه بنظرات حادة وقد أذهلني ما سمعت، لكن قبل أن يتسنى لي الاعتراض، واصل حديثه قائلًا: «سوف نحتاجه غدًا».

نهضت المرأة وهي تغرز الإبرة في وسادة صغيرة مربوطة بمعصمها، ثم قالت: «يجدر بك إذن أن تدفع مبلغًا جيدًا يغريني بالخياطة طوال الليل».

أجابها كلوف: «لا بأس».

بدت كأنها تفكر في الأمر لوهلة قبل أن تجري يدها على الأقمشة المكدسة على المنضدة الخشبية الطويلة، وقالت: «حرير جديد وصل البارحة. ما من أحد في باستيان يملك خامة كهذه حتى الآن».

تجاهل كلوف نظرتي الحادة، وانطلق نحوها عند النافذة المطلة على الشارع.

فشددت كم سترته وأنا أسأله: «ما هذا؟».

أجاب: «عليك فقط أن تثقي بي».

كنت غاضبة منه ومن نفسي على حد سواء. كان حريًا بي أن أعرف في اللحظة التي رأيت فيها كلوف على متن سفينة زولا أن سينت يعتزم تنفيذ مخطط ما، وأنا الآن متورطة في هذا المخطط وعلى الأرجح لن أخرج منه دون أن يصيبني أذى.

تحركت يده على الأقمشة المتنوعة، وزم شفتيه قبل أن ينتقي قائلًا: «هذا».

كان القماش الذي اصطفاه مصطبغًا بزرقة داكنة، لون البحر في الأيام المشمسة عندما تكون زرقته عميقة جدًا لدرجة تحول دون رؤية القاع. وكان النسيج الداكن يتلألأ في الضوء. لم أستطع أن أتخيل ما ذاك الذي يخطط له كلوف ويتطلب فستانًا مصنوعًا من أفخر أنواع الحرير، لكن ساورني شعور بأن ذلك لن يروقني.

فقالت المرأة: «حسنًا، لنبدأ. اخلعي ملابسك كلها».

أغلقت الستارة أمام المرآة، ثم حدجتني وهي تضع يديها على خصرها، وقالت: «حسنًا؟ هيا».

ندت عني أنّة امتعاض وأنا أخلع قميصي وأفك صدريتي. ثم أخذتْ ملابسي وعلقتها وهي تصدر أصواتًا تنم عن استيائها من حالة ملابسي وهي تُملس البنطلون لتزيل طيّات النسيج الصوفي.

حامت عيناها فوق جسدي العاري وهي تقول: «والآن لنلق نظرة عليكِ»، وعبستْ حين وقع بصرها على الندبة في ذراعي والغرز في ساقي. لم تكن تلك الندوب الوحيدة في جسدي. وأردفت: «حسنًا، أعتقد أنه يمكننا تغطية تلك الندوب. استديري».

أذعنتُ على مضض وأوليتها ظهري، وحين التقت عيناي بعيني كلوف من فوق الستارة وجدته يبتسم مرة أخرى. وجفلتُ عندما وضعت يديها الباردتين على خصري ورفعتهما تجاه أضلعي.

ثم قالت: «حسنًا».

واندفعت إلى خارج الستارة قبل أن تعود وهي ممسكة بلفافة من قماش أبيض جاف ذي أربطة، فقلت بانقباض: «هل هذا...؟»

فابتسمت بلطف وقالت: «مشد خصر يا عزيزتي. ارفعي ذراعيك».

عضضت على شفتي السفلية لأمنع السباب واستدرت مرة أخرى حتى يتسنى لها وضع المشد حول خصري. وراحت تجذب الأربطة حتى آلمتني أضلعي بشدة، فاتكأت بيديّ على الجدار لتثبيت نفسي.

عندئذ قالت: «ألم ترتدي مشدًّا من قبل؟».

فأجبتها بحنق: «لا». لم تُلبسنى أمي مشدًّا قط ولم أكن بحاجة إليه في جيفال.

ثم ثبتت طوقًا حول خصري لتوسيع تنورة الفستان عند التطريز. ثم بدأت في قطع الحرير واللف والتثبيت حتى أخذ القماش شكل الفستان، ولم تفتح الستارة إلا بعد أن أدارتني لتريني ما أنجزته.

ظهر انعكاسي في المرآة ذات الإطار المذهّب، فاستنشقت نفسًا وتقهقرت خطوة.

كان قماش الثوب ملتصقًا بالمشد بما يُبرز قوامي، وكان الكُمّان عبارة عن حرير أزرق فضفاض في انتظار التثبيت، أما التنورة فكانت عريضة وواسعة وقماشها يتماوج من حولي.

قلت وأنا أزدرد ريقي: «سأحتاج إلى جيوب».

فتساءلت بتأفف: «جيوب؟ فيم ستحتاجين الجيوب بحق الجحيم؟».

لم أجب. لم أكن لأخبرها بأنها كانت من أجل سكيني، أو أشرح لها سبب احتياجي إلى سكين في حفلة.

عندئذ ترامى صوت كلوف قائلًا: «نفّذي الطلب وحسب».

فتنهدت المرأة وقالت: «انتظري هنا»، ثم اختفت في الجزء الخلفي من المحل.

جلس كلوف على الكرسي يرنو إليّ، وحين رأى وجهي حاول ألا يضحك.

تمتمتُ: «تُسلي نفسك؟».

التوى فمه جانبًا مرة أخرى وهو يقول: «ما كان هذا الفستان ليروق أمك ألبتة».

أدهشتني الأريحية التي تعاملنا بها، الممزوجة بالألفة القديمة، مع أنني قبيل ساعات فقط كنت مستعدة لقتله. لم ينقضِ يوم في صغري إلا وأنا برفقته على متن السفينة أو في أحد الموانئ. وحين أنظر إليه الآن أشعر كأنني في العاشرة من عمري مرة أخرى، وهذا الشعور جعلني أفتقد أمي.

سألته بهدوء وأنا غير متأكدة من أنني أريد الإجابة حقًّا: «ماذا حدث بين زولا وإيزولد؟».

فانتصب كلوف في جلسته وشد ياقة قميصه وسأل: «ماذا تقصدين؟».

قلت: «أخبرني سينت بأن ثمة تاريخًا بينهما. أي نوع من التاريخ؟».

لقد أفصح عن الكثير حين تحاشى النظر في عينيّ، وقال: «أعتقد أنه يجدر بك محادثة سينت في هذا الشأن».

قلت: «أنا أسألك أنت».

فرك وجهه بيديه واستنشق نفسًا طويلًا. ثم اتكأ على ظهر الكرسي مرة أخرى، ورمقني بنظرة طويلة. ثم قال: «كان زولا قد أسّس لتوّه تجارة في باستيان حين التقى بإيزولد. كانت تتاجر في السوق، وأخمن أنها وجدت فرصة للفرار معه».

تساءلت: «الفرار من ماذا؟».

فاضطربت عضلات فكه وقال: «أيًّا كان ما تفر منه. لقد أبرمت صفقة مع زولا وانضمت إلى طاقمه بصفتها جرّافة. لكنه أراد أن يستغلها في شيء أكبر من مجرد الاستفادة من مهاراتها فيما يخص الأحجار الكريمة. لست أدري ما حدث بينهما، ولكن مهما يكن فقد كان الأمر بشعًا لدرجة أنها دفعت كل مدخراتها لتغادر السفينة لونا».

انقبضت عضلاتي وأنا أحاول ألا ينجرف ذهني إلى تخيل ما حدث. واصل حديثه: «ثم التقت بسينت».

وكرر جملته: «ثم التقت بسينت. وتبدل كل شيء».

سألته: «كيف جعلته يضمها؟».

فقال: «لا أحسب أنه كان يملك خيارًا حقًّا. لقد هام بإيزولد منذ اللحظة الأولى التي جلست فيها بجواره في حانة جريف».

حانة جريف. ابتسمت رغمًا عني لتلك الخاطرة.

قال وعيناه تشردان بعيدًا: «كانا صديقين، ثم تعمّقت العلاقة، ثم جئتِ أنتِ».

ابتسمتُ بأسى. أولى ذكرياتي تدور حولهما - سينت وإيزولد. ذكريات مترعة بالدفء والحنو، وقد ظلت تلك الذكريات نقية في نفسي لم يؤثر فيها شيء مما شهدته في حياتي. لقد وجد كلٌّ منهما ضالته في الآخر.

أمسكت بخاتم ويست المتدلي من القلادة التي تطوق عنقي. لقد استشعرت هذه العاطفة الخاصة حين قبلني ويست في بحر شرك العواصف، وكأننا انعزلنا في عالم خاص بنا، وقد كان الأمر كذلك فعلًا في تلك اللحظة.

إذا كانت الشائعات التي تُتناقل في ساجساي هولم صحيحة، فهذا يعني أن ويست كان مستعدًّا للتضحية بماريجولد وبكل شيء في سبيلي. كان عليّ أن أُتم ما بدأه أبي إذا أردت أن أحول دون تضحية ويست بكل شيء.

قلت بصوت لا يكاد يُسمع: «لا يمكن أن يكون قد دبر هذا».

تساءل: «ماذا؟».

فقلت وأنا أربط الخيوط معًا ببطء: «سينت. لم يعلم أنني غادرت جيفال حتى رأيته في سيروس. لم أكن جزءًا من خطته حتى ضمني ويست إلى طاقمه».

فحدجني كلوف بنظرة طويلة.

واصلت حديثي: «أأنا على حق؟»، بيد أنني لم أكن بحاجة إلى إجابة، كانت حقيقة الأمر كامنة في صمته، وأردفت: «عندما ظهرت في مقره لم يكن سينت يريد مني أي شيء. لكن عندما رآني أغادر الميناء على متن ماريجولد في تلك الليلة أراد أن يُخرجني من تلك السفينة، ورأى طريقة للاستفادة مني».

هززت رأسي وأنا أضحك نصف ضحكة من عبثية ذلك، كان الأمر أكبر مما تصورته. ثم سألته: «ماذا قصد زولا عندما قال إن ويست على شاكلة سينت؟».

هز كلوف كتفيه وقال: «إنك تعرفين معنى ذلك».

فقلت: «لو أنني أعرف ما كنت لأسأل».

فقال: «يكمن بداخله الشر يا فيبل».

رمقته بنظرة ذات مغزي وأنا أقول: «جميعنا كذلك».

فقال: «أحسب ذلك حقيقيًّا».

عقدت ذراعيّ في غير اكتراث للفوضى التي ستصيب الحرير المثبت بالكاد. لقد سئمت الأكاذيب. قلت: «أنا هنا يا كلوف. من أجلك ومن أجل سينت. أنت مدين لي بأكثر من تفسير».

عندئذ ضاقت عيناه وهو يسأل: «مدين لك؟».

فرفعت حاجبيّ وأنفي وأنا أرمقه وأقول: «لم يكن سينت الوحيد الذي تركني على ذاك الشاطئ».

فاضطربت عضلات فكه وهو يقول: «يا فيبل، أنا...»

قلت: «لست أريد اعتذارًا. أريد الحقيقة».

وهبطت عيناه لوهلة على خاتم ويست المتدلي من القلادة حول رقبتي، وقال: «كنت أتساءل عما إذا كان كلاكما...»، ولم يُتم جملته، وتردد قبل أن يواصل حديثه: «إن ويست يضطلع بالمهمات التي يريد سينت إنجازها. أيًّا تكن تلك المهمات. وعادة ما تكون جرائم شنيعة».

فسألته بصوت هامس: «كحادثة سوان؟».

فأومأ وقال: «كحادثة سوان. لقد كان ويست من رجال سينت لفترة طويلة».

فتمتمت: «لهذا أعطاه سينت ماريجولد»، لقد استحقها بما قدمه.

انحنى كلوف إلى الأمام ليرتكز بمرفقيه على ركبتيه وقال برفق: «إنه خطير يا فيبل. عليكِ أن تتوخي الحذر معه».

قلت لنفسي إن هذه ليست معلومة جديدة عليّ. كانت ماريجولد سفينة ظل، ولا بد أن يلازم ذلك أعمال سرية. لكن حدثتني نفسي بأن طاقم ماريجولد أنفسهم لم يعرفوا بشأن كل المهمات التي فعلها ويست من أجل أبي.

في الليلة التي أخبرني فيها ويست بأنه يحبني، أخبرني أيضًا عن حادثة سوان، عن تاجر دُمرت تجارته بأمر من سينت. ما لم يبح به أن تلك كانت مجرد قصة واحدة من قصص عديدة مماثلة وأن ما اقترفته يداه بأوامر أبي كانت أثقل الأعباء على نفسه.

لا تكذب عليّ ولن أكذب عليك. أبدًا.

لقد قطعت أنا وويست على أنفسنا وعدًا وحيدًا، وقد حنث به بالفعل.

الثالث عشر



شاهدت انعكاسي المتماوج في الحوض مع سقوط قطرة في مياهه، حيث تراءى لي الفستان مخضبًا بزرقة غامقة عَمّقت حمرة شعري وتورُّد خديّ.

أحسست بحرارة جسدي الشديدة تحت الفستان. استأجر لي زولا هذه الغرفة في الحانة، وقد انضوت على موقد تتأجج فيه النيران وكذلك سرير وثير لم أتمكن من النوم عليه.

لم أكن متأكدة من ذا الذي يحاول زولا إبهاره. مهما يحشد من وسائل الترف والفخامة فلن تكون كافية للارتقاء بحقيقته. أظن أن الندبة على وجه ويلا وتمزيق أشرعة ماريجولد كانتا أتفه ما اقترفته يداه.

التصق حرير الفستان بجسدي بشدة، وصدر حفيف عن تنورة الفستان وأنا أهبط الدرج المفضي إلى الحانة؛ حيث جلس كلوف وزولا على طاولة عند أبعد ركن يحتسيان الجاودار، وكان كلٌّ منهما يرتدي معطفًا فاخرًا ذا أزرار نحاسية لامعة، مع تمشيط الشعر وظهور أثر الاعتناء به. وحين رنوت إلى كلوف تألقت في عينيّ نظرة حنين إلى ذكرى مألوفة. لطالما كان كلوف غليظًا، لكنه بدا أصغر عمرًا وهو يرتدي المعطف الصوفي الأخضر الفاخر مع بريق شعره.

انتصب في جلسته عندما وقعت عيناه عليّ، ووضع كأس الجاودار الذي كان يرتشف منه، وساورني إحساس بالحرج على الفور وأنا أرنو إلى انعكاس صورتي على زجاج النافذة. وقد صُفف شعري في تسريحة ترسم دائرة بخصلات فضفاضة حول تاج رأسي، وكان الضوء يتألق فوق الفستان.

كان مظهري الأنيق هذا مثيرًا للسخرية في نفسي.

تفحصتني عينا زولا من رأسي إلى أخمص قدميَّ قائلًا باستحسان: «حسنًا، حسنًا...»، ثم نهض من كرسيه وهو يومئ بإيماءة تفاخر نحو معطفه ويسألني: «ما رأيك؟».

فرمقته بنظرة فاترة وقلت: «أرى أنني مستعدة لإنهاء هذه المهمة كي أغادر تلك المدينة».

أفرغ كلوف كأسه في جوفه، ثم نهض وفتح باب الحانة؛ فتدفقت الرياح الباردة إلى الداخل وسرت ارتجافة في جسدي. كنت قد قررت أن أترك المعطف الفضفاض الذي اشتراه لي كلوف في الغرفة؛ لأنني عندما وضعته على كتفي أحسست بأنني أختنق تحت ثقله. ومع ذلك بثت البرودة ارتياحًا في نفسي لأنها خففت ما أستشعره من حر تحت هذا الفستان.

وعدني كلوف بأنه سيفصح لي عن الحقيقة في غضون سويعات. غدًا سأكون في طريق عودتي إلى منطقة المضايق، وسأعثر على ماريجولد قبل أن يتسبب ويست في أضرار أدهى من الأضرار التي تسبب فيها بالفعل.

تردد نقر كعب حذائي على ظهر الطريق وأنا أسير في أعقاب زولا. كان يحاول أن يبدو واثقًا للغاية، بيد أنني لمحت التوتر الذي يعتريه. كانت مشيته تعوزها الثقة المعتادة، وكان فمه مزمومًا وهو منطلق في الشارع وعيناه تمسحان الأرضية مع استغراقه في التفكير والتدبير والحساب.

لقد قادنا عبر المدينة، وكلما أوغلنا فيها ازداد بهاؤها. حل غسق الليل فاكتست باستيان بأطياف لطيفة من اللون الوردي والأرجواني؛ ما جعل كل شيء يبدو كأنه مشهدٌ من حلم.

كانت الأحجار المرصوفة قوامها خشن وتأخذ أشكال مستطيلات، ثم تحولت إلى مربعات جرانيتية مصقولة مع انعطافنا انعطافًا آخر، وتوقف زولا مرسلًا بصره إلى السطح الرخامي اللامع الذي يغطي صرحًا ضخمًا على مرمى البصر.

تراءت لنا سلسلة من الأقواس الضخمة فوق عتبات عريضة متألقة؛ حيث انفتحت ثلاثة أبواب وتدفق من الداخل ضوء المصابيح إلى الشارع يقاوم كتائب ظلمة المساء الزاحفة.

كان مكتوبًا على اللافتة المزخرفة المعلقة فوق أبواب الصرح: «منزل آل آزمث».

كنت على دراية بمعنى كلمة آزمث، إذ كان ذلك مصطلحًا يُستخدم في الملاحة الفلكية لوصف اتجاه الشمس أو القمر أو النجوم من الموضع الذي يقف فيه المرء؛ لكن كلمة منزل لا تعبر عن مدى فخامة الصرح، إذ زُين كل شبر بمنحوتات حجرية تصور زهورًا وكرومًا، وفوقها يوجد رسم لسماء الليل مزينة بقمر متلألئ.

كان زولا هادئًا، وقد خفض بصره.

قطبت حاجبيّ حين أدركت أنه كان يستجمع رباطة جأشه، ولاحت ابتسامة خبيثة على شفتي. راقتني رؤية هذه النسخة من زولا، كان يفتقد الثقة، ويبدو خائفًا.

رنا إليّ مرة أخرى وهو يسأل: «أمستعدة؟»، بيد أنه لم ينتظر إجابة وارتقى الدرج من دوننا.

نظرت إلى كلوف، الذي لم يبد عليه التردد الذي أثقل صدر زولا، وهذا يعني شيئًا واحدًا فقط، كل شيء كان يسير وفق خطته.

ورفع يده في إشارة إلى أن أتقدمه، فرفعت تنورة الفستان الثقيلة وارتقيت الدرج نحو الأبواب، وغمرتني هَبّة رياح فانسلت بضع خصلات من تسريحتي، وشعرت لوهلة بأنني أعتلي صاري السفينة لارك وأواجه الرياح القوية، لكن السفينة لارك بدت لي الآن أبعد ما تكون.

دلفنا إلى الداخل واشتملني دفء البهو، وانجرفت عيناي نحو السقف، حيث أطلت علينا جداريات مطلية مرصعة بأحجار كريمة، أحجار أكثر من أن تُحصى. وكان البهو محاطًا

بنوافذ زجاجية ملونة غمرت المساحة بألوان غنية متألقة. أما الحضور فكانوا يرتدون ثيابًا ملونة متألقة، كانت معاطفهم تكتسي بأعمق أطياف اللون الأحمر واللون الذهبي، والفساتين الفاخرة تتهادى بأناقة على أرضية الفسيفساء. نظرت إلى أسفل طرف حذائي فرأيت رسمة زهرة متألفة من رقائق أحجار الجمشت والمرو والسليستين.

همست لكلوف متسائلة: «ما هذا المكان؟».

تحدث بصوت هامس وعيناه تمسحان المكان: «منزل هولاند».

سألته: «هل تعيش هنا؟».

قبضت أصابعي على قماش تنورة الفستان. أضيئت شمعدانات كبيرة في جميع أنحاء البهو، وبين الحشد حامت صَوانٍ عليها كئوس براقة يحملها الخدم ذوو الثياب البيضاء. امتلأ المكان بالضيوف الذين أحاطوا بصناديق زجاجية مؤطرة بالبرونز المصقول، وداخل أقرب صندوق لفت انتباهي بريقٌ.

استشعرت الحجر الكريم قبل أن أراه؛ إذ جاش شعور في وسط صدري إثر الذبذبات الصادرة عن الحجر، وانفرجت شفتاي وأنا أسير نحو الصندوق قبل أن أنحني فوق الزجاج. كان حجر زمرد أحمر بحجم يدي تقريبًا.

وانفلتت مني كلمات تعبر عن الذهول ثم ذابت قبل أن تُكوّن جملة.

لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. كان لونه أحمر فاتحًا، وكانت أوجه سطحه المصقولة تعكس صورتي غير المستوية. لا يدري أحد مقدار قيمة هذا الحجر.

كان البهو بمثابة معرض من نوع ما، حيث صُمم لاستعراض مجموعة كبيرة من الأحجار الكريمة، بدا كأنه متحف.

تمتم زولا وهو ينظر إلى كلوف: «اعثر عليها».

نظر كلوف إلى عينيّ لوهلة قبل أن يمتثل للأمر، ومضى يشق طريقه عبر المحتشدين بين الصندوقين التاليين.

ولبث زولا صامتًا وهو يتفحص المكان.

شبكت يديّ وراء ظهري وحنيت رأسي جانبًا وأنا أقول: «تبدو متوترًا».

فابتسم لي ابتسامة خابية وقال: «أأبدو كذلك؟».

فقلت بلطف: «الحق أنك تبدو مرتعبًا».

تقلصت عضلات فكه مع ظهور صينية فضية بجواري عليها كئوس منقوشة بدقة ومملوءة بسائل فاتح يفور بفقاقيع.

وأخذ كأسًا من الصينية وقال: «خذي واحدة».

فرفعت يدي وأخذت كأسًا، واشتممته.

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول: «إنه مشروب كافا. ذوو الدم المملح لا يشربون الجاودار».

ارتشفت رشفة، وقطبت جبيني حين لامس الشراب الفوّار لساني، ثم سألته: «متى ستخبرني بما نفعله هنا؟».

فاتكأ زولا على كعبيه وقال: «نحن في انتظار المرأة التي أقيم هذا الحفل على شرفها. سوف تظهر في أية دقيقة». وجعلت أرمقه وهو يتجرع الكأس ويمد يده ليأخذ أخرى.

ألقى الضوء على جلده لونًا بنيًا دافئًا أضفى على وجهه مسحة من الوسامة، وكل ما دار بخلدي حينئذ أنه لم يكن يشبه الوحوش. لعل ذلك كان السبب الذي جعل إيزولد تصعد إلى

متن السفينة لونا في ذلك اليوم، وتساءلتُ عن المدة التي استغرقتها لتكتشف خطأ ظنها الحسن فيه.

وقلت وأنا أطوق الكأس بيديّ: «أود أن أطرح عليك سؤالًا».

فقال: «اطرحيه إذن».

رمقته بتمعن، وسألته: «ما الذي كنت تُمثله لأمي؟».

أضاء وميض في عينيه وهو يتفحصني، ثم أجاب: «آه. الجواب مرتهن بماهية الشخص الذي تسألينه»، وانخفض صوته في بادرة تشي بالمكر: «قبطان. أم منقذ»، ثم تمهل هنيهة قبل أن يواصل: «طيب أم شرير. أي نسخة من القصة تريدين سماعها؟».

احتسيت حسوة كبيرة من الشراب أحرقت حلقي، ثم سألته: «لماذا غادرث لونا؟».

فأجاب: «لو لم تكن قد قتلت نفسها لكان بوسعك سؤالها هذا السؤال بنفسك. ومع ذلك فليس من المؤكد أيضًا أي نسخة من القصة كانت ستحكيها لك. لم يكن يجب أن أثق بها أبدًا».

سألته: «ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟».

فأجاب: «لم تحدد إيزولد مصيرها وحدها عندما غادرت باستيان. بل حددت مصيري أيضًا. إن سماحي لها بالانضمام إلى طاقمي كان أسوأ خطأ ارتكبته على الإطلاق».

قطبتُ جبيني عند سماع الكلمات. قال سينت الشيء ذاته، ولكن لأسباب مختلفة.

ثم قال: «لكن الليلة سوف أصلح ذلك. والفضل يعود لك».

تردد صدى خافت في رأسي وأنا أحاول ربط الكلام ببعضه واستشفاف المعنى، لكن لم أفقه معنى لشيء، سألته: «كيف يمكن أن يكون لأمي أية علاقة بهذا؟».

قال: «إيزولد هي السبب الذي جعل هولاند ترصد مكافأة لقتلي طيلة تلك السنوات. إنها السبب في ضياع أية فرصة أتيحت لي للمتاجرة في منطقة البحر المجهول، وهي السبب في عدم عودتي إلى هذه المنطقة منذ ذاك الحين».

تساءلت: «ماذا تقول؟».

أجاب: «أقول إنني قد استجلبت عداوة هولاند عندما ساعدتُ ابنتها على الهروب من باستيان».

انطبق صدري وأنا أستنشق نفسًا، ودار رأسي، وقلت بغضب: «أنت تكذب».

فهز زولا كتفيه وقال: «لا أريدك أن تصدقيني».

وضعت يدي على أضلعي وأنا أشعر كأن رئتي ليس لها مكان خلف عظامي. لا يمكن أن يكون كلامه حقيقيًّا. إن كانت إيزولد ابنة هولاند...

مرت بنا مجموعة من النساء متشابكات الأذرع وهن يتحدثن همسًا أثناء شقهن الطريق إلى آخر الغرفة. وأفرغ زولا الكأس في جوفه ووضعها على الصندوق بيننا، ومسحتُ جبيني بظهر يدي، وشعرت بالدوار. وفجأة بدا لي كأن محيطي كله غارق في الماء، كنت بحاجة إلى هواء.

وعندما تقدمت لأمضي في طريقي أمسك بذراعي واعتصرها وهو يقول: «ماذا تظنين نفسك فاعلة؟».

عندئذ نظر رجل بجوارنا من فوق كتفه نحونا للحظة، وقد استقرت عيناه على يد زولا القابضة على ذراعي. ودمدمت من بين أسناني المطبقة وأنا أتحداه أن يُحدث جلبة: «انزع

يدك عني».

حررت ذراعي وابتسمت للرجل ابتسامة خجولة قبل أن أنطلق في الممر الفاصل بين الصناديق، وأتبعني زولا بنظراته الملتهبة بالغيظ. زولا كاذب. علمت ذلك. لكن ساورني عدم ارتياح حين نطق بكلماته. وفتشت في ذكرياتي عن أمي، وعن قصصها، بيد أنها لم تنبئني بأي شيء عن والديها، ولا عن منزلها.

لكن ما الباعث الذي يجعل أمي تغادر هذا المكان؟

جال بصري في أرجاء الغرفة وأنا أعض على شفتي. وفي كل اتجاه كان الناس يرتدون ملابس فاخرة ويضحكون ويتحادثون بأريحية، لكن ما من أحدٍ انتبه إلى أن هذا الفستان لا يلائمني وأنني لا أنتمي لهذا المكان. وامتلأ البهو بالأنغام الصادرة عن الأحجار الكريمة، بصوت عال لدرجة أشعرتني بعدم التوازن. ما من أحد لاحظ ذلك أيضًا.

وانطلقت عبر الصناديق وعيناي تتقافزان فوق قممها الزجاجية، ثم توقفت هنيهة حين طرقت أذني النغمة الصادرة عن الحجر الموجود في الصندوق التالي؛ إذ كانت نغمة لم أسمعها سوى مرة واحدة.

حجر اللاريمار. جمُدت في مكاني أصيخ السمع. نغمة تشبه نداءات الطيور أو صفير الرياح في كهف. كان ذلك من أندر الأحجار الكريمة على الأرض، وهذا هو بيت القصيد. لم تكن تلك مجرد حفلة عادية، بل كانت استعراضًا للثروة والقوة.

أحسست بيد توضع على خصري، فانطلقت أصابعي على الفور صوب السكين المدسوسة في تنورتي. وتناثر مشروب الكافا من كأسي مع التفافي بسرعة وأنا أضغط طرف السكين في القميص الناصع الذي يعتلي الصدر العريض الواقف أمامي.

بيد أن رائحة مألوفة تدفقت في رئتي وأنا أشهق وأنظر إلى العينين الخضراوين، والكأس تهتز بشدة في يدي.

إنه ويست!!

الرابع عشر



شهقتُ وازدردت الصرخة التي أرادت أن تنفلت من حلقي أثناء تحديقي إليه. شعره ذو الخصلات الذهبية ممشط إلى الخلف كي لا يتساقط على وجهه، ولون بشرته متوهج تحت ضوء الشموع. حتى أنغام الأحجار الكريمة خبت وهدأت أمام الرياح العاتية التي هاجت بين جوانحي.

رفع ويست يده بيننا ولف الأخرى حول مقبض السكين الذي أقبض عليه، وشاهدته يزدرد ريقه وقد بدا تغيرٌ في عينيه، كانت الهالات السوداء تحتهما تشي بالإجهاد والإرهاق، وقد بدا منهكًا ونحيلًا.

تشبثت بسترته فتثنّى قماشها في قبضتي وأنا أجذبه نحوي وأدفن وجهي في صدره. وغزاني شعور بأن ساقيّ سوف تنهاران أسفل فستاني الثقيل، وكأنني سأغوص في الأرضية.

ناداني: «فيبل»، وهيّج صوته الألم بين أضلعي مرة أخرى، وضجّ قلبي بالخفقان، والتهب الدم المتسارع في عروقي.

وتردد في رأسي صوت يهمس محذرًا، يخبرني بضرورة البحث عن زولا لأتقي جانبه، وبأن أرفع تنورة الفستان وأركض. بيد أنني لم أستطع حراكًا، وغرقت في دفء ويست وأنا أخشى أن يختفي، أخشى أن يكون هذا محض خيال من خيالاتي.

سألني وهو يرفع وجهي لأنظر إليه: «أأنتِ بخير؟».

فأومأت بوهن.

أخذ الكأس من يدي ووضعها على الصندوق المجاور لنا، ثم قال: «فلنذهب».

شرعنا في السير. وانجرفت عيون الحضور نحونا أثناء مسيرنا وأصابع ويست متشابكة في أصابعي. تركته يسحبني عبر الحشد، نحو سماء الليل وراء الأبواب المفتوحة. لم أعد أكترث بخطة سينت وكلوف. لم آبه بما إذا كان زولا يراقبني أو ما إذا كان ما قاله عن أمي حقيقة.

همستُ باضطراب وأنا أعتصر يد ويست بقوة جعلت مفاصل أصابعي تؤلمني: «أين ماريجولد؟».

فأجاب وهو يحث الخطى: «في الميناء».

وترامى صوت زولا العميق مرتفعًا فوق صوت ثرثرة الحشد: «فيبل».

ووقع بصري على كلوف عند الجدار البعيد وبجواره زولا وهما يمرقان عبر الحشد باتجاهنا. ولكن ما جمد الدم في عروقي كان صوت تحطم الزجاج الحاد المرعب الذي دوى في الأرجاء، فتجمدت خطواتي، وانزلقت يد ويست من يدي.

تلاطمت مئات الأفكار في ذهني في فوضى عارمة حين استقرت عيني على امرأة عجوز، بوجه يمور فيه الضيق والانزعاج والصدمة، وعينين واسعتين تحت شعرها الفضي المضفر في متاهة متشابكة فوق رأسها، ومزين بإكسسوار شعر مرصع بحجر التورمالين الوردي المتطابق مع الخواتم التي تغطي أصابعها. وتحت فستانها البنفسجي تناثرت شظايا الزجاج عند قدميها.

وترامى صوتها العميق مناديًا إياي نداء هز الغرفة من حولنا: «إيزولد؟».

وجدت يد ويست يدي مرة أخرى، وطوقني بذراعه، وسحبني بعيدًا. تعثرت خطواتي بجواره وأنا أنظر من فوق كتفي لأنظر إليها، وقطبت جبيني مع تعرُّفي عليها.

صُفقت الأبواب أمامنا وتسارع رجال يرتدون معاطف زرقاء داكنة على طول الجدار وهم يتهاتفون بأوامر ملأت الغرفة بالضجة، وتقهقر الحضور ساحبين إياي أنا وويست مع تيار حركتهم.

صاح أحد الرجال مناديًا: «أنتِ!»، واستغرقت هنيهة لأدرك أنه يوجّه نداءه إليّ.

فقال ويست من ورائي بصوت أجش: «تبًّا».

استدارت المرأة على عقبيها متجهة صوب باب آخر انفتح عند الجانب الآخر من الغرفة. عندئذ أمسكت بي يد ساخنة وجذبتني، فطوّح ويست قبضته في الهواء، ثم هوى بها على فك الرجل الذي كان يمسك بي.

تعثر الرجل من أثر اللكمة وسقط وسط الحشد وهو يسحب سيفًا قصيرًا من خصره، وصرخت امرأة. وتدافع المزيد من الحراس من بين الحشد وأحاطوا بنا ممسكين بأربعة نصال تلتمع تحت ضوء الشموع، وكانت جميعها موجهة صوب ويست، بيد أن عيونهم كانت مستقرة عليّ.

استل ويست السكين من حزامه وأمسكها بجانبه وقد تألقت في عينيه نظرة هدوء غريب. اتسعت عيناي وأنا أرمقه، كانت تلك هي تعابير وجهه ذاتها التي رأيتها في الليلة التي قذف فيها كرين في البحر. أحاطنا أربعة حراس، بيد أن ويست تقدم خطوة إلى الأمام، أحسست بأنه إذا تقدم خطوة أخرى فسيلقى حتفه.

مددت يدي نحو سكينه وأنا أقول: «لا تفعل»، لكنه حرك السكين بعيدًا عن متناول يدي وحاول أن يتجاوزني. هتفت مرة أخرى: «لا تفعل يا ويست»، فطرف بعينيه كأنما تذكر للتو أنني موجودة، وأمسكتُ بسترته وسحبته للخلف.

ثم دفعته في صدره حتى التصق بالجدار، وألقيت نظرة إلى الوراء من فوق كتفي وقلت للرجل: «سوف آتي معك! لا تؤذِه».

قبض ويست على ذراعي واعتصره، لكنني أفلتُّ منه.

انخفضت السيوف المصوبة نحونا قليلًا، وأومأ الرجل ذو الأنف الدامي إيماء نحو ويست وهو يقول: «إنها تريد كليكما».

نظرت إلى ويست، لكن ارتباكه لم يكن بأقل من ارتباكي، وتبدت عيناه الخضراوان كالزجاج في الضوء الخافت وهما تضيقان في تركيز.

تراجع الحارس منتظرًا، واندفعتُ نحو الحشد، وكان ويست يسير ورائي على مقربة مني. وساد الصمت المكان وأنا أتبع السترات الزرقاء باتجاه الباب المفتوح حيث اختفت المرأة، وبعد لحظات أغلقوا الباب من ورائنا، وترامى عزف الموسيقى البعيد مرة أخرى.

ألقت الفوانيس ضوءها على السقف من فوقنا فتراءى لي المزيد من الجداريات والمنحوتات وأنا أسير في الممر.

دمدم ويست من ورائي: «ماذا يجري بحق الجحيم؟».

انفتح باب خشبي ضخم في ضوء خابٍ عند نهاية الردهة، حيث رأيت شبح كلوف يدلف إلى غرفة مضاءة.

توقف الحارس، وأشار إلينا بالتقدم قبل أن يعود أدراجه، ووقفت أنا وويست في الردهة الفارغة نتبادل النظرات.

تناهى إلينا صوت لطيف من وراء الباب يقول: «هلُما من فضلكما».

تلاشى صوت الحفل من ورائنا وأنا أُفلت يد ويست وأدلف للداخل، وتبعني على الأثر قبل أن يحاذيني وعيناه تحومان فوق كل شيء في المكان حتى استقرتا على زولا من ورائنا.

ظهر زولا عند الباب ومن ورائه حارس، دفعه الحارس فتعثر وهو يدلف إلى الداخل، واستند على الجدار كي لا يسقط، ثم انغلق الباب.

وقفت المرأة ذات الثوب البنفسجي بجانب مكتب من خشب الماهوجني المصقول. ومن خلفها كان الجدار مغطى بورق حائط ذهبي اللون، ومرسومًا عليه خطوط تمثل متاهة من أمواج البحر على طول الجدار حتى السقف. وكانت حركة عباءتها سلسة للغاية وهي تتهادى حول جسدها.

شبكت يديها أمامها فتألقت الأحجار الكريمة التي ترصع خواتمها، ثم قالت وهي ترمقني: «أنا هولاند».

اقترب ويست مني خطوة وأنا أحدق إلى هولاند غير متأكدة مما سأقوله لها.

طافت عيناها على وجهي في إعجاب بالغ، ثم قالت بلطف: «أنت فيبل».

فقلت: «نعم».

كان كلوف عاقدا ذراعيه فوق صدره ومتكئا على الجدار بجوار موقد مدفأة تتأجج فيها النيران عند الزاوية . وعلى رف الموقد عُلقت صورة مؤطرة، نظرت إليها فأحسست كأنما الغرفة خوت من الهواء حين استقرت عيناي على فتاة ترتدي ثوبًا أحمر وعلى رأسها طوق ذهبي.

كانت تلك إيزولد. أمي.

قالت هولاند وعيناها تنجرفان نحو ويست: «لا بد أنك ويست. قبطان سفينة الظل التابعة لسينت».

جمُد ويست بجواري. لقد كان أفطن من أن يُنكر ذلك، لكن لم ترقني النظرة التي تتألق في عينيه. شعرت بالرعب من أنه في أية لحظة سوف يُقدِم على فعل شيء أهوج يعرضه

لخطر محدق.

أجابت هولاند على سؤاله غير المنطوق: «نعم، أعرف هويتك تمام المعرفة. وكذلك أعرف ما تفعله بالضبط».

تردد بصري بينهما. كيف تعرف هولاند أي شيء عن ويست، بينما لم يعرف أحد في منطقة المضايق عنه شيئًا من هذا؟

قال ويست بهدوء: «ماذا تريدين؟».

ابتسمت وأجابت: «لا تقلق. سوف نصل إلى تلك النقطة».

عندئذ ارتفع صوت زولا ينادي: «هولاند»، بيد أنه أطبق فمه عندما رمته هولاند بنظرات حادة.

الآن انفرطت رباطة جأشه تمامًا. لم يكن زولا يملك أية قوة هنا، وكل الحاضرين يدرون ذلك. وبدا كلوف هو الشخص الوحيد غير القلق، ولم أكن متأكدة مما إذا كان ذلك قد أشعرني بالخوف أم بالارتياح.

تحدثت هولاند بصوت كأنه أنغام موسيقية لطيفة ومتهادية: «لا أحسب أنك على قائمة المدعوين لهذه الحفلة يا زولا».

أجابها وهو ينتصب في وقفته: «أعتذر. لكنني رأيت أن الوقت قد حان لمباشرة أعمالنا».

قالت هولاند بنبرة تبدى فيها الجفاء: «أرأيت ذلك؟ لقد أوضحتُ بجلاء أنه إذا وطئت قدمك منطقة البحر المجهول مرة أخرى فستكون الأخيرة».

قال: «أعلم أن ثمة أحداثًا جرت بيننا...»

فتساءلت: «أحداث؟».

فقال: «لقد مر ما يقرب من عشرين عامًا يا هولاند».

وراح يفك أزرار سترته تباعًا وهو لا يزال مسلطًا عينيه في عينيها، فاقترب منه حارس هولاند وقد استل سكينه. فتح زولا سترته ليكشف عن أربعة جيوب يتدلى من كل جيب منها خيوط حافظة جلدية.

أومأت هولاند بذقنها ناحية المنضدة عند الجدار، فوضعها زولا هنالك واحدة تلو الأخرى. ولم تتحرك هولاند وهو يسكب الأحجار الكريمة على الصينية العاكسة ويرتبها بدقة لتكون جاهزة للفحص.

ثم وقف زولا بلا حراك لتنظر هولاند إلى الأحجار، ثم قال: «اعتبريها هدية».

فقالت: «أتظن أن بضع مئات من قراريط الأحجار الكريمة يمكن أن تشتري عفوي عما اقترفته؟»، ونطقت الكلمات بطريقة بثت القلق والارتباك في الأجواء.

قال زولا وعيناه تهبطان عليّ: «ليس ذلك كل ما أحضرته لك».

تقهقرتُ خطوة إلى الوراء بعفوية فالتصق ظهري بالجدار وهو يرمقني. لكن عيني هولاند لم تتحولا عن زولا وهي تسأله: «هل تظن أن هذه كانت فكرتك؟».

انفرجت شفتا زولا وهو يحملق إلى هولاند متسائلًا: «ماذا؟».

عندئذ قالت هولاند آمرة أمرًا بدا كأنه حجر يسقط في مياه هادئة: «ادفع له».

فمضى الحارس حول المكتب وأخذ صندوقًا فضيًا من الرف ووضعه على الصينية قبل أن يفتحه بتمهل ليكشف عن عملات نحاسية لم أرَ مثل عددها في حياتي، ربما كانت آلافًا.

عندئذ تحرك كلوف أخيرًا وقال محدثًا هولاند: «ليس من الضروري إحصاؤها. أنا أثق بك».

سرت برودة قارسة في جسدي، ومددت يدي إلى ذراع ويست في محاولة لتثبيت نفسي وربط الخيوط ببعضها.

لم يكن كلوف يتجسس على زولا، بل كان يُسلّم زولا إلى هولاند.

قالت هولاند ببساطة: «ما من شيء يشفي غليل أم فقدت طفلتها. إنه جرح لا يندمل. جرح لن يُسكنه شيء، حتى موتك».

لحظتئذ كان زولا بالفعل يجرجر قدميه إلى الخلف نحو الباب وعيناه متسعتان وهو يقول: «لقد أعدتها، من أجلك».

فقالت: «وأنا أُقدر ذلك»، ورفعت إصبعها في الهواء ففتح الحارس الباب حيث برز من ورائه رجلان آخران ينتظران.

دلفا إلى الغرفة من دون كلمة، وقبل أن يدرك زولا ما كان يجري تلقفاه من سترته وجذباه إلى الردهة المظلمة، فأخذ يصرخ: «مهلًا!».

أغلق كلوف غطاء الصندوق بحركة سريعة وصرخات زولا تتردد في الأجواء، وأدركتُ أن الصوت الذي يحتل أذني كان صوت أنفاسي وهي تتدافع في ذعر. واختفى صوت زولا فجأة مع دويّ صوت ارتطام جثمانه على الأرضية.

كانت أصابعي زلقة حول مقبض السكين داخل تنورتي وأنا أحملق في الظلام الدامس، وجفلتُ عندما رأيت خط دم طازج يسيل على الرخام الأبيض ويلتمع تحت الضوء وهو يتسرب إلى الغرفة، ثم خيّم الصمت.

الخامس عشر



لقد مات. مات زولا.

حاولت أن أربط هذا الخيط ببقية خيوط الأحداث التي شهدتُها خلال الأيام العشرة الماضية. كان هذا هو سبب انضمام كلوف إلى طاقم زولا، كان كل ذلك يقود إلى هذه اللحظة بالذات.

لم يكن زولا يمثل مشكلة لسينت أو ويست فقط، بل كان يمثل مشكلة لمنطقة المضايق بأكملها وكان من الضروري حل هذه المشكلة. لقد زرع سينت كلوف في طاقم السفينة لونا لكي يسوق زولا إلى يدي هولاند، وعمل كلوف على إقناع زولا بإمكانية التخلص من تهديدات هولاند للأبد، لكن كيف فعل ذلك؟

بدت النقود التي أعطتها هولاند إلى كلوف بمثابة المكافأة، وحدثتني نفسي أن اسم سينت ظل خارج الأمر كله. فهولاند ترى كلوف بصفته مجرد تاجر من منطقة المضايق يتطلع إلى جني ثروة.

خطة عبقرية حقًّا. استغل أبي الخصومة بين زولا وهولاند ليدفع زولا إلى الإبحار نحو حتفه بنفسه. ولماذا يقتل تاجرًا ويخاطر بالتعرض لعقوبات مجلس التجارة في منطقة المضايق، بينما يمكن أن تتولى هذه المهمة تاجرة ذات سطوة في منطقة البحر المجهول نيابة عنه؟

سألته بصوت واهن: «لماذا لم تخبرني؟».

رنا إليّ كلوف بنظرة تنم عن تعاطف، بيد أنه ظل صامتًا وعيناه تنجرفان باتجاه هولاند؛ لم يكن يريدها أن تعرف أكثر من اللازم.

تلقى كلوف أوامر من سينت، وكان ثمة سبب وراء كل أمر يصدره سينت. وبيت القصيد أنني حتى إذا وثقت في سينت فإنه لم يثق فيّ. ولماذا يفعل؟ لقد حِكت المكائد ضده لتحرير ماريجولد.

وانجرف بصري صوب دماء زولا الزاحفة على الأرضية الرخامية البيضاء، وراقبت التماع الدماء تحت ضوء النيران. قبيل لحظات فقط كان يقف بجواري، ما زلت أشعر بقبضته تعتصر ذراعي.

جعلني الصمت الرهيب أجفل، وأدركت أن هولاند كانت تحدق إلى وجهي، وكأنها تتوقع مني قول شيء. وبدت محبطة حين لذت بالسكوت.

قالت: «أحسب أن هذا يكفي الليلة، أليس كذلك؟».

لم أكن متأكدة كيف أرد على ذلك. لم أكن متأكدة حتى بشأن مغزى سؤالها.

وأردفت: «ستمكثين هنا»، ولم تكن نبرتها تشي بأنها تقدم دعوة أو تطلب طلبًا، كانت عيناها لا تزالان تتفحصانني وهما تحومان فوق شعري وكتفيّ وقدميّ، ثم قالت: «سوف نتحدث صباحًا».

فتحت فمي لأعترض، بيد أن ويست بادر قائلًا باقتضاب: «لن تمكث».

عندئذ رفع كلوف صندوق النقود بتكاسل ووضعه تحت ذراعه وهو يقول: «أخشى أنني أتفق معه».

لم يبدُ عليه هو وويست أدنى خوف من هولاند، لكنني كنت مرتعبة للغاية. بإيماءة من إصبع هولاند سوف يجر الحراس ويست أو كلوف إلى الظلام.

قالت هولاند: «أنتم جميعًا ماكثون»، ثم نظرت إليّ وإلى ويست مردفة: «لي شأن معكما أيضًا». لكن هذا الهدوء في عينيها هو الهدوء ذاته الذي لاح منذ لحظات عندما رفعت ذلك الإصبع.

وفي الردهة سمعت شيئًا يُجتر فوق الرخام؛ فازدردت ريقي بصعوبة.

أردفت هولاند وهي تمد يدها إلى مقبض باب آخر: «آمل أن تتصرفوا بأريحية كأنه بيتكم»، وفتحت الباب الذي ظهر من ورائه رواق مضاء بفوانيس ساطعة.

انتظرتني أن أتحرك نحو الباب، بيد أنني لم أتحرك وظللت أحدق إلى صورة أمي المعلقة فوق الرف وضوء النيران يجعل عينيها تتألقان.

التمعت الخواتم في أصابع هولاند وهي تخطو خطوة باتجاهي، وكان نسيج فستانها الطري يتماوج مثل الفضة المذابة، وزينة شعرها تتلألأ. ولم أتمالك إلا أن أتخيلها شخصية من إحدى الحكايات القديمة مثل شبح أو جنية بحر، كائن من خارج هذا العالم.

والتصور ذاته انطبق على أمي.

مدت هولاند يديها وأمسكت بيدي ورفعتها في المسافة الفاصلة بيننا وقلّبتها حتى صار كفي لأعلى. وفركت خطوط كفي بإبهاميها واشتدت قبضتها حين لمحت طرف ندبتي يطل من تحت كمي.

رفعت عينيها ذواتي الزرقة الفاتحة نحو عينيّ، وأفلتتني، ثم قالت: «مرحبًا بكِ في بيتك يا فيبل».

بيتك.

بدت الكلمة ذات دلالات متشعبة مبهمة، وبدا وقعها غريبًا على أذني.

أمسكت تنورة الفستان بيديّ ومرقت من الباب وأنا أقاوم اضطراب أحشائي. لعل سينت قد حقق مأربه، ولكن الآن هولاند هي صاحبة اليد العليا، وهي تعرف ذلك.

قادنا الحارس إلى ممر آخر أفضى إلى درج حلزوني، وارتقاه فتبعناه حتى وصلنا إلى صالة تطل على الدور الأرضي. ثم مضى حتى وصل بنا إلى باب في آخر الممر، كان الباب مطليًّا باللون الوردي المتلألئ وفي وسطه باقة من الأزهار البرية.

وقال وهو يمسك بالباب كي يبقيه مفتوحًا: «سوف يأتي إليك أحدهم مع أول دقة جرس».

كانت الغرفة مغمورة بضوء القمر الباهت المتدفق من نافذة كبيرة، وتحتها رأيت سريرًا أخفى الظلام شطره.

تقدم ويست ليدلف أولًا، لكن الحارس صده بوضع يديه في صدره قائلًا: «هذه الغرفة لها».

قال ويست: «إذن سأبيت هنا أيضًا»، وتجاوز الحارس وأمسك بالباب مفتوحًا كي أدلف وراءه.

نظرت من فوق كتفي ناحية كلوف الذي كان متكئًا على الدرابزين وهو يومئ إليّ بإيماءة طمأنة. ثم قال: «أراكِ في الصباح»، كان سلوكه يتسم بالهدوء، لكن ثمة نظرة مضطربة في عينيه. لم أكن الوحيدة التي تدرك أن هولاند كانت كزيت مصباح متأهب للاشتعال مع أول محفز.

ظهر الحارس الذي سحب زولا إلى الظلام عند أعلى الدرج. سار نحونا بخطوات سريعة، وتفحصتُ سترته ويديه تفتيشًا عن أي أثر لدماء، بيد أنه كان نظيفًا ومتأنقًا، تمامًا كما هي حال ضيوف الحفلة في الطابق السفلي.

أخذ مكانه بجوار الباب مع إغلاق ويست للباب عقب دخولي، وأصاخ ويست السمع ليلتقط صوت سقوط المزلاج في مكانه. وعندما اختفى دبيب أقدام الحارس مع ابتعاده أرخى

ويست كتفيه، واتكأ على الباب وهو عاقد ذراعيه فوق صدره في مواجهتي.

سألني وهو يكز على أسنانه: «ما الذي يجري يا فيبل؟».

كان حلقي يؤلمني وأنا أراه تحت ضوء القمر ذي الطيف الأزرق الباهت. وأجبت: «سينت»، وقد بدا وقع اسم أبي غريبًا على مسمعي بطريقة ما. وأردفت: «لقد استخدمني لاستدراج زولا إلى هنا حتى تقتله هولاند»، ومع ذلك لم أكن متيقنة من أنني فهمت الأمر كله، لكن تلك كانت نتيجة الخيوط التي ربطتها معًا.

فسألني: «كيف يستدرجه؟ ما صلة هولاند بكِ».

فقلت: «أظن...»، وبحثت عن الكلمات قبل أن أتابع: «أظنها جدتي».

فاتسعت عيناه وهو يتساءل: «ماذا؟».

نطق الكلمة بطريقة جعلتها غريبة ومشوهة. وأحسست بدوار، لم أتمكن من استنشاق الهواء.

طافت روح أمي بين هذه الجدران، وحام طيفها في الأجواء.

وفي طوفان الذكريات الذي غمر ذهني فتشتُ عن أي شيء ربما تكون إيزولد قد أخبرتني به عن هذا المكان، لكن لم أجد سوى حكايات الغطس وشوارع المدينة التي وُلدتْ فيها، لا شيء عن منزل آزمث أو صاحبته.

ضغطت يديّ على الحرير الأزرق الذي يطوق جذعي، وقلت: «عندما هربت إيزولد من باستيان انضمت إلى طاقم زولا. إن هولاند هي أمها، ولهذا خسر زولا رخصته التجارية في منطقة البحر المجهول، ولم يبحر هنا منذ ما يربو عن العشرين عامًا».

لاذ بالصمت، لكن أجواء الغرفة احتدمت بتلاطم الأفكار المحمومة في ذهنه. كان يبحث عن مخرج من هذا المأزق؛ مهرب من هذا الفخ الذي وقعنا فيه.

ذهبتُ إلى النافذة وأرسلت بصري ناحية الميناء رغم تواريه تحت جنح الظلام، وسألته: «ماذا عن الطاقم؟».

فانتصب ويست وخيمت الظلال على وجهه فاشتد السواد تحت عينيه، وأجاب: «لن يُقدِموا على أية حركة».

فسألته وأنا أفكر في ويلا: «أأنت متأكد من ذلك؟»، عندما نغيب عن الحضور في الميناء ستتأهب لتخريب المدينة.

جلستُ على حافة السرير، ووقف أمامي ناظرًا لأسفل نحو وجهي. ورفع يده كأنما سيلمسني، بيد أن حركته تجمدت، وعيناه استقرتا على التماعة الذهب من تحت حرير فستاني. وانزلق طرف إصبعه تحت خيط القلادة وسحبه حتى تهادى الخاتم في المسافة الفاصلة بيننا.

وراح يحدجه هنيهة قبل أن تتلاقى أعيننا في حركة سريعة وهو يسأل: «هذا ما كنتِ تفعلينه في ديرن؟».

أومأت بالإيجاب وأنا أزدرد ريقي بصعوبة، واعتذرت بنبرة واهنة: «آسفة».

وتعمّق التجعد في جبينه وهو يسأل: «آسفة على ماذا؟».

فأجبته: «على كل ما نحن فيه».

لم يكن أسفي على ما حدث ذاك الصباح، بل على كل شيء؛ على وقوعنا في فخ هولاند، وعلى ما جرى في باستيان، وعلى حرق ويست لسفن زولا. على كل شيء فعله لسينت ولم يرد إخباري به. فمغادرتي لماريجولد ذاك الصباح رسمت المسار الذي قادنا إلى لحظتنا هذه

بكل ما فيه من أحداث. ولم أرغب في الإقرار بأن ويست بدا مختلفًا في عينيّ الآن، لقد بدا أشبه بأبي.

لمس وجهي وتخللت أطراف أصابعه شعري.

لم أكن أعرف ما الذي فعله في منطقة المضايق وهو يحاول العثور عليّ، لكن وطأة الأمر كانت ثقيلة عليه، حتى إن ظلمة نفسه تفاقمت جراء ذلك. في تلك اللحظة لم أرد إلا استشعار يديه الخشنتين على بشرتي واستنشاق الهواء المحيط به، كي أشعر وكأنني مختبئة في ظله.

وانخفض وجهه حتى صار فمه فوق فمي، وقبلني بلطف حتى احتشدت الدموع على الفور وراء عيني. وتحركت يداي على ظهره وهو ينحني نحوي ويستنشق نفسًا عميقًا كأنما يسحب إلى داخله هالة الدفء المنبعثة من جسدي. نفضت عن ذهني ما قاله كلوف، وأغمضت عينيّ وأنا أتخيل أننا في ضوء الفانوس المعلق داخل غرفة ويست على السفينة ماريجولد.

انزلقت أسنانه على شفتي السفلية فلسعني موضع الجرح، لكنني لم أكترث وقبلته مرة أخرى، وامتدت يداه إلى التنورة ليرفعها، ثم شعرت بأصابعه تزحف على ساقي حتى بلغت موضع الغرز في فخذي، فجفلتُ وأصدرت هسيسًا.

ابتعد ويست عني فجأة وعيناه تحومان على وجهي.

فهمست وأنا أجذبه إليّ: «هذا شيء لا يستحق الذكر».

بيد أنه تجاهلني ورفع التنورة حتى وركي لكي يتسنى له النظر إلى موضع الجرح، حيث تثنت الغرز غير المتقنة في خط غليظ وسط كدمة قرمزية اللون. وتحسسها بإبهامه برفق وعضلات فكه تنقبض وهو يسأل: «ماذا حدث؟».

أسدلتُ التنورة مرة أخرى وأنا محرجة، وقلت: «حاول أحد الجرّافين على سفينة زولا إغراقي أثناء الغوص».

فاتسعت عيناه وسرى فيهما بريق، لكن عضلات فمه كانت جامدة في هدوء، وسأل: «مَن؟».

فتمتمت: «لقد لقى حتفه».

فهدأ وتركني، واتسعت المسافة بيننا، فتلاشى الدفء الذي أحسسته في لمسته منذ قليل، ما جعلني أرتجف. لقد لاحت التماعة في عينيه تشي بما جرى في الأيام العشرة الأخيرة، بدت لي لمحة من ذلك الجانب من ويست الذي رأيته في الليلة التي أنبأني فيها بشأن أخته، تلك الليلة التي أخفى عني فيها أمره مع سينت.

همس لي شيء في نفسي: لست بحاجة إلى أن أعرف هذا الشأن. لكن بدا أنني أكذب على نفسي؛ إذ في النهاية لن يكون ثمة مناص من نبش تلك الأسرار المدفونة والكشف عن كل شيء يخفيه عني.

السادس عشر



جلستُ على الأرضية واتكأت على الجدار وأنا أشاهد شعاع ضوء الصباح يزحف على السجادة ذات الشراريب حتى لامس أصابع قدمي. لقد مرت ساعات الليل في هدوء لا يقطعه إلا وقع أحذية في الممر خارج الباب.

وقف ويست عند النافذة يرقب الشارع، وفي ضوء الشمس تسنى لي استبيان تفاصيل أناقة معطفه الفخم على نحو أفضل. امتدت حاشية المعطف الأرجواني حتى بلغت ركبتيه، وعُمق اللون جعل شعره يبدو فاتحًا أكثر، وتساءلتُ كيف أقنعه أحدهم بارتداء هذا الزي، حتى حذاؤه كان يلتمع.

لم يزر النوم عيني، وجعلت أشاهد ويست الذي أرسل نظرات عينيه المجهدتين إلى خارج النافذة، بدا كأنه لم يغمض له جفن منذ أيام، وازدادت حدة عظام وجنتيه.

نظر نحوي من فوق كتفه وكأنه استشعر نظراتي المسلطة عليه: «أأنتِ بخير؟».

فأجبته وبصري يهبط على يديه: «أنا بخير». آخر مرة رأيت فيها ويست أنبأني أنه قتل ستة عشر رجلًا، تُرى كم صار العدد الآن. ثم قلت وأنا أفكر في طاقم ماريجولد: «أنت قلق عليهم».

فقال: «سوف يكونون بخير»، وأحسست أنه كان يطمئن نفسه أكثر مما كان يطمئنني، وأردف: «كلما أسرعنا بالخروج من هنا كان ذلك أفضل».

عندئذ ترامى صوت طرقة لطيفة على الباب، فتجمدت حركتنا. وترددت قبل أن أنهض، وقطبت جبيني حين لدغتني الغرز في ساقي. واهتزت تنورتي المجعدة وأنا أسير حافية

القدمين على السجادة صوب الباب، وعندما فتحت الباب، وجدت امرأة ضئيلة الحجم تحمل فستانًا جديدًا على ذراعيها، كان نسيجه ناعمًا ولونه ورديًّا فاتحًا، يكاد يكون الطيف ذاته الذي كسا جدران الغرفة.

رأيت كلوف متكئًا على الدرابزين الموجود في الصالة، وعند قدميه صندوق نقوده. لقد مكث هناك طيلة الليل.

قالت المرأة وهي ترفع عينيها نحوي: «لقد أتيت لأُلبسك».

فقلت بحنق: «أنا لست دُمية. لست بحاجة إلى من يُلبسني».

ومن ورائها حبس كلوف ضحكته.

بدت المرأة مرتبكة وهي تقول: «لكن المشابك...»

لكنني انتزعت الفستان من بيد يديها وأغلقت الباب قبل أن تتم جملتها. كان الفستان يتلألأ وأنا أرفعه وأتفحصه، كان مبهرجًا برقبة عالية وتنورة متثنية الطيات.

بدا أن ويست منزعج مثلي من المنظر؛ إذ جفل كأنما النظر إلى الفستان يؤلمه.

ألقيت الفستان على السرير وأنا أنفخ متأففة، ومددت يدي إلى الخلف كي أفك أربطة الفستان الأزرق الذي كنت أرتديه، وانفكت الأربطة العليا بسرعة، ثم تأوهت امتعاضًا عندما لم أتمكن من الوصول إلى الأربطة الموجودة في المنتصف.

مددت يدي إلى جيب تنورتي واستللت السكين. وراقبني ويست وأنا أثبت النصل على طول وصلة الخياطة عند أضلعي وأشرع في الجز، فتمزق القماش وأرخيت الجزء العلوي من الفستان لأسفل حتى سقط الفستان متكومًا على الأرضية. آلمتني ضلوعي وكتفاي، وأخيرًا تحررت من الفستان الخانق.

نظر ويست إلى ملابسي الداخلية والطوق المثبت حول خصري لرفع التنورة، وقال: «ما هذا بحق الجحـ...»

لكنني حدجته بنظرة حادة ليصمت، ولبست الفستان الجديد وأغلقت الأزرار في الخلف بقدر ما وصلت إليه يدي. وعندما لم أتمكن من الوصول إلى الزر التالي، أقدم ويست على مساعدتي بوجه عابس. كانت الأكمام القصيرة تُظهر ندبتي، وأثارت الفكرة اضطرابي لوهلة؛ إذ اعتدت إخفاءها.

سحبت الدبابيس من شعري وتركته ينسدل حولي قبل أن أهزه. وانسدلت خصلاتي المصطبغة باللون البني المحمر على كتفي، فتبدت داكنة بالمقارنة مع لون صدريتي الفاتح. وعندما فتحت الباب مرة أخرى كانت المرأة لا تزال واقفة هناك وفي يديها الناعمتين حذاء بلون الفستان الوردي.

اتسعت عيناها حين رأت الحرير الأزرق الممزق متكومًا على الأرضية من خلفي وقال: «يا إلهي!».

لكنها تمالكت نفسها ووضعت الحذاء على الأرضية، فرفعتُ الفستان كي أتمكن من وضع قدمي في الحذاء. وبدا الفزع على المرأة حين وقعت عيناها على الندبة في ذراعي، وسرعان ما تركت يدي الفستان وأنا أنتظرها أن تكف عن التحديق.

اصطبغ خداها بحمرة قانية وقالت: «سوف أصحبك إلى مكان الإفطار»، وحنت رأسها في بادرة اعتذار.

كان ويست واقفًا بالفعل في الصالة بجوار كلوف، واقتربت المرأة منهما بحذر كأنما تخشى أن تلمسهما، وبدا كلوف مسرورًا. ثم تنحى جانبًا وتركها تمر، فقادتنا المرأة نزولًا على الدرج. وفي الأسفل تبدت الردهة التي سرنا فيها ليلة أمس مغمورة بأشعة الشمس المتدفقة من

النوافذ الممتدة من الأرضية حتى السقف، وتراصت على الجدار لوحات تُصور وجوه رجال ونساء يرتدون ثيابًا فاخرة ومتزينين بالأحجار الكريمة.

اصطكت النقود في الصندوق محدثةً جلجلة ونحن نتبع المرأة على الدرج الحلزوني.

وقلت بصوت خفيض: «حان الوقت لإخباري بما يجري».

فانطلقت عينا كلوف صوب ويست في حذر وقال: «أنت تعرفين ما يحدث بالضبط، لقد نلتُ مكافأة هولاند واستدرجت زولا من منطقة المضايق إلى باستيان».

فسألته: «لكن لماذا؟ لماذا تقطع كل هذا الطريق بأمر من سينت؟»، كان كلوف مخلصًا لسينت، لكنه لم يكن غبيًّا، لم يكن ليخاطر بحياته عبثًا، لا بد أن له مصلحة في الأمر.

تقوّس أحد حاجبيه في انزعاج وقال: «لقد جعل الأمر جديرًا بوقتي»، ونقر الصندوق الفضي تحت ذراعه وتابع: «إنني أستخدم النقود لتشييد أسطول جديد تحت شعار سينت».

فسألته: «ماذا؟ لماذا لا يكون تحت شعارك الخاص؟».

فضحك كلوف وهو يهز رأسه: «هل كنت لتقحمي نفسك في منافسة مع سينت؟».

ما كنت لأفعل ذلك. ما من أحد عاقل يفعل ذلك. يسلك الجميع هذا المسلك تحت مظلة سينت لتحقيق مآربهم.

وواصل: «دأبت على محاولة إقناع زولا بالعودة إلى باستيان لما يربو على العام، بيد أنه لم يُبدِ اهتمامًا. كان يخشى هولاند أشد الخشية».

فتمتمت: «إلى أن استخدمتني كطُعم. لقد كان سينت يعرف أنني في جزيرة جيفال، لو كان يريد استخدامي لسوق زولا إلى هولاند فقد كان بوسعه أن يأتي ليأخذني من جيفال في

أي وقت، فلماذا الآن؟»، ظل كلوف لائذًا بالصمت وهو يسير بجواري.

عندئذ نظر كلوف من فوق كتفه صوب ويست مرة أخرى، فتوقفتُ في مكاني مع انزلاق التنورة من بين أصابعي.

وحدجته وأنا أقول: «إذن، كنت محقة. هذا بشأن ويست».

ردد ويست بصره بيننا، بيد أنه لم ينبس بشيء. على الأرجح أن الفكرة ذاتها خطرت في باله.

كان سينت يحيك المكائد لزولا، لكنه حين أدرك أنني استغللته لمساعدة ويست انبثقت في ذهنه فكرة يضرب بها عصفورين بحجر، فيستدرج زولا إلى باستيان وفي الوقت ذاته يبعدني عن ماريجولد.

قلت بغيظ وأنا أكزُّ بأسناني: «ذاك الوغد».

رنا إليّ ويست من طرف عينه واضطربت عضلات فكه. ذات مرة قال إنه لن يتحرر من هيمنة سينت أبدًا، وبدأت أشك في أنه على حق بالفعل.

ومضينا حتى انعطفنا عطفتين قبل أن نقف قبالة باب عريض يفضي إلى غرفة مُشمِسة ضخمة، حيث امتدت الجدران الزجاجية إلى سقف مفتوح على السماء الزرقاء، ما غمر المكان بضوء ساطع لدرجة أنني اضطررت إلى أن أطرف بعيني كي تتكيف مع هذا الوهج الساطع.

احتلت مركز الغرفة مائدة مستديرة مفروشة بأناقة، حيث كانت هولاند منتظرة.

كان الحزام حول خصرها مرصعًا بأحجار زمرد متدلية، وهو الحجر ذاته المتدلي من السلسلة الذهبية التي تطوق عنقها. عكست الأحجار الضوء المتدفق من النوافذ المطلة على المدينة فتألقت، وكانت هولاند تحمل فنجان شاي.

ألقى عليها ويست نظرة ممحّصة وقد تألق في عينيه سؤال لم أستطع تبين فحواه.

توقفت مرافِقتنا عند الباب وهي تشير إلينا بالدخول، فدلفتُ إلى الغرفة وبجواري ويست وفي إثري كلوف.

قالت هولاند وعيناها مصوبتان تجاه المنظر الطبيعي المكسو بالطيف الذهبي: «صباح الخير. اجلسوا من فضلكم».

كانت الغرفة المُشمِسة مليئة بالنباتات، ولذا كان الهواء دافئًا ورطبًا. كانت الأوراق العريضة وفروع النباتات المعترشة المتشابكة تزحف على النوافذ، وقد تناثرت الأزهار من شتى الألوان على طول الفروع.

مددت يدي إلى الكرسي، لكن برز شاب من خلفنا سحبه نيابة عني. فجلست بحذر وأنا أرمق محتويات المائدة.

رُتبت المخبوزات والكعك في أنماط منمّقة فوق أطباق وصوانٍ فضية متدرجة الطبقات، ولاحت أكوام التوت الطازج في أوعية خزفية بيضاء. كان لعابي يسيل من رائحة السكر والزبدة، لكن ويست وكلوف أبقيا أيديهما في حجريهما، فقلدتهما.

وضعت هولاند فنجانها بحذر بالغ على الصحن أمامها وقالت محدّثة إياي: «تشبهين أمك تمامًا».

فقلت: «وأنتِ كذلك».

اختلج فمها اختلاجة بسيطة، لكن هذا كان صحيحًا. كان التشابه بينها وبين أمي باديًا رغم عمرها هذا وشعرها الفضي. كانت هولاند تتقاسم مع إيزولد ذاك الحُسن الجامح.

حنت رأسها جانبًا بفضول وهي تقول: «أفترض أنها لم تنبئك بشيء عني مطلقًا».

أجبتها بصراحة: «لم تفعل»، لا جدوى من الكذب.

قالت: «أُقر بأنني لم أصدق زولا عندما أرسل لي رسالة تفيد بأنه سوف يُحضر لي ابنة إيزولد. لكن هأنتذي، لا ريب أنك ابنتها»، حامت عيناها فوقي مرة أخرى قبل أن تتابع: «ما زلت أحاول اكتشاف كيف تواريتِ عن أنظاري، ما من شيء يحدث في البحر لا أحيط به علمًا».

بيد أنني عرفت إجابة هذا السؤال. لم يعرف أحد هويتي سوى كلوف، وقد أمضيت أربع سنوات في جزيرة جيفال، بمنأى عن فضول أي شخص. وتساءلت لأول مرة عما إذا كان هذا أحد الأسباب التي جعلت سينت يتركني هناك.

همسَت قائلة: «كانت إيزولد فتاة حسناء، موهوبة، لكن شديدة العناد».

لذتُ بالصمت وأنا ألقي نظرة ممحصة على طرفي فمها وحركة عينيها. لكن مظهر هولاند لم يفصح عن شيء.

تابعتْ: «كانت في السابعة عشرة من عمرها حين غادرت على متن السفينة لونا دون أن تودعني. استيقظتُ ذات صباح ولم أجدها على مائدة الإفطار». وحملت فنجانها مرة أخرى وقد اهتز في يدها وهي ترتشف رشفة أخرى من الشاي الساخن. وتابعت: «لو لم يكن أبوها قد توفي بعد، لكان هروبها كفيلًا بالقضاء عليه».

ثم أخذت كعكة ووضعتها على الطبق الموضوع أمامها، وفي تلك الأثناء انفتح الباب من خلفنا، ودلف رجل إلى الغرفة يرتدي سترة مزررة حتى الرقبة ويحمل قبعته في يديه. استغرقتُ هنيهة لأحدد هويته؛ إنه مدير الميناء.

بدا أن ويست قد أدرك هويته في اللحظة ذاتها، إذ تململ في كرسيه بحركة بسيطة وهو يولي ظهره للمدير.

وقف الرجل بجوار المائدة قبل أن يُسلم هولاند لفافة ورقية وهو يقول: «نعمل على تجريد لونا الآن. ثمة قدر كبير من الإمدادات، ولكن لا يوجد مخزون بضاعة، والأشرعة جديدة».

فتمتمت هولاند وهي تتطلع إلى مضمون الورقة: «حسنًا، يمكننا استخدام الأشرعة. ماذا عن الطاقم؟».

أجابها: «هبطوا على الأرصفة بحثًا عن عمل».

ألقيت نظرة خاطفة ناحية كلوف وأنا أفكر في الجرّافين. إن استيلاء هولاند على السفينة لونا يعني أنهم على الأرجح لن يحصلوا على أجرهم. سيبحثون جميعًا عن طريقة ليعودوا بها إلى جيفال.

قالت هولاند: «احذف بيانات رسو السفينة من السجل. لا أريد أن يبقى أثر لها هنا يفتش عنه أحدهم».

اشتدت قبضة ويست على ذراع الكرسي. إنها لم تقتل زولا فحسب، بل كانت تعمل على إغراق السفينة والتستر على حقيقة أنه وصل إلى باستيان أساسًا. حين تنتهي من الأمر سوف تكون كل البيانات الدالة على وصوله قد مُحيت للأبد.

تابعتْ: «أريد لونا في قاع البحر قبل غروب الشمس. لا أريد أن يعلم مجلس التجارة بشيء عن هذا قبل الاجتماع».

عندئذ التقت عينا كلوف بعينيّ. تخميني الوحيد أنها كانت تتحدث عن الاجتماع الذي ينعقد في ساجساي هولم بين مجلس تجارة منطقة المضايق ومجلس تجارة منطقة البحر المجهول.

همهم مدير الميناء معلنًا الامتثال للأمر. ثم قال وهو يشير إلى الورقة المفتوحة بين يدي هولاند: «ثمة سفينة وصلت دون ميعاد أيضًا. سفينة ماريجولد».

تصلبت أعصابي على الفور، ووضعت فنجاني على الصحن بقوة بعض الشيء. وبجواري كان ويست ساكنًا سكونًا بث ارتجافة في جسدي؛ إذ بدا وكأنه يوشك أن يهب من الكرسي وينحر حلق الرجل.

نظرت هولاند إليّ وقالت: «لا أحسب أن علينا القلق بشأنهم. ما رأيكِ؟».

قلت وأنا أنظر إلى عينيها: «أوافقك الرأي». ثمة مقايضة أجريت الآن بهذه النظرة المتبادلة، لكنني لم أكن متأكدة بشأن مضمون تلك المقايضة.

ثم أعطت الورقة إلى مدير الميناء وهي تومئ له بإيماءة تسمح له بالانصراف، فاستدار على عقبيه ومضى صوب الباب.

كززت على أسناني وأنا أشاهده يغادر. إذا كان مدير الميناء طوع بنان هولاند، فبالتأكيد ما من شيء يحدث على تلك الأرصفة دون علمها.

ثم قالت وهي تطوي يديها على المائدة وتنظر نحو كلوف قائلة: «أنا واثقة من أنه يمكنك العودة إلى منطقة المضايق».

قال كلوف بانزعاج: «يبدو أنك أصدرتِ أمرك للتو بإغراق السفينة التي أتيت على متنها».

قالت: «سوف أدبر لك أمر العودة. لكنّ ثمة شيئًا آخر أريدك أن تفعله».

قال: «لقد أنجزتُ المهمة»، وأومأ إلى الصندوق الفضي مردفًا: «وقد دفعتِ المكافأة بالفعل».

فقالت: «أود أن أضاعفها».

عندئذ ضاقت عينا كلوف في ارتياب وهو يقول: «إني منصت».

التقطتْ حبة توت وأمسكتها أمامها وقالت: «سينت».

ضجت أذني بصوت خفقات قلبي عند سماع اسمه، واشتدت أصابعي على يد الفنجان.

ارتكز كلوف بمرفقيه على المائدة وتساءل: «ماذا تريدين من سينت؟».

فقالت: «الشيء ذاته الذي أردته من زولا. القصاص. لقد ماتت ابنتي على متن سفينته، وسوف يدفع ثمن ذلك. من المتوقع أن يحضر اجتماع مجلس التجارة في ساجساي هولم. أريدك أن تحرص على ألا يصل إلى ذلك الاجتماع».

حملقت عينا كلوف إلى المائدة وهو مستغرق في التفكير، كدت أسمع عقله يمور بحركة محمومة وهو يحاول ربط خيوط خطة ما من شأنها إخراجنا جميعًا من هذه الفوضى. وعندما فتحت فمي لأتحدث، أسكتني بهزة طفيفة من رأسه.

اتضح لي حينها أن كلوف لم يتستر على اشتراك سينت في أمر إحضار زولا فقط، بل أخفى عنها أيضا حقيقة أن سينت هو أبي.

قالت هولاند مضيّقة الخناق عليه: «هل تريد إنجاز المهمة أم لا؟».

حبستُ أنفاسي. إذا رفضها فسوف تُكلف شخصًا آخر بها.

حدق كلوف إلى عينيها وقال: «أقبل بالمهمة».

عندئذ وضعتُ يديّ في حجري وتلوّت أصابعي في نسيج التنورة. لقد نجحت هولاند في الولوج إلى منطقة المضايق واستدراج زولا إلى خارجها، والآن تريد سينت.

قالت: «جيد»، ثم أدخلت حبة التوت في فمها وراحت تمضغها، ونظرت إلى ويست قائلة: «هذا يقودني إليكَ».

فصَعَّدَ بصره إليها منتظرًا.

قالت: «حالما نزيح سينت سوف يكون هناك مسار تجاري كامل خلفه. وإذا كان ثمة أحد على دراية بعمليات سينت التجارية فسيكون قائد سفينة الظل التابعة له».

ها هو ذا الجزء الآخر من خطتها. لم تكن هولاند تريد الانتقام فقط، بل كان للأمر جانب عملي أيضًا.

قال ويست بفتور: «لست مهتمًّا».

قالت هولاند وهي تحدق إليه مرة أخرى: «سوف تهتم. مَن هم مثلي يمكنهم دائمًا الاستفادة من مواهب أشخاص مثلك. سوف أجعل الأمر جديرًا باهتمامك».

عضضت خدي من الداخل وأنا أراقب ويست بنظرة ممحصة، لكن تعابير وجهه الرزينة أخفت كل ما كان يدور بخلده.

وواصلتْ: «إذا كان ما سمعته عنك صحيحًا، فما من شيء تعجز عن التعامل معه».

قال: «أنتِ لا تعرفين أي شيء عني».

ابتسمتْ وقالت: «أحسب أنني أعرف». وخيّم صمت غير مريح بيننا قبل أن تهبط عيناها عليّ مرة أخرى. ثم نهضتْ وهي تطوي منديلها بعناية وتضعه على المائدة وتقول: «والآن يا فيبل، ثمة شيء أريد أن أريكِ إياه».

السابع عشر



فُتحت أبواب منزل آل آزمث، فتدفق ضوء النهار الساطع إلى الداخل، ووقفت هولاند عند أعلى عتبة في الدرج كأنها طيف سماوي متلألئ ذو شعر فضي طويل منسدل على عباءة مطرزة ذهبية اللون تتطاير حاشيتها من خلفها وهي تشق طريقها نحو الشارع.

أحجم ويست ولازم موقفه عند العتبة العليا مسلطًا عينيه عليها. كان معطفه مفكوك الأزرار وياقة قميصه الأبيض مفتوحة والرياح تعبث بشعره المتطاير بعد أن كان ممشطًا ليلة أمس.

قال بصوت خفيض: «لا يروقني هذا».

فتمتم كلوف من ورائي: «ولا أنا».

انطلقت عينا ويست بحركة سريعة صوب الميناء الرابض بعيدًا، حتى غدا تبيُّن أشكال السفن الراسية هنالك من هذه المسافة متعذرًا. سينتاب طاقم ماريجولد القلق الآن، وما دام مدير الميناء طوع بنان هولاند فإنه سيراقبهم من كثب. كل ما أرجوه ألا يحركوا ساكنًا وأن يلازموا الانتظار كما أمرهم ويست.

نقلت هولاند بصرها بيننا نحن الثلاثة، ولاحت في عينيها نظرة بثت الاضطراب في نفسي. لسنا في منطقة المضايق، ولكن القواعد ذاتها تنطبق هنا، كلما قلت درايتها بطبيعة العلاقة بيني وبين ويست وكلوف كان ذلك أفضل.

تبعناها نزولًا على الدرج إلى الشارع. بدت المدينة كلها منخرطة في العمل، ولم أفوّت طبيعة نظرات الناس مع مرور هولاند، وكذلك كان ويست منتبهًا؛ إذ راح يراقب محيطنا

وهو ينظر إلى النوافذ والأزقة أثناء سيرنا، وكان صمته يزيد من توتري مع كل دقيقة.

لم يخبرني كلوف بتفاصيل المهمات التي فعلها ويست لصالح أبي، لكنه قال ما يكفي ليثير قلقي بشأن مدى ما يستطيع ويست فعله. وتساءلتُ ما الذي سيكون على استعداد لفعله إذا رأى أن هولاند تمثل خطرًا يهدده، وما ستكون كلفة ذلك.

منذ أقل من يوم كنت أخشى أنني ربما لن أراه مرة أخرى أبدًا. وعاودني شعور جعل قلبي يغوص في أحشائي. واقتربت من ويست، وانجرفت يده نحو يدي، لكنه لم يمسك بها، وكانت قبضته مضمومة في تأهب، حتى خُيّل لي أنه في أية لحظة سيُمسك بي وينطلق صوب الميناء.

ثمة جزء مني تمنى لو يفعل ذلك. ولكنّ ثمة تحوّلًا في موازين السلطة يجري في منطقة المضايق، لقد قضى زولا نحبه، وهولاند تترصد سينت. وهذا الوضع الجديد لا يبشر بخير للسفينة ماريجولد، وإذا أردنا أن نكون متقدمين خطوة في هذا الوضع فعلينا جمع المعلومات والتجهز لما سوف يحدث.

اصطكت النقود في صندوق كلوف وهو يسير بجواري. لم يقبل عرض هولاند بترك النقود في مكتبها، وها هو ذا الآن يجذب انتباه كل من في الشارع أثناء سيرنا باتجاه أبعد رصيف بحري في الجهة الجنوبية من باستيان. كان شعار هولاند مرسومًا على طوب الجدران، لم يسبق لي قط أن رأيت مثل هذا المكان في منطقة المضايق، وبدا كأنه ميناء صغير أكثر منه رصيف شحن بسيطًا.

فتح الحراس الأبواب لنا، ولم تتباطأ هولاند وهي تدلف وتسير في الممر الأوسط الذي تراصت فيه أكشاك، وكان كل عامل يرتدي مئزرًا جلديًّا مطبوعًا عليه شعار هولاند.

لم يشبهوا العمال في سيروس؛ إذ كانوا يرتدون قمصانًا بيضاء نظيفة وشعرهم ممشط أو مضفر وبدا أنهم قد اغتسلوا قريبًا. أحبت هولاند مكان عملها كما أحبت منزلها، فجعلتهما

على المستوى ذاته من الترتيب والنظام. وتحاشى العمال النظر إلى هولاند أثناء مرورها، ما دل على خوفهم منها.

كانت نظراتي تحوم حول الموجودين في الأكشاك أثناء مرورنا، بدا بعضهم كأنهم تجار أحجار كريمة يعملون على تنظيف الأحجار أو تكسير الطبقة الصخرية الخارجية على الياقوت الأحمر الخام أو صقل قطع صغيرة من الياقوت الأزرق. وتباطأت خطواتي عندما وقعت عيني على رجل يعمل على ألماسة صفراء، حيث عمل بحركات سريعة متقنة من ذاكرته العضلية أكثر من تركيزه البصري. وحالما انتهى، نحّاها جانبًا وعمل على ألماسة أخرى.

ترامى صوت هولاند من ورائي وهي تقول: «هذا كل ما شيدته على مدار الأربعين عامًا الماضية. كل شيء تركته إيزولد وغادرت».

كان السؤال لماذا تركت إيزولد كل هذا، وهو السؤال ذاته الذي سألته لنفسي منذ لحظة رسو السفينة لونا في الميناء هنا.

باستيان مدينة جميلة، وإذا كانت فيها أحياء فقيرة فأنا لم أرَ أيًّا منها بعد. ومن المعروف أن ثمة وفرة في فرص العمل هنا، حتى إن العديد من العمال المهرة في منطقة المضايق كانوا يهاجرون إلى هنا بحثًا عن التدريب المهني وفرص العمل. فما الذي حثّ إيزولد على مغادرة منطقة البحر المجهول؟

نظرتُ إلى ويست الذي كان واقفًا في وسط الممر وعيناه تحومان حول الرصيف الضخم.

قال فجأة: «ينبغي ألا نكون هنا»، وأزاح شعره عن وجهه في حركة مألوفة وشت بأنه متوتر. لم يكن الأمر بشأن هولاند فقط، بل ثمة شيء آخر كان يزعجه.

وأفضى الممر إلى ردهة طويلة، ولم تنتظرنا هولاند ونحن نسير بخطوات متسارعة باتجاه ثلاثة رجال واقفين قبالة مدخل مكسو بنسيج مخمل ثخين. خلعت هولاند القفاز من يديها

وفكت أزرار العباءة أثناء دخولها. وعندما ارتمى كلوف على الكرسي الجلدي بجوار الباب حدجته هولاند.

أضيئت الغرفة المظلمة عندما أشعل أحد الرجال عود ثقاب طويلًا وأضاء الشموع المتراصة على طول الجدران. بدا المكان وكأنه نسخة أفخم من مقر سينت في وادي الضنك. وعُلقت الخرائط على الجدران، حيث كانت الخطوط الحمراء تُعلّم حواف اليابسة، وقاومتُ رغبة تحثني على مد يدي وتتبع تلك الخطوط بأصابعي. كانت تلك خرائط غوص.

قالت هولاند وهي تراقبني أثناء تفحُّصي الخرائط: «أنتِ جرّافة. مثلما كانت أمك».

أجبتها: «بلى».

فضحكت نصف ضحكة وهي تهز رأسها وتقول بصوت خفيض: «لم يكن ذاك الشيء الوحيد الذي استعصى عليّ فهمه بشأن تلك الفتاة. كانت دائمًا مضطربة، لا أعتقد أن ثمة أي شيء في هذا العالم كان بوسعه تسكين ذلك البحر المتلاطم بين جنباتها».

بيد أنني لم أر هذا صحيحًا. كانت إيزولد التي عرفتها هادئة ورزينة. لعل هولاند تقول الحقيقة، لكن كانت تلك النسخة قبل أن تلتقي إيزولد بسينت، وقبل أن تلدني.

قرأت كعوب الكتب المتراصة على الأرفف حتى هبطت عيناي على صندوق زجاجي خلف المكتب، كان خاويًا، ولم يحوِ سوى وسادة حريرية صغيرة أمامها لافتة تعريفية صغيرة منقوش عليها كلام تعذر عليّ استبانته.

بدت هولاند مسرورة باهتمامي، وقالت وهي تنظر إلى حيث أنظر من الصندوق: «قلب الليل». ووضعت إحدى يديها فوق الصندوق ونقرت بالخاتم على الزجاج.

حنيت رأسي جانبًا وأنا أرمقها. لم يكن حجر قلب الليل موجودًا إلا في أسطورة تُروى، ولو كانت تملكه لاستعرضته في الحفل.

وابتسمتْ ابتسامة ذات مغزى وهي تسأل: «ألم تنبئكِ بهذا أيضًا؟».

فسألتها: «تنبئني بماذا؟».

فقالت: «الليلة التي اختفت فيها إيزولد اختفى فيها حجر قلب الليل الذي كان في هذا الصندوق».

عقدت ذراعيّ وقلت بتجهم: «لم تكن أمي لصة».

فقالت: «لم أتهمها بذلك مطلقًا»، ثم جلست على الكرسي الوثير واستقرت يداها على ذراعيه، وسألتني: «هل سبق أن رأيتِه؟ حجر قلب الليل؟».

كانت تعرف إجابة سؤالها. لم يسبق أن رآه أحد. والمعلومات القليلة التي أعرفها عن الحجر مستقاة مما سمعته من البحارة والتجار الذين يؤمنون بالخرافات.

أردفت: «إنه حجر فريد. سواده حالك مع أطياف بنفسجية. اكتُشف أثناء رحلة غوص عند كوكبة يوري».

عرفت اسم ذاك المكان من خلال خرائط منطقة البحر المجهول، كانت كوكبة يوري عبارة عن تكتل من الشعاب المرجانية.

تابعتْ: «إيزولد هي مَن عثرت عليه».

عندئذ هوت يداي على جانبيّ بعدما كانتا معقودتين على صدري، وبجواري ألقى ويست نظرة ممحصة على وجهي باحثًا عن أي دليل يُثبت صدق ما قيل.

قلت: «هذا كذب. كانت لتخبرني بذلك»، وانطلقت عيناي صوب كلوف الذي حرص على ألا تعبر ملامحه عن شيء، وفي النهاية حين نظر إلى عينيّ، حنى رأسه جانبًا فقط.

ما قالته كان حقًّا.

ألحت هولاند قائلة: «أأنت متأكدة من هذا الشأن؟ جميع التجار المرموقين وجميع أعضاء مجلس التجارة حضروا حفل إزاحة الستار عن الحجر في بيت آل آزمث، وكل واحد منهم سيخبرك بأن الحجر ليس أسطورة»، ثم رفعت ذقنها وواصلت: «كان سيغير كل شيء. كان سيحدث ثورة في موازين عالم التجارة. لكن بعد أيام قلائل رحلت إيزولد، ورحل معها الحجر».

حدجتها وأنا غير متيقنة بشأن ما سأقوله. كان ثمة اتهام ضمني في نبرتها، ارتياب ما.

أجبتها: «لست أدري شيئًا عن حجر قلب الليل».

زمت هولاند شفتيها مهمهمة: «هممم».

لا أستطيع الجزم بشأن ما إذا كانت ستصدقني أم لا، لكنني لم أكن أكذب. لم أسمع أمي تذكره مطلقًا، ولا مرة واحدة.

ترامت طرقة من الباب كسرت الصمت الذي جثم بيننا وخففت الجو المشحون بالتوتر، وقالت هولاند: «ادخل».

فُتح الباب، وعلى الجانب الآخر وقف شاب لم يكن يكبرني كثيرًا، وتحت ذراعه انطوت لفافة بشريط جلدي.

قالت هولاند باستهانة: «لقد تأخرت. هل رآك أحد؟».

أجابها: «لا»، استقرت نظراته الجامدة عليها أثناء دخوله. لم أرَ أي شخص ينظر هذه النظرات المباشرة في عينيّ هولاند، بيد أنه فعل ذلك، دون تحفظ.

توقف حيال مكتبها منتظرًا واللفافة في يديه المليئتين بالندوب. كانت ندوب شخص يعمل صائغ فضة، ندوبًا ترسم خطوطًا على مفاصل أصابعه وتلتف حول راحتيه. وتتبعت الندوب بناظريّ وهي تتسلق إلى ذراعيه إلى أن توارت تحت كميه المطويين.

وهناك، أسفل مرفقه مباشرة، برز وشم أسود في جلد ساعده. ذاك الشكل الملتوي الذي يُصور ثعبانين متعانقين يأكل كل منهما ذيل الآخر.

خطوت خطوة للأمام وأنا أتفحص الشكل. كان الوشم ذاته المرسوم على جسد أوستر، وفي المكان ذاته بالضبط.

ونظر ويست إلى الرجل بهدوء. لقد لاحظ هو الآخر ما لاحظته.

لم أسأل أوستر قط عن الوشم، إذ كانت الوشوم شائعة بين التجار، ولكن بما أنه من باستيان فلا يمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفة.

تمتمت هولاند: «أرني».

فأومأ برأسه نحوي أنا وويست قائلًا: «لا أعرفهما».

فقالت هولاند ببرود: «صحيح. أنت لا تعرفهما. والآن أرني».

تردد قبل أن يفك الشريط الجلدي حول اللفافة ويفتح الورقة بعناية على المكتب، فأظهرت الورقة رسمًا بالحبر الأسود بدا للوهلة الأولى كأنه رسم مبدئي لسفينة، بيد أنها لم تكن سفينة، اقتربت خطوة وأنا أتطلع إلى الورقة.

كان ذلك رسمًا لإبريق شاي.

انحنت هولاند إلى الأمام وهي تلقي نظرة ممحصة على الرسم، وقالت: «أأنت متأكد من أنك قادر على إنجاز هذا؟»، وتحرك إصبعها فوق الأبعاد المدونة.

لكن ما من أحد كان قادرًا على إنجاز هذا. لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا. وكان الإبريق داخل صندوق فضي مرسوم عليه أشكال هندسية دقيقة، وقد رُصّع التصميم بعدة أحجار كريمة متعددة الأوجه، وأُدرجت أسماء تلك الأحجار على الهامش: العنبر، الفلوريت، اليشم، العقيق، التوباز. بدا كأن الصندوق سيدور فيهيئ عددًا وافرًا من الألوان.

قال الشاب: «إن كنت تعتقدين أنني غير قادر على إنجاز ذلك فاستعيني بأحد من الفنيين المتدربين عندك لإنجازه».

راقتني الطريقة التي كان ينظر بها إليها، كانت نظرته ثابتة لا تتزعزع. وكذلك راق كلوف ما يرى؛ إذ اختلجت شفتاه بابتسامة ساخرة وهو يشاهد الشاب.

انخفض صوتها وهي تقول: «لو كان لديّ أحد يتمتع بالمهارة الكافية لإنجاز ذلك ما كنت لأوكل لك تلك المهمة يا عِزرا. يقول هنريك إن بوسعك إنجازها. إذا كان مخطئًا فسوف يدفع لي ثمن الخطأ».

طوى عزرا اللفافة وعقد الشريط الجلدي، وقال: «انتهينا؟».

انجرف بصري إلى الوشم مرة أخرى، وحين رفعت عينيّ كان عزرا يرمقني وعيناه تهبطان إلى الندبة.

نقرت هولاند بإصبعها على المكتب نقرات متتابعة وقالت: «لديك عشرة أيام. أحتاجه بين يدي قبل اجتماع مجلس التجارة في ساجساي هولم».

تصلبت أعصابي وأنا أستحضر ما قالته هذا الصباح.

كان هذا أيضًا الموعد النهائي الذي حددته لإنهاء أمر سينت.

أجابها عزرا بإيماءة. ونظر في عينيّ مرة أخرى قبل أن يستدير على عقبيه ويمرق من الباب ويتوارى في الردهة.

تساءلت وأنا أراقب الباب ينغلق: «ما هذا؟».

فأعادت يديها إلى المكتب وقالت: «هدية. لمجلسي التجارة في منطقة المضايق ومنطقة البحر المجهول».

لا بد أن طاقم الشاي بإبريقه وفناجينه هذا يساوي ثروة طائلة. ما دامت تلك هدية فهذا يعني أنها كانت تتحضر لتقديم طلب إلى مجلسي التجارة، طلب جدير ببذل شيء نفيس في سبيل إقناعهم به. بيد أنني ما زلت عاجزة عن اكتشاف ماهيته. لقد تعاملتُ مع زولا، ولم يتبق سوى أن تتعامل مع سينت في سيروس. لكنها لا تتاجر هناك، لم أرَ قط سفينة تحمل شعارها في أي ميناء من موانئ منطقة المضايق. وبعد أن شاهدتُ مدى ضخامة تجارتها فإنني لا أفهم كيف أن مسارها التجاري لا يسير في منطقة المضايق. كانت شهرتها ذائعة خارج منطقة البحر المجهول، عن قوتها وثروتها الأسطورية، فلماذا إذن لم تتاجر في سيروس؟

وقد كان التفسير الوحيد هو أن هولاند - لسبب أو لآخر - لم تستطع الإبحار في منطقة المضايق.

قلت وأنا أربط الخيوط ببعضها: «ليس لديك ترخيص للتجارة في منطقة المضايق، أليس كذلك؟».

بدت منبهرة، وقالت: «يعتقد مجلس التجارة في منطقة المضايق أنه إذا سمح لي بشق مسار تجاري إلى سيروس فسوف يقضي ذلك على التجار من أبناء منطقة المضايق».

وهذا أمر حقيقي.

تابعت: «لقد شيدتُ هذه الإمبراطورية بيديّ يا فيبل. لقد بدأتُ من الصفر، والآن قد حققت أعلى مستويات الازدهار والقوة لتجارة الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول، مستويات لم يشهدها أحد من قبل على الإطلاق».

استطعت أن أرى في عينيها أن هذا ما أرادتني أن أشهده: النجاح، والقوة.

وأردفت: «ثمة مشكلة واحدة فقط. هذه الإمبراطورية لا وريث لها».

جمُد ويست بجواري، وقد اجتاحه التوتر في أجواء هذا الصمت المطبق. وكلوف أيضًا ألقى ناظريه عليّ. لكن بصري كان مصوبًا ناحية هولاند، وقد ضاقت عيناي، وانفرجت شفتاي وأنا أحاول استبانة الكلمات التي سأنطقها: «إنك حتى لا تعرفينني».

فابتسمت ابتسامة توافقني بها وقالت: «أريد تغيير ذلك».

قلت: «لستُ بحاجة إلى إمبراطورية. لديّ حياة وطاقم في منطقة المضايق»، ووخزتني الكلمات وأنا أنطقها، لقد كنت متحرقة شوقًا للعودة إلى ماريجولد، وتأثرت لدرجة أنني استشعرت الدموع وهي تتهددني بالفوران.

فقالت: «العرض ليس لكِ وحدك»، ثم نظرت إلى ويست وقالت: «أود أن تفكر في الانضمام إلى أسطولي».

لم تكد هولاند تغلق فمها حتى سارع ويست بنطق إجابته: «لا».

فسألته: «ألن تسمعني حتى؟».

أجابها دون أن يرف له جفن: «كلا. لن أفعل».

عندئذ زايلتها أمارات التسلي، وبدت غاضبة. أما أنا فاقتربت خطوة بعفوية تجاه ويست، وقد لاحظَت ذلك وجعلت تردد بصرها بيننا. لقد كشفتُ عن الكثير جدًّا بهذه الحركة.

ثم قالت: «أود منكما أن تقضيا المساء في التفكير في عرضي. وإن أصررتما على رفضكما فبوسعكما المغادرة مع شروق الشمس».

عضضت خدي من الداخل وأنا أراقب التماعة الضوء الحادة في عينها. في ليلة واحدة فقط عرفتُ أمورًا عن أمي أكثر مما عرفته عنها في حياتي كلها. لم يكن سينت الوحيد الذي يخفي أسرارًا، ولم أتمالك إلا أن أستشعر خنجر غدر يشق صدري.

إذا كانت هولاند تقول الحقيقة بشأن إيزولد، فهذا يعني أنها كانت لصة، وكاذبة. لم تخبرني قط عن جدتي الموجودة في منطقة البحر المجهول أو عن الحجر الأهم الذي اكتشفته. لكنّ ثمة أمورًا عن أمي كنت أعرف أنها حقيقية، أمورًا أثق في أصالتها. ما دامت قد سعت لتدمير فرصة هولاند الوحيدة التي تمكنها من الدخول إلى منطقة المضايق، فبالتأكيد كان ثمة أسباب معتبرة حثتها على ذلك.

وما كان يحدث هنا أكثر مما كانت تريه لنا هولاند. إن التخلص من زولا وسينت لم يكن محض انتقام، بل كانت خطة وتدبيرًا؛ إذ إنهما أقوى تاجرين، وكلاهما يرتكز في سيروس. لقد كانت تُنظف الساحة قبل أن تأخذ خطوتها مع مجلس التجارة.

لم يكن سينت هو الوحيد الذي يخطط خططًا طويلة الأمد.

الثامن عشر



قادنا الرجل التابع لهولاند صعودًا إلى أعلى الدرج، وركضت يدي على طول الدرابزين أثناء صعودي وأنا رافعة بصري تجاه النافذة الزجاجية المثبتة في السقف من فوقنا، وقد تساقط الضوء على الغبار الذي يعتلى الزجاج فالتمع كالتماع أوجه الأحجار الكريمة.

جفلت عندما تناهي إلى أذني صوت ويست ينادي: «فيبل»، كان واقفًا في نهاية الردهة رفقة كلوف، وقد احتدت تقاسيم وجهه في قلق.

انطلقت نحوهما، وانتظرني ويست أن أدلف داخل الغرفة قبل أن يُغلق الباب من خلفنا تاركًا كلوف بالخارج.

مسحت عيناي الطاولة بحثًا عن عود ثقاب، وأشعلت الشموع. ومن خلال النافذة تراءى مشهد غروب الشمس في الأفق. حين تُشرق غدًا سوف نكون في طريقنا إلى الميناء.

قال ويست بهدوء: «هل ستقبلين عرضها؟».

غاص قلبي بين قدميّ وأنا أرفع عيني تجاهه وما زال عود الثقاب في يدي يتصاعد منه لسان الدخان. كان ويست مسدلًا ستارًا على ما تختلج به نفسه، وقد بدت عليه الصلابة. سألته: «ماذا؟».

كرر سؤاله: «هل ستقبلين بعرض هولاند؟».

فاستدرت كي أواجهه وقلت: «هل تسألني هذا السؤال حقًّا؟».

لكنه لم ينظر إلي عينيّ، وهبط بصره إلى الأرضية الفاصلة بيننا، وقال: «نعم».

أمسكت بمرفقه وانتظرت أن ينظر في عينيّ، وقلت: «لقد أخبرتها بأنني أرفض عرضها».

فارتسمت على وجهه نظرة ارتياح بالغة، ارتياح علمت أنه أكثر مما أراد أن يبديه. لكن بدا أنه لم يقتنع.

تنهد قائلًا: «لا يمكن أن تثقي بها يا فيبل. لكن هذا لا يعني أنه يجب عليكِ رفض عرضها».

قلت: «يبدو أنك تريديني أن أقبله»، وارتميت على الكرسي المجاور للنافذة، وسألته بلطف: «ما الخطب؟».

لم تفصح تعابيره عن شيء، ولازم الصمت مليًّا قبل أن يجيب أخيرًا: «يجب أن نناقش الأمر».

لكنني لم أكن متأكدة من أنني مستعدة لما قد يقوله، فقلت: «لسنا مضطرين لذلك».

فقال: «بل علينا ذلك».

قلت: «ويست...»

فقال: «يجب أن نناقش الأمر قبل أن تحسمي قرارك».

قلت: «أخبرتك. لقد حسمته بالفعل».

فقال: «لعلك تغيرين رأيك حين تسمعين ما يتعين عليّ قوله».

تسارعت خفقات قلبي وتلاطمت أفكاري في سباق محموم. لم أكن متأكدة من الباعث على خشيتي المفاجئة منه. منذ اللحظة التي أخبرني فيها سينت بأن ويست ليس الشخص الذي أظنه وأنا أحبس أنفاسي في انتظار اللحظة التي ستتكشف فيها الخبايا وستكون لحظة حاسمة في علاقتنا، لعلها هذه اللحظة.

وتابع: «إن عملي تحت إمرة سينت ينضوي على أكثر مما أخبرتكِ به. أنا متأكد من أنك اكتشفت ذلك»، ودس يديه في جيبيه وزم شفتيه قبل أن يكمل: «كنت أبحر على سفينة بصفتي صبيًّا من متشردي حي الساحل، وكان قبطانها هو القبطان الذي أخبرتك عنه سابقًا، لم يكن رجلًا صالحًا».

ما زلت أذكر كيف بدا وجه ويست حين أخبرني بأن القبطان قد ضربه ضربًا مبرحًا.

واستطرد: «كان مسارنا يجعلنا نرسو في سيروس لمدة يومين كل ثلاثة أسابيع، وفي إحدى الليالي عندما رسونا، ذهبت إلى حي الساحل لرؤية ويلا. وعندما وصلت إلى هناك علمت أن ثمة خطبًا ما، بيد أنها لم تخبرني بأي شيء، واضطررت أن أسأل في الأرجاء قبل أن أكتشف أن ثمة شخصًا يعمل في حانة ويأتي أثناء غيابي ليستلب منها ومن أمي أشياء. كان يأتي في كل مرة أغادر الميناء. كان يعلم أنه ما من أحد يردعه، ولم تخبرني ويلا؛ لأنها كانت تخشى ما سأفعله».

لقد رأيت تلك النظرة على وجه ويلا من قبل؛ نظرة الخوف من أن يباشر ويست الأمور بنفسه. هذا ما كانت تحاول تحاشيه عندما باعت خنجرها في ديرن، كانت تحاول ألا يتدخل ويست في الأمر.

واصل حديثه: «كنا على مشارف الصباح عندما وصلت إلى الحانة، وحين عثرت على الرجل وجدته ثملًا. لو لم يكن ثملًا لا أظن أنني كنت سأتمكن من...»، وسكت هنيهة وعيناه تجوبان الأرضية كأنه يشاهد الذكرى، ثم تابع: «كان جالسًا على طاولة بمفرده. لم أفكر حتى في الأمر ، لم أكن خائفًا، تقدمت نحوه فقط وطوّقت عنقه بيديّ واشتملني سكون وهدوء. كان الأمر ... هينًا للغاية. سقط من كرسيه وجعل يركل ويحاول نفض يدي، بيد أنني ظللت أعصر عنقه حتى بعد أن سكنت حركته».

لم أكن أعرف ماذا أقول. حاولت أن أتخيله، ربما في الرابعة عشرة من عمره، يخنق رجلًا بالغًا وسط حانة خالية. شعره الفاتح متساقط على وجهه، وجلده الذهبي يتألق في وهج

نيران الموقد.

وأكمل: «لست أدري كم طال بي الوقت حتى أدركت أنه مات. وبعد أن رفعت يديّ عن عنقه جلست هناك فقط أحدق إليه. ولم أشعر بأي شيء. لم أشعر بالسوء حيال ما فعلته»، وازدرد ريقه ثم تابع: «وعندما رفعت بصري أخيرًا وجدت شخصًا واحدًا في الحانة يجلس عند منضدة الساقي، لم ألاحظه حتى تلك الآونة، وكان يراقبني»، والتقت عينا ويست بعينيّ قبل أن يقول: «كان ذلك سينت».

تسنى لي تخيله جالسًا هناك في الحانة مرتديًا معطفه الأزرق وفي يده زجاجة خضراء وذهنه منخرط في التفكير والتحليل.

أردف ويست: «كنت أعرف مَن هو. تعرفت عليه. في البداية لم ينبس بشيء، واستمر في تجرع الجاودار، وعندما انتهى عرض عليّ الانضمام إلى طاقمه، على الفور من دون تأخير. وبالطبع قبلت العرض. اعتقدت أن أي عرض سيكون أفضل من بقائي مع القبطان الذي كنت أعمل تحت إمرته. وقد كان سينت أفضل بالفعل، كان يعاملني بإنصاف. ولذا لم أتوانَ عندما بدأ يطلب مني تقديم خدمات له».

همستُ: «أي نوع من الخدمات؟».

فأطلق زفرة عميقة وقال: «كنا نتنقل بين الموانئ، وأحيانًا كانت توجد مهمات يجب إنجازها، وأحيانًا لم توجد؛ مثل تنفيذ عقوبات على مَن لا يسددون الديون، وإيذاء الأشخاص الذين لن يردعهم الترهيب، وتدمير تجارة أو تخريب مخزون. فعلتُ كل ما طُلب مني».

سألته: «وما حدث في سوان؟».

التمعت عيناه، لم يود الخوض في حديث عن سوان، وقال: «كانت تلك حادثة غير مقصودة».

عاودت سؤاله: «لكن ماذا حدث؟».

انخفض صوته فجأة وهو يحكي كأنما يحادث نفسه: «أمرني سينت بأن أتولى أمر تاجر هناك يعمل ضده. فأشعلتُ النيران في مستودعه حين رسونا في سوان. لم يعرف الطاقم عن الأمر»، لكن هذا الجزء من القصة كان قد رواه لي بالفعل، وتابع: «بعد أن غادرنا سوان ورسونا في ديرن اكتشفت أن شخصًا ما كان في المستودع عندما أشعلتُ الحريق».

كنت موجودة عندما أخبره التاجر. لقد رأيت نظرة الارتباك التي تبادلها باج والآخرون، ولكن لا بد أن جزءًا من أنفسهم يعرف طبيعة المهمات التي أوكلها سينت لويست، إنهم على درجة من الذكاء تجعلهم لا يفوتون ذلك.

دارت في ذهني مليون خاطرة في تسارع محموم، ولم أتمكن من التركيز على أي منها. كان سينت محقًّا في أنني لم أكن أعرف ويست، وكذلك كان زولا محقًّا في هذا الشأن. لم أرَ سوى الجوانب التي اختار أن يريني إياها من نفسه.

قلت: «لقد اقترفنا جميعًا فظائع من أجل النجاة».

فقال: «ليس هذا ما أحاول إخبارك به»، وتغيرت الأجواء من حوله وهو يتحدث، وواصل: «يا فيبل، أريدك أن تفهمي شيئًا. لقد فعلت ما اضطررت إلى فعله، لم يرقني الأمر، لكن كان لديَّ أخت وأم تحتاجان إلى النقود التي أتقاضاها، وكان لديّ مكان في طاقم يعاملني جيدًا وأردت الحفاظ عليه. أعلم أن هذا ليس صوابًا، لكن لو عاد بي الزمن إلى الوراء فأعتقد أنني سوف أفعل كل ما فعلته مرة أخرى»، قالها بجدية بالغة، وأردف: «لست أدري ما الوصف الذي أستحقه بمقتضى هذا الكلام، ولكنها الحقيقة».

بدا أن هذه الكلمات كانت أشد الكلمات وطأة عليه؛ لأنه كان ينطق بالحقيقة، ولم يكن يلقي باللائمة على أي أحد. هذا هو ويست حقًّا، ولم يكن يكذب بشأن حقيقته.

قلت: «لهذا لا يريد سينت أن يخسرك. لهذا أعطاك سفينة ظل»، وفركت وجهي بيديّ وقد غزاني إرهاق مباغت، ثم سألته: «ولكن لماذا لم تنبئني؟ أحسبت أنني لن أعرف؟».

أجاب: «علمت أنه سيتعين عليّ إخبارك بشأن عملي مع سينت. كل ما في الأمر أنني أردت أن...»، وسكت هنيهة قبل أن يتابع: «خشيت أن تغيري رأيك، عني، عن ماريجولد».

أردت أن أقول إنني ما كنت لأفعل ذلك، وإن هذا لم يكن ليحدث فارقًا، بيد أنني لم أكن متيقنة من صحة هذا الزعم. إن التعاون مع أبي ليس مثل التعاون مع ويست، فأنا أعرفه، ولا يخفى عليّ طبيعة شخصيته أو ما أراده. بيد أن ويست كان مختلفًا.

قلت: «سيتعين علينا استكشاف كيفية ترسيخ ثقة متبادلة بيننا».

فقال: «أعرف».

علمت أن ويست ربطته علاقة وثيقة بأبي، لكن ما عرفته الآن أمر له أبعاد مختلفة. كان ويست هو سبب خشية الناس من سينت، كان بمثابة ظل سينت الملقى على كل شيء من حوله. لم يكن تأثير الغنيمة التي استخرجناها من السفينة لارك منحصرًا في شراء حرية ويست فقط، بل في شراء روحه أيضًا.

سألته: «لو لم تعرف بشأن السفينة لارك... لو لم تكن بحاجة إليها لإنقاذ ماريجولد، فهل كنت ستضمني إلى الطاقم؟».

أجاب بلا ذرة تردد: «كلا».

فغاص قلبي وترقرقت الدموع في عينيّ.

وتابع: «لا أعتقد أنني كنت سأضمك. كنت أريدك أن تبتعدي عني قدر الإمكان. في الواقع لا يزال جزء مني يتمنى لو أننا لم نضمك».

قلت باستياء: «كيف تقول ذلك؟».

أجاب: «لأننا قد لعنَّا أنفسنا يا فيبل، أنا وأنت. سوف يكون لدينا دائمًا ما نخشى خسارته. عرفتُ هذا في ذاك اليوم حين قبّلتك في بحر شرك العواصف. عرفتُ هذا في ديرن حين أخبرتك بأنني أحببتك».

سألته: «فلماذا أقدمت على ذلك إذن؟».

لاذ بالصمت مليًّا حتى شككت في أنه لن يجيب. وعندما نطق أخيرًا بدا صوته واهنًا: «أول مرة رأيتك فيها كنت تقفين على الرصيف عند جزر الحاجز حين رسونا هناك لأول مرة، وكنت أجول ببصري بحثًا عنك. قال سينت إنها فتاة ذات شعر بني داكن ضارب للحمرة، وبوجهها نمش، وعلى باطن ذراعها اليسرى ندبة. كان ذلك قبل يومين من وقوع عينيَّ عليكِ».

تذكرت ذلك اليوم أيضًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي أتاجر فيها مع ويست. كانت أول مرة أرى فيها ماريجولد عند جزر الحاجز.

تابع: «كنتِ تتاجرين مع أحد التجار، وتساومين على سعر أفضل مقابل أحجار البايار التي تبيعينها. وعندما نادى عليه أحدهم من فوق ظهر سفينته ونظر لأعلى اختلستِ برتقالة من أحد صناديقه. وكأن الباعث الوحيد على وقوفك هناك هو انتظار اللحظة التي يغفل فيها عنكِ. ودسستِ البرتقالة في حقيبتك، وحين التفت إليك مرة أخرى انخرطتِ معه مباشرة في المساومة مرة أخرى».

قلت: «لا أتذكر ذلك».

فقال وقد ارتسم طيف ابتسامة على شفتيه: «أنا أتذكر»، وأردف: «ومنذ ذلك اليوم، في كل مرة رسونا فيها في جيفال كان هذا الألم يجيش في صدري»، ورفع يده ودسها في سترته المفتوحة كأنما هذا الألم يجيش في صدره الآن، وأكمل: «كأنه ألم اختناق جراء حبس

أنفاسي وأنا أخشى ألا أجدك على الأرصفة، أخشى أنك قد رحلتِ. وعندما استيقظت في ديرن ولم تكوني هناك عاودني هذا الألم. لم أتمكن من العثور عليك»، وتذبذب صوته وتبعثرت الكلمات، وبدا مثقلًا للغاية ومنهكًا جدًّا.

قلت: «لقد وجدتني. وأنا لا أقبل عرض هولاند».

سألني: «أأنت متأكدة؟».

أجبته: «نعم».

لحظتئذ استرخى وتخفف، وعادت إلى عينيه نظرة مألوفة. دوى صفير الريح خارج النافذة، وارتخت عضلات كتفيه المشدودة أخيرًا.

سألته وقد خطر أبي في بالي: «ولكن ماذا سنفعل مع سينت؟».

فتساءل: «ماذا تقصدين؟».

قلت: «هولاند تترصده يا ويست. إنها مسألة وقت فقط قبل أن تكتشف أن كلوف لن يسلمها سينت. وسوف تجد طريقة أخرى».

فهز ويست كتفيه وقال: «لقد قطعنا روابطنا به. فليعتن سينت بنفسه».

قطبتُ جبيني وأنا أحاول فهم مغزى كلامه.

وواصل: «لا يمكننا الانخراط في هذا يا فيبل. لقد تَركنا لنتعامل مع زولا وحدنا حين تقطعت بنا السبل في البحر. والآن فليتعامل هو مع هولاند. أنت لا تدينين له بأي شيء».

قلت: «الأمر لا يتعلق بدين. إنه متعلق بمستقبل منطقة المضايق»، وقد كان هذا صحيحًا في المجمل.

تنهد وهو يخلل شعره المموج بيده، وقال: «وهذا سبب ضرورة عودتنا إلى سيروس».

لم أرَ الأمر بهذه البساطة من منظوري. إذا حصلت هولاند على ترخيص للتجارة في منطقة المضايق فلا يهم مقدار الثروة التي ستراكمها ماريجولد؛ إذ إن هولاند ستقضي على جميع التجار في غضون سنوات.

والنقطة الأخطر تتمثل في حقيقة أن فكرة حدوث شيء ما لسينت أشعرتني بالذعر، والارتعاب. لم يرقني أنني مخلصة له في حين أنه لم يكن مخلصًا لي، لكن الأمر يتجاوز فكرة الثأر منه لرفضه ضمي إلى طاقمي رغم توسلي، أو الثأر من تخليه عني في سيروس. إذا تمكنت هولاند من سينت فسوف أفقده إلى الأبد، ومهما يكن ما فعله أو الأسباب التي دفعته لذلك، لم أستطع السماح بحدوث ذلك.

تعذر على ويست رؤية الأمر من هذا المنظور، وما كان ليستطيع ذلك أبدًا.

قال: «غدًا، سوف نغادر باستيان ونعود إلى الوطن».

أومأتُ برأسي، ومددت يدي لأمسك بيده.

رنا إليّ وعيناه تهبطان إلى فمي، بيد أنه لم يبد حراكًا.

وهمست: «هل ستُقبلني؟».

فقال: «لم أكن متأكدًا مما إذا كنت لا تزالين تودين أن أُقبلك».

نهضت وشببت على أصابع قدمي. أما هو فأدنى وجهه حتى ألصق جبهته بجبهتي قبل أن تعانق شفتاه شفتيّ، وزفرتُ النفس الخانق الذي كنت أحبسه منذ أن استيقظت على متن لونا. ساورتني رغبة في البكاء، وتلاشى الألم الذي كان يحتل صدري وحل محلله ارتياح كبير، ذلك أنني عايشت هذا المشهد مرارًا وتكرارًا في أحلامي منذ أن غادرتُ منطقة

المضايق، لكن هذه المرة لن أستيقظ من الحلم، فقد كان ويست لحمًا ودمًا بين ذراعيّ حقًّا، وكنت أستشعر لمسته تدب في كل قطرة من قطرات دمي.

لست أدري ما مضمون الكلام الذي كنت آمل سماعه من ويست، ولا فحوى التبريرات التي كنت أتوقع أن يبرر بها أفعال الماضي. لكن على كل حال لم يبرر ويست شيئًا.

وأكثر من ذلك أنه لم يبد ندمًا.

لست أدري ما الوصف الذي أستحقه بمقتضى هذا الكلام.

استحضرت كلامه في ذهني وأنا أتحسس وجهه، وذراعاه يطوقانني بشدة. لكنني لم أشعر بالخشية منه كما ظننت، بل استشعرت أمانًا. لم أكن أعرف ما إذا كان من الممكن أن أحب شخصًا كحبي لأبي، لكن هذا ما حدث، أحببته حبًّا عميقًا يستجدي حبًّا بالمثل، أحببته حبًّا لا يخلو من رهبة.

ولم أكن أدري ما الوصف الذي أستحقه بمقتضى هذا الكلام.

التاسع عشر



استلقيت مستيقظة وأنا أنصت إلى تردد أنفاس ويست، وقد بدا صوت تردد أنفاسه كصوت الأمواج وهي تتعاقب على شاطئ جيفال في الأيام الدافئة، حيث تعانق الشاطئ قبل أن تنحسر مرة أخرى.

حين كنت على متن الجزيرة، لم أكن أظن أنني سوف أتذكر أيًّا من تلك الأشياء عندما أغادر جيفال - لون المياه الضحلة أو صفحة السماء الممتدة في الأفق أو صوت الماء. كانت تلك السنوات الأربع طافحة بألم فقدان أمي والاشتياق إلى أبي، لدرجة أنها استنزفت الحياة استنزافًا مني. إلى أن ظهر ويست في حياتي، إلى أن ظهرت السفينة ماريجولد عند جزر الحاجز بأجنحتها الغريبة الشبيهة بالأجنحة وهي تتقوس قبالة الريح. استغرقتُ ستة أشهر لأنظر إلى السفينة في كل مرة تغادر وأصدق أنها ستعود مرة أخرى وأن هذه لن تكون المرة الأخيرة. وقد أدركت أنني وثقت بويست بعد فترة طويلة من إيلائه تلك الثقة بالفعل، لكني لم أكن متيقنة ما إذا كان يثق بي.

تسلل وهج من تحت عقب الباب لوهلة قبل أن يتلاشى مرة أخرى. ونظرت خارج النافذة فعرفت من مشهد السماء المظلم أنه لا يزال يفصلنا عن الفجر أكثر من ساعة.

ثم انزلقتُ من بين ذراعي ويست الثقيلتين وجلست على السرير أصيخ السمع. كان المنزل غارقًا في هدوء شامل لم يقطعه سوى الدبيب الهادئ على الدرج المفضي إلى البهو بالأسفل. وأنزلتُ قدميَّ الحافيتين على البساط المخملي ثم نهضت وأنا أمسك بالتنورة حتى لا يصدر عنها حفيف. أما ويست فقد غط في نوم عميق، وقد استرخت عضلات وجهه لأول مرة منذ أن رأيته في الحفلة.

صدر صرير خافت من مقبض الباب وأنا أفتحه، وحين خرجت إلى الردهة وجدت كلوف يصدر غطيطًا أثناء نومه وهو متكئ على الجدار ورجلاه متقاطعان أمامه وصندوق النقود تحت ذراعه.

تراءى لي وهج فانوس يتمايل على طول الجدار، وأطللت فوق الدرابزين فرأيت رأسًا مكسوًّا بشعر فضي يتحرك في الأسفل، كانت تلك هولاند تخطو في رداء حريري وتشق طريقها عبر الردهة.

ألقيت نظرة إلى الوراء صوب الغرفة المظلمة قبل أن أتخطى ساقي كلوف وأتبع الضوء الذي انهمر على الأرضية بالأسفل وأنا أهبط الدرج الحلزوني. وعندما وصلتُ إلى طرف الردهة انطفأ الفانوس.

وأرسلت بصري للأمام فوجدت بابًا مفتوحًا.

مشيت بخطوات هادئة وأنا أشاهد ظل هولاند يتحرك فوق رخام الأرضية، والضوء ينير وجهي وأنا أطل من شق الباب الموارب. كانت جدران الغرفة مكسوة بألواح خشبية، وأحد الجدران مغطى بخرائط متداخلة مع بعضها، أما بقية الجدران فقد تراصت عليها شمعدانات برونزية. وقفت هولاند عند إحدى الزوايا ترنو إلى صورة معلقة فوق المكتب، كانت تلك صورة أمي مرتدية فستانًا باللون الأخضر الزمردي يتناسق مع دبوس الزينة المرصع بحجر كريم ذي لون بنفسجي، وقد تألق وجهها على ضوء الشموع.

دفعت الباب لأفتحه، وأشاحت هولاند بعينيها عن الصورة قبل أن تنظر إلى عينيّ.

ورفعت إصبعها لتمسح زاوية عينها وهي تقول: «طاب مساؤك».

فقلت وأنا أدلف إلى الداخل: «يوشك أن ينبلج الصبح».

هبطت عيناها على فستاني المتثني، وقالت: «أجيء إلى هنا حين يجافي النوم عينيّ، لا جدوى من الاستلقاء في السرير إذا كان بالإمكان إنجاز بعض الأعمال».

لكن لم يبدُ أنها كانت تعمل، بدا أن هولاند نزلت لرؤية صورة إيزولد.

سحبتْ عود ثقاب طويلًا من علبة على المكتب، وشاهدتُ يدها تحوم فوق فتيل الشموع، وبعد أن أشعلت الفتيل الأخير نفخت في عود الثقاب لتطفئه، ثم راحت تلقي نظرة فاحصة على الخرائط المصفوفة على الجدار البعيد. لاح على الخرائط رسم مفصل لسلسلة شعاب مرجانية، أحسست بأنني قد رأيت هذه السلسلة من قبل.

إنها كوكبة يوري.

اقتربت خطوة لأقرأ ملاحظات مكتوبة بالحبر الأزرق على طول هوامش الخرائط، ولاحظت أن بعض المناطق عليها علامات، كأن أحدهم أراد تمييزها قصدًا. لقد كانت خرائط مفيدة في مهمات الغوص ومتجددة البيانات، مثل تلك التي كان يعلقها أبي في غرفته على متن السفينة لارك، وهذا له معنى واحد فقط.

كانت هولاند لا تزال تبحث عن حجر قلب الليل.

ومن وراء هولاند عُلقت صورة كبيرة أخرى ذات إطار مذهب يؤطر رسمًا لرجل، كان وسيمًا ذا شعر داكن وعينين رماديتين وذقن مرفوع في إيماءة تنم عن الفخر، لكن لاح على محياه مسحة من اللطف والود.

سألتها: «أهذا جدي؟».

فابتسمت هولاند وأجابت: «نعم. أوسكار».

أوسكار. يبدو الاسم مناسبًا للرجل البادي في الصورة، لكن أمي لم تذكر هذا الاسم مطلقًا.

وتابعتْ: «لقد تلقى تدريبًا على يد والده ليكون خبير أحجار كريمة، بيد أن شغفه الحقيقي تعلّق بالنجوم. وعلى خلاف رغبة أبيه تلقى أوسكار تدريبًا ليكون خبيرًا في الملاحة الفلكية المعتمدة على الأجرام السماوية».

وابتسمتْ بفخر قبل أن تُكمل: «كان فريد زمانه في هذا المجال. ما من تاجر في منطقة البحر المجهول لم ينظر بعين التبجيل إلى براعته، والغالبية العظمى من الملاحين تلقوا تدريبًا على يديه في وقت أو آخر. لكنه نقل إلى إيزولد علم خبراء الأحجار الكريمة عندما أدرك موهبتها».

إن علم خبراء الأحجار الكريمة تراث يتم تناقله من جيل إلى جيل، ولا يُنقل إلا إلى الموهوبين. كانت أمي قد رأت في وقت مبكر أنني أحظى بتلك الموهبة. وتساءلتُ كم كان عمر أمي حين أدرك أوسكار موهبتها.

مددت يدي ولمست حافة صورة أخرى. بدا أنه الرجل ذاته لكن في عمر أكبر، ولم يكن شعره طويلًا، وقد تلوت الخصلات حول أذنيه.

وأردفت: «غريب أن أمك لم تخبرك عنه قط. لقد كانت علاقتهما وثيقة في فترة طفولتها».

قلت: «ثمة أشياء كثيرة لم تخبرني بها».

فابتسمت هولاند بحزن وقالت: «كذلك كانت تفعل معي. لطالما حيرني أمرها، لكن أوسكار ... لقد فهمها بطريقة عجزتُ عنها».

إذا كان هذا صحيحًا فلماذا لم تخبرني عنه من قبل؟ التفسير الوحيد الذي خطر ببالي هو أنها ربما لم تكن تريد المخاطرة بأن يعرف أي أحد أنها ابنة أقوى أقوياء منطقة البحر المجهول؛ فهذا من شأنه أن يجتر بعض المشكلات. لكنني لم أستطع التخلص من الشعور بأن سبب كتمان أمي هذا السر يتمثل في أنها كانت تخشى أن يُعثر عليها، ربما كانت إيزولد تخشى هولاند.

وتابعت: «لم أعرف أنها أنجبت ابنة إلا عندما تلقيت رسالة من زولا. لم أصدقه، ثم...»، واستنشقت نفسًا قبل أن تردف: «ثم رأيتك».

نظرت مرة أخرى إلى صورة أمي وأنا أقارن نفسي بها. كان الأمر أشبه بالنظر في مرآة، غير أنها تمتاز بمسحة نُبل، مسحة نقاء. وأحسست كأن عينيها تلاحقانني في الغرفة ولا تتحول عني ألبتة.

وأردفت هولاند منتشلة إياي من تيار خواطري: «هل أخبرتك بسبب تسميتك بهذا الاسم؟».

أجبتها: «كلا. لم تخبرني».

فقالت وهي تسير نحو المكتب: «جزيرة فيبل الصخرية الصغيرة». وحرّكت كومة من الكتب كاشفة عن خريطة لساحل باستيان موضوعة فوق المكتب، وجرى إصبعها على طول الحافة المتعرجة لليابسة، ثم سحبته نحو الماء باتجاه جزيرة صغيرة، وقالت: «كان هذا هو الملاذ الذي تختبئ فيه حين تريد الابتعاد عني»، وضحكت ضحكة واهنة تشي بالمرارة، ثم أردفت: «منارة جزيرة فيبل الصخرية الصغيرة».

تساءلت: «منارة؟».

فأومأت وقالت: «لم تكن قد تجاوزت الثامنة أو التاسعة من عمرها عندما بدأت تختفي لأيام متتابعة. ثم تعود فجأة وكأن شيئًا لم يحدث. لقد استغرقني الأمر قرابة العامين حتى أعرف إلى أين كانت تتجه».

اجتاحني شعور بالضيق في صدري، ما جعل قلبي يضطرب. لم يرقني أن هذه المرأة الغريبة تعرف الكثير عن أمي، لم يرقني أنها تعرف عنها أكثر مما أعرف.

وفجأة قالت هولاند: «كيف ماتت؟»، وتحولت النظرة في عينيها إلى نظرة تشى بالتوتر البالغ، وكأنها كابدت عناء لاستجماع شجاعتها كي تطرح السؤال.

أجبتها: «في خِضم عاصفة. لقد غرقت في بحر شرك العواصف».

فطرفت هولاند بعينيها وهي تزفر النفس الذي كانت تحبسه، وقالت: «نعم»، وخيّم صمت طويل قبل أن تعاود الحديث: «لقد فقدتُ أثر إيزولد لسنوات بعد أن رحلتْ عن طاقم زولا. ولم أسمع عن موتها على متن السفينة لارك إلا قبل عام».

سألتها: «لهذا السبب تريدين الفتك بسينت؟».

فأجابت: «هذا سبب من الأسباب».

لم أعرف مدى درايتها بشأن سينت وإيزولد، لكن أحسست باضطراب يثقل نفسي منذ الصباح الذي ذكرتْ فيه اسمه. إذا أرادت هولاند الفتك بسينت، فعلى الأرجح سوف تحقق مأربها، وهذه الفكرة أشعرتني وكأنني أغرق والهواء ينفد من رئتي.

أوضح ويست أن على سينت حماية نفسه، ولكن حتى لو لم تقتله هولاند فإن سينت لن يسمح لها بالهيمنة على تجارته إلى على جثته. لا يهم الآن ما حدث قبل أربع سنوات في تلك الليلة على متن السفينة لارك ولا اليوم الذي هجرني فيه على جزيرة جيفال. إن ذهني متقد الآن بذكراه وهو يعطيني خريطة منطقة شرك العواصف، وذاك الصباح الذي كِدتُ له فيها واستخدمت قلادة أمي العزيزة على قلبه لأُحْكِم مكيدتي. تراءى لي المشهد كله جليَّ الوضوح.

إن سينت وغد، بيد أنه جزء مني والرابطة بيني وبينه لا تنحل، والأعجب أنني أحببته حقًّا.

عندئذ نطقت دون أن أمعن التفكير في الأمر: «لقد غيرت رأيي».

فقطبت هولاند حاجبها ورفعت بصرها تجاهي قائلة: «أعدتِ النظر في عرضي؟».

عضضت على شفتي، وتخيلت مرة أخرى مشهد سينت جالسًا على مكتبه يجيل بصره في دفاتره في الضوء الخابي والجو الضبابي، وفي يده كأس مترع بالجاودار، ورائحة دخان

الغليون تملأ الهواء. اقتربت منها خطوة وقلت: «أريد إبرام اتفاق».

فانحنت مقتربة مني وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة، وقالت: «إني مصغية».

قلت: «لم أكن أكذب عندما قلت إن إيزولد لم تخبرني مطلقًا بشأن حجر قلب الليل، لكني أعلم أنكِ ما زلت تبحثين عنه»، وألقيت نظرة خاطفة على الخرائط، ثم قلت: «وأعلم أنه بمقدوري العثور عليه».

خيم الصمت على المكان، واعتراها جمود مفاجئ وقد لاحت في عينيها نظرة تشيء بوطأة الأفكار المحمومة في ذهنها، ثم قالت: «لقد كلفتُ أطقمًا بالبحث عنه لسنوات، فما الذي يجعلك تظنين أنه بوسعك العثور عليه؟».

فقلت: «لم تعلمني أمي التجريف فقط».

لم تبد متفاجئة ألبتة، وقالت: «إذن أنت خبيرة أحجار كريمة. كنت أتساءل عن ذلك».

فقلت: «كان بوسعك أن تسأليني ببساطة».

فضحكت نصف ضحكة وقالت: «أحسب أنك محقة»، ثم نهضت من مجلسها وتحركت لتتجاوز المكتب وهي تقول: «قلتِ إنك تريدين إبرام اتفاق. ماذا تريدين مني؟».

فنظرت في عينيها وقلت: «وعدك. وعدك بأنني إذا وجدت حجر قلب الليل أن تتركي سينت وشأنه».

بدا أن كلامي قد باغتها، وضاقت عيناها وهي تسأل: «لماذا؟ ما شأنك به؟».

أجبتها: «أنا مدينة له. هذا كل ما في الأمر».

قالت: «لا أصدقك».

فقلت: «لست أكترث ما إذا كنتِ تصدقينني أم لا».

اختلجت زاوية فمها من جانب واحد وهي تنقر بإصبعها على المكتب.

ثم رفعت يدي تجاهها وقلت: «لا أريد إمبراطوريتك، لكنني سأجد حجر قلب الليل. وعندما أجده ستتعهدين بأنك لن تمسي سينت أو تجارته بسوء».

اتسعت عينا هولاند وهي تمعن التفكير في كلامي، وحدجتني بنظرة فاحصة وهي تحاول سبر أغواري، ثم قالت: «أعتقد أن علاقة سينت بك أوثق مما كنت أظن. وأعتقد أن علاقة سينت بإيزولد أوثق مما كنت أظن».

لم تكن غبية. كانت تربط الخيوط ببعضها. لقد علمتُ أن سينت كان قبطانًا يترأس إيزولد، بيد أنها لم تكن تعلم أنه حبيبها. ولن أخبرها بأنها محقة في ظنها.

قلت وأنا أرفع يدي بيننا: «هل لدينا اتفاق أم لا؟».

فتلقفتْ يدي وهي تبتسم حتى تألقت عيناها في ضوء الشموع قائلة: «اتفقنا».

العشرون



بدت باستيان بهية الجمال في ظلام السَحَر.

وقفتُ عند النافذة وأطراف أصابعي ملتصقة بالزجاج البارد وأنا أشاهد وميض أضواء شوارع المدينة. كان منزل آزمث رابضًا على قمة التل ومطلًّا على المدينة من علٍ، كأنه حارس يراقب المدينة، وقد كان ذلك متسقًا مع طبيعة الأمور هنا؛ فهولاند تراقب كل ما يجري في هذه المدينة، الميناء والتجار والمجلس التجاري، والآن ترسل بصرها تجاه سيروس.

كانت مسألة وقت قبل أن تبسط هيمنتها على منطقة المضايق كما تبسطها هنا.

على المنضدة المجاورة لباب غرفتي تكومت لفافات الخرائط التي كانت مبسوطة على جدار مكتب هولاند. سلمتني هولاند تلك الخرائط وهي ترمقني بنظرة مباشرة في عينيّ، والتمعت في عينيها نظرة مألوفة جعلتني أتجمد، شعرت في تلك اللحظة وكأنني أنظر إلى أمي.

اضطربت وتيرة أنفاس ويست المنتظمة، واستدرت من موقفي عند النافذة. كان يرقد فوق اللحاف، وإحدى ذراعيه مطوية تحت وسادة، وحتى في الإضاءة الخابية لاحظت أن التورد بدأ يعود إلى خديه بما ينم عن تحسن في حالته النفسية والجسدية.

وقلت لنفسي لهذا لم أوقظه، كي لا أبدد راحة باله، لذا مكثت واقفة في صمت الظلام طيلة الساعة الماضية منتظرة إياه أن يفتح عينيه. لكن الحق أنني كنت خائفة.

جلست عند طرف السرير وأنا أشاهد صدره يعلو ويهبط، وقد عقد حاجبيه وعيناه ما زالتا مغمضتين، واستنشق نفسًا حادًّا وهو يتحرك حركة مفاجئة، ثم ارتجفت أجفانه بحركة سريعة محمومة وهو يحاول تركيز عينيه ويجيل بصره في الغرفة حتى رآني، وعندما وقعت عيناه عليّ أطلق زفيرًا.

مددت يدي وأمسكت مرفقه وأنا أقول: «ما الخطب؟»، كانت بشرته ساخنة ونبضه متسارع.

جلس وهو يزيح خصلات شعره عن وجهه، وانطلقت عيناه نحو النافذة فأدركت أنه يتطلع إلى الميناء، إلى السفينة ماريجولد. ثم قال: «يجدر بنا الذهاب، يجدر بنا أن نكون في البحر قبل شروق الشمس».

اشتدت دقات قلبي حتى صكت مسمعي وهو ينهض واقفًا، واصطكت أسناني وأنا أقول: «لا أستطيع»، وطويت أصابعي كي لا ترتجف يدي وأنا أكرر: «لا أستطيع».

وفي الحال تبدل وجه ويست. والتفت نحوي موليًا ظهره إلى السماء المعتمة، وتساءل بصوت ازداد عمقه من أثر النوم: «ماذا؟».

فغرت فمي وأنا أحاول إيجاد طريقة لقول ما أريد قوله. لقد أعدت الكلمات في ذهني مرارًا وتكرارًا، لكنها هربت مني الآن.

وتحولت النظرة في عينيه ببطء من القلق إلى الخوف، وناداني: «فيبل».

فقلت: «لا يمكنني العودة إلى منطقة المضايق معك. لم يحن الوقت بعد».

فتجمدت ملامحه حتى بدا وجهه كأنه صخرة صماء، وتساءل: «عمَّ تتحدثين؟».

عرفتُ لحظة إبرامي الاتفاق مع هولاند أنني سوف أخسر ويست، لكنني آمنت بأنني سوف أستطيع إصلاح ذلك في وقت لاحق.

ازدردت ريقي وقلت: «الليلة الماضية أبرمت اتفاقًا مع هولاند، اتفاقًا لن يروقك».

شحب وجهه وهو يعاود التساءل: «عمَّ تتحدثين؟».

قلت: «أنا...» لكن صوتي ارتجف.

سألني: «ماذا فعلت يا فيبل؟».

أجبته: «سوف أعثر على حجر قلب الليل وأعطي هولاند إياه».

فسأل بحدة: «مقابل ماذا؟».

كانت هذه هي اللحظة التي تخوفت منها - شرار الغضب المتطاير من عينيه، واضطراب عضلات فكه.

ضغطت على أسناني بلساني. لا رجعة عن ذلك حالما أنطق الكلمة. قلت: «سينت»، ونهضتُ، وتقهقر ويست خطوة بعيدًا عني، ثم أردفت: «إذا وجدت حجر قلب الليل وسلمت هولاند إياه فستترك سينت وشأنه».

استغرقني الأمر هنيهة لتحديد النظرة المرتسمة على وجه ويست، كانت نظرة إنكار.
سألني: «فيم كنت تفكرين بحق الجحيم؟».

لم تكن لديّ إجابة على ذلك. لم تكن لديّ إجابة يستطيع فهمها. قلت: «يجب أن أفعل هذا يا ويست».

فقال بغضب: «لقد اتفقنا. اتفقنا على قطع صلتنا به».

فازدردت ريقي وقلت: «أعرف».

التفت إلى النافذة مرسلًا بصره إلى البحر الرابض بعيدًا.

وأردفت: «إن الحجرمخبأ في جزر كوكبة يوري. بوسعي العثور عليه».

فسألني: «ماذا لو لم تستطيعي العثور عليه؟».

فقلت وأنا أحاول أن أبدو واثقة: «أستطيع. أعلم أنني أستطيع. سوف آخذ أحد أطقمها و...»، وانقطعت الكلمات عندما التفت لينظر نحوي.

كان ويست يغلي بغضب مكتوم جعل الأجواء من حولنا مشحونة، وقال: «لن أغادر باستيان من دونك».

لويت أصابعي في حركة متوترة وقلت: «أنا لا أطلب منك البقاء. خذ ماريجولد وانطلق إلى سيروس، وسوف ألتقي بك».

انتزع السترة من ظهر الكرسي وارتداها وقال: «عندما أبرمتِ الاتفاق فقد شمل كلًّا منا».

كنت أخشى أن يقول ذلك. هذا بالضبط ما كنت سأقوله لو أن ويست فعل ما فعلت. لكن بقية أفراد الطاقم لن يوافقوا أبدًا. سوف يحسمون رأيهم قبل أن يُتم حديثه معهم بشأن ما فعلتُه. قلت: «أنا آسفة يا ويست».

اعتراه جمود وهو يفتش في عينيّ، ثم قال: «أخبريني بأن كل هذا لا علاقة له بما قلتُه لكِ الليلة الماضية».

فتساءلت «ماذا؟».

امتص شفته السفلية وقال: «أرى أنكِ أبرمت هذا الاتفاق لأنك غير متيقنة بشأن ما إذا كنت تريدين العودة إلى منطقة المضايق».

فقلت: «منطقة المضايق هي وطني يا ويست. إنني أخبرك بالحقيقة. لكن هذا الأمر منوط بي أنا وسينت، وليس منوطًا بأي شخص آخر».

غمغم بكلام غير مسموع وهو يزرر طوقه.

سألته: «ماذا؟ بم تفكر؟».

فقال بتواضع: «لا أعتقد أنك تريدين أن تعرفي ما أفكر فيه».

قلت: «بل أريد».

لكنه تردد، وترك صمتًا طويلًا يجثم بيننا قبل أن ينطق أخيرًا: «أعتقد أنني كنت محقًّا».

فسألته: «بشأن ماذا؟».

فتوهج وجهه وهو يقول: «عندما طلبت مني ضمك إلى الطاقم، أخبرتك بأنه إذا تعين عليكِ الاختيار بيننا وبين سينت فسوف تختارينه».

عندئذ فُغر فمي وصدر عن حلقي صوت مقتضب ينم عن الصدمة، ثم قلت: «ليس هذا هو الوضع يا ويست».

فقال: «حقًّا؟»، وكانت عيناه جامدتين عندما رفعهما صوب عينيّ.

جفلتُ والكلمات تمزقني أكثر فأكثر.

قلت مرة أخرى بصوت أعلى ونبرة أشد غضبًا: «ما كنت لأُعلي كفّته على كفّتك أبدًا. لو كان الأمر منوطًا بويلا لكنتَ فعلتَ الفعل ذاته».

فرد بغضب: «سينت ليس مثل ويلا»، كان جسده متصلبًا، وما زال مشيحًا بجسده عني بعض الشيء، وأردف: «لقد تركك يا فيبل. لقد صدكِ ونبذكِ عندما ذهبتِ إليه في سيروس».

قلت بوهن: «أعلم».

فسألني: «إذن لماذا تفعلين هذا؟».

فقلت: «أنا فقط لا أستطيع السماح بأن يصيبه مكروه»، بالكاد استطعت نطق الكلمات، وأحسست كأنها فقدت معناها وأنا أنظر إلى ويست في تلك اللحظة.

حدجني ويست بنظرة تزداد جمودًا، وقال: «انظري في عينيّ وأخبريني بأننا طاقمك، وأن ماريجولد هي بيتك».

فقلت: «الأمر كذلك فعلًا»، قلتها بثقة راسخة جعلت الألم يندلع في صدري، لم يرف لي جفن، أردته أن يصدق ذلك.

فحمل الفستان من موضعه عند نهاية السرير وأعطاني إياه قائلًا: «إذن، فلنذهب».

الواحد والعشرون



كانت الفوانيس لا تزال تبث نورها على الأرصفة البحرية، وقد انعكس الضوء على زجاج نوافذ المتاجر الرابضة على التل. سار ويست على كثب مني، وخطواته الواسعة تصفع الألواح الخشبية بجواري. لم ينبس بشيء تقريبًا منذ مغادرتنا منزل آزمث، لكن الجو بيننا كان مشحونًا بالاضطراب. كان غاضبًا، بل يستشيط غضبًا.

لا أستطيع أن ألومه. لقد غادر منطقة المضايق بحثًا عني، وأنا أوقعته في شِباك هولاند.

غضب كلوف أيضًا عندما أخبرتُه؛ وكان مبعث غضبه في الأساس أنه سيتعين عليه إخبار أبي بالأمر. سار في إثرنا ونحن نشق الشوارع الضيقة، وكان صندوقه المليء بالنقود لا يزال تحت ذراعه، لم أرَ الصندوق بعيدًا عن متناول يديه منذ أن أعطته هولاند إياه.

تلَوَّث أحشائي تأثرًا عندما وقفنا عند مدخل الميناء، وتواثب قلبي في صدري حين وقعت عيناي على السفينة ماريجولد.

بدت مثل فتاة حسناء بخشبها المطلي بطيف ذهبي. وقد لاح البحر الأزرق من خلفها صافيًا، وكانت أشرعتها الجديدة بيضاء كالقشدة الطازجة، ومطوية بدقة على الصواري. تساءلتُ كثيرًا في الفترة المنصرمة عما إذا كنت سأراها مرة أخرى.

عاودني شعور الارتياح العميق الذي كان يملأ نفسي حين كنت أراها راسية عند جزر الحاجز. توقفت في مكاني عند أعلى العتبات، فاستدار ويست ورنا إليّ من موقفه عند

أسفل الدرج، وقد عبثت الرياح بشعره، فدسّه خلف أذنيه قبل أن يُخرج القبعة من جيبه ويضعها على رأسه.

أمسكت بتنورة فستاني ورفعتها وأنا أهبط تجاهه. كانت الأرصفة تعج بالمخزون المطلوب تسجيله، والقباطنة ينتظرون الحصول على تصاريح الموافقة من مدير ميناء باستيان الذي وقف منحنيًا على طاولة مليئة بالأوراق، مررت بجواره فرأيت الدفتر الذي عرضه على هولاند مفتوحًا وقد سُجلت فيه السفن التي وصلت ليلًا، لعله في غضون ساعة من الآن ستكون السجلات موضوعة على مكتب هولاند.

اضطربت خطواتي عندما لاح لي وجهٌ تعرفت على صاحبته. كانت كالا، برأسها الملفوف بوشاح، وقد برزت عضلات ذراعيها وهي تنزع غطاء صندوق بيد واحد، أما الذراع الأخرى فما زالت مدسوسة في حمالة ذراع منذ أن كسرتُ أصابعها.

فتشتُ الأرصفة الأخرى بحثًا عن أي إشارة لوجود كوي، بيد أنني لم ألمحه، مثله مثل بقية مَن كانوا على متن السفينة لونا كانوا يبحثون عن عمل كما قال مدير الميناء؛ إذ كانوا يكدون لكسب أي نقود إلى أن تتسنى لهم فرصة الانضمام إلى طاقم آخر أو يدفعوا إلى إحدى السفن ثمن رحلة عودتهم إلى منطقة المضايق.

قبالتنا لاح فانوس واحد متوهج بلهب أصفر معلق عند مقدمة السفينة ماريجولد، ولاح شبح إنسان واقف هناك.

كانت ويلا.

حيث ارتكزت على الدرابزين مرسلة نظراتها باتجاهنا، وقد التوى شعرها فوق رأسها كأنه لفائف حبال. لم أتبين وجهها، بيد أنني أكاد أسمع الزفير الطويل الذي انطلق من بين شفتيها عندما رصدتنا.

انفتح السلم الحبلي على جانب السفينة بعد هنيهة، وصعد كلوف أولًا. وأمسك ويست بالسلم ليثتبه من أجلي كي أتسلقه، وعندما لم ينظر إليّ تحولتُ بجسدي لأواجهه، ولبثت منتظرةً قبل أن أسأله: «هل الأمور بيننا بخير؟».

فقال ويست دون أن ينظر في عيني: «نعم»، لكنه لا يزال يتصرف ببرود.

تمنيت أن يلمسني أو يفعل شيئًا يهدئ اضطراب البحر الذي يمور بين جنباتي. لكن ثمة مسافة نفسية تفصل بيننا لم تكن موجودة من قبل، ولم أكن متأكدة كيف سأنهي هذه المسافة.

ارتقيتُ الدرج، وعندما وصلت إلى الأعلى رأيت ويلا واقفة عند عجلة الدفة وتحدج كلوف بقلق، لكنه لم يأبه إليها ألبتة وهو جالس بأريحية على صندوق عند مقدمة السفينة.

وعندما نظرتُ نحوي تبدلت تعابير وجهها وفُغر فمها، ثم سألت: «ما هذا الذي ترتدينه؟».

نظرتُ إلى الفستان بإحراج، لكن قبل أن تتسنى لي الإجابة، لاحت ابتسامة عريضة على شفتيها. هبطت من سور السفينة إلى الأرضية، وأتت نحوي وعانقتني عناقًا شديدًا جعلني ألتقط أنفاسي بصعوبة.

ثم أفلتتني وانحنت للوراء كي تلقي نظرة عليّ، ثم قالت: «تسرني رؤيتك».

أومأتُ برأسي، وأمسكتُ يدي وضغطت عليها بشدة. ترقرقت الدموع في عيني لما رأيته من مودتها، لقد اشتقت إليها، لقد اشتقت إليهم جميعًا.

تناهى إلى أذني دبيب أقدام، وبعد لحظة رأيت باج قادمًا من الطابق السفلي، وأوستر خلفه. كان عاري الجذع، وشعره الأسود الطويل اللامع ينسدل على كتفيه.

ثم هتف متوجهًا إلى باب غرفة القبطان المفتوح وهو يسير نحوي: «عادت جالبة الشؤم!»، ثم أردف ويده تربت على ظهري بقوة: «وهي ترتدي تنورة!». تعثرت خطواتي وأنا متجهة

إلى ذراعي أوستر المفتوحتين من أجلي، وأحسست بدفء جلده عندما التصق خدي بصدره، وقد أزكم أنفي برائحته التي تشبه رائحة الماء المالح.

ومن خلفه ظهر هاميش وهو يحدج كلوف من موقفه في الممر الجانبي المفتوح، وسأل: «ما الذي يفعله هنا؟».

فغمز له كلوف وقال: «هلم نحتسي كوب شاي».

أومأ هاميش بذقنه نحوي، ثم نحو ويست، وقال بحدة: «أنت متأخر يومين».

فتمتم ويست: «لم تجر الأمور كما هو مخطط لها».

قال باج: «سمعنا بخبر زولا، تداول الناس على الأرصفة خبره، والبارحة جاء أحدهم لإنهاء أمر السفينة لونا».

نفخت ويلا وقالت: «لقى الوغد ما كان سيلاقيه حتمًا عاجلًا أم آجلًا»، ثم سألت: «أين كنت؟».

وقال باج وقد شرع في السير باتجاه غرفة القبطان: «يمكنك إخبارنا لاحقًا، فلننطلق الآن ونغادر هذا المكان».

فأومأت ويلا برأسها موافقة، وتحركت نحو الصاري الرئيسي.

عندئذ قلت: «انتظروا»، وشددت قبضتي داخل جيبي سترتي، ولم أنظر إلى عيني ويست حين استشعرتهما مسلطتين عليّ؛ لم أرد أن أرى تعابير وجهه لحظتئذ.

لكنه قاطعني، وتقدم لمواجهة الطاقم قائلًا: «ثمة شيء يتعين علينا فعله قبل أن نعود إلى سيروس».

أمسكت بذراعه وقلت: «ويست...»، لكنه أفلت من يدي واستدار نحو باج.

وقال: «يمّم السفينة شطر كوكبة يوري».

عندئذ بدا الارتباك مشتملًا أفراد الطاقم جميعًا مثلما اشتملني، وتساءلوا: «ماذا؟».

ورددت ويلا بصرها بيننا وقالت: «كوكبة يوري؟ ماذا تقول؟».

خفضت صوتي وأنا أقول: «لا تفعل يا ويست».

سأله هاميش وهو يحاول قصارى جهده التزام الصبر: «وماذا نفعل بالضبط في كوكبة يوري؟».

فانبريت أنا للإجابة: «لا عمل لنا هناك. العمل هناك عملي وحدي، إنها مهمة تجريف. مهمة واحدة لا تتكرر. وعندما أتمها سوف ألتقي بكم في سيروس».

فسألني هاميش: «كم الأرباح؟»، وقد وضع نظارته على عينيه مرة أخرى وبدا مرتاحًا ما دام الحديث يدور عن الأرقام.

فازدردت ريقي وقلت: «لا أرباح».

خطا باج خطوة نحوي وقال: «ما الذي يجري يا فيبل؟».

قلت: «حالما أُتم المهمة سوف أعود إلى منطقة المضايق. يمكنكم أخذ نصيبي من الغنيمة التي استخرجناها من السفينة لارك و...»

لكن ويست قاطعني قائلًا: «أبرمت فيبل اتفاقًا مع هولاند».

فتحولت نظرة الارتباك التي كانت تلوح في عيني الطاقم إلى نظرة ارتياب.

ثم سأل أوستر: «أي اتفاق؟».

فأجبت: «سوف أعثر لها على شيء تريده».

تساءل باج: «لماذا؟».

فمسحت وجهي بيدي وقلت: «هولاند...»

بيد أن كلوف لم يمهلني وقال بسخط: «إنها والدة إيزولد».

عندئذ صوب الأربعة أعينهم تجاه ويست، لكنه لاذ بالصمت.

ثم نزع هاميش نظارته التي تدلت من أطراف أصابعه وتساءل: «هولاند جدتك؟».

قلت وأنا أحدق إلى سطح السفينة: «لم أكن أعرف بالأمر حتى ليلة الحفل. إنها تسعى في أثر سينت، وقلت إنني سوف أعثر لها على شيء تريده إذا تركت سينت وشأنه».

خيّم صمت مخيف مفاجئ مرة أخرى فوق السفينة.

ثم قال باج بصوت متحشرج: «لا يمكن أن تكوني جادة في كلامك. هل يوجد أي وغد هنا أو في منطقة المضايق لا يمتّ إليكِ بصلة قرابة؟».

انفجرت ويلا قائلة: «مُحال أن نقبل مهمة لإنقاذ رقبة سينت».

قال هاميش: «أتفق تمامًا مع هذا الكلام».

كان هذا بالضبط ما توقعت أن يقولوه. قلت: «أنا أعرف ذلك. ولهذا السبب سأضطلع بهذه المهمة وحدي».

فقال ويست: «لا، لن يحدث ذلك»، وأردف: «يمّموا السفينة شطر كوكبة يوري».

واستقرت أعين الجميع عليه. همست منادية إياه: «ويست».

وكادت ويلا تضحك وهي تسأل: «ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟».

فأجاب ويست: «إننا ذاهبون إلى كوكبة يوري. سوف نُتم مهمة الغوص ثم نعود إلى الوطن».

ضرب باج السور وعقد ذراعيه فوق صدره، ثم سأل: «هل تقول إنه لا رأي لنا في هذا؟».

أجاب ويست بحزم: «هذا ما أقوله بالضبط. سوف تتجه السفينة ماريجولد إلى كوكبة يوري».

حملقت إليه وأنا أسأل: «ما هذا الذي تفعله؟».

فقال: «إنني أصدر أوامر. وأي أحد لا يريد الامتثال للأوامر بوسعه تدبر أمر عودته إلى منطقة المضايق».

حدجه الطاقم بأعين متسعة في عدم تصديق.

بصقت ويلا وقالت: «هل لديكِ أدنى فكرة عما تكبّدناه للوصول إلى هنا؟ للعثور عليكِ؟ والآن تريدين إنقاذ الرجل الذي جعل حياتنا جحيمًا خلال العامين الماضيين؟».

وعند مقدمة السفينة كان كلوف يراقب المشهد متسليًا، حيث عقد ذراعيه فوق الصندوق الموضوع في حِجره، وبصره يتنقل بين ويست والبقية.

قال أوستر بهدوء: «إلى الآن لم تخبرينا بما يُفترض أن نعثر عليه»، وبدا أنه الوحيد الذي لا يريد تسديد لكمة في وجه ويست.

أجبت: «قبل أن تغادر أمي باستيان سلبت شيئًا من هولاند. حجر قلب الليل».

اتسعت عينا باج، بينما ضاقت عينا ويلا.

ضحك أوستر، بيد أن ضحكته انحسرت إلى صمت عندما نظر في عيني، وتساءل: «ماذا، أأنت جادة؟».

قلت: «إنه في كوكبة يوري. كل ما علينا فعله هو العثور عليه».

فدمدم باج قائلًا: «لا تستعملي ضمير الجمع. ليس في هذا».

عندئذ انتابتني قشعريرة وتقهقرت خطوة، بيد أن باج لم يرف له جفن.

هتف هاميش: «لم يره أحد حتى! على الأرجح أنه ليس حقيقيًّا، لا يعدو أن يكون قصة مختلقة رواها وغد ثمل في حانة».

قال كلوف بصوت عميق أسكتهم: «إنه حقيقي».

هز هاميش رأسه ثم قال: «حتى إذا كان الأمر كذلك، فلم تُستخرج أي قطعة أخرى من حجر قلب الليل منذ أن كشفت عنه هولاند».

فقلت: «لقد وجدت أمي تلك القطعة. وبوسعي إيجاد قطعة أخرى».

اشتعلت عينا ويلا بتلك النظرة المتقدة المألوفة وقالت: «أنتما مجنونان».

قال ويست: «أريد أن يكون كل شيء جاهزًا قبل نهاية اليوم. سوف نبحر فجرًا».

حدجوه جميعًا بنظرات غاضبة. وبعد لحظة زايل موضعه وهو يُمرر أصابع يده بين خصلات شعره قبل أن يشق طريقه نحو الممر الجانبي المفتوح. راقبته وهو يتوارى في غرفة القبطان، ثم تبعته.

زحف الضوء من الغرفة عبر الباب المفتوح، وند صرير عن ألواح الأرضية عندما دلفت إلى الداخل، وتدفقت رائحة غرفة ويست إلى رئتي، وطوقت نفسي بذراعيّ وأنا أرمق سلسلة أحجار الأفعى المثقوبة المتدلية من النافذة.

قلت: «ما هذا الذي حدث؟».

سحب ويست كأسًا أخضر من درج مكتبه، ثم مد يده نحو العارضة الخشبية وجعل يتحسس أعلاها. شب حتى ارتفعت حاشية قميصه كاشفة عن شيء من جلده البرونزي، فعضضت خدي من الداخل.

أصابت يده أخيرًا ما كان يفتش عنه، حيث عادت حاملة زجاجة صفراء. ثم فتحها وملأ الكأس، وقال: «ما فتئ هذا الحلم يراودني منذ أن كنا في ديرن».

رمقته وهو يرفع الكأس، وجثم صمت مثير للاضطراب.

تجرع الكأس وازدرده بقوة، وواصل حديثه: «حلم عن تلك الليلة التي قتلنا فيها كرين»، ومد الكأس باتجاهي.

أخذته منه وأنا أتساءل عما إذا كان هذا هو السبب الذي جعله يستيقظ مفزوعًا في منزل آزمث.

أمسك بالزجاجة وملأ الكأس، وقال: «أرى في الحلم أننا واقفون على سطح السفينة تحت ضوء القمر، وأنا أرفع غطاء التابوت»، ووضع الزجاجة على المكتب واضطربت عضلات فكه قبل أن يكمل: «لكن كرين ليس هو الموجود فيه، بل أنت».

سرت قشعريرة في جسدي جعلتني أرتجف، واهتز السائل في الكأس قبل أن أرفعه إلى شفتي وأحني رأسي للخلف وأتجرعه.

قلت: «أنت غاضب مني، وليس منهم».

لم ينكر ما قلته.

وأردفت: «لا يمكنك توجيههم إلى كوكبة يوري».

فقال بحزم: «بل يمكنني. أنا قبطان هذه السفينة، اسمي مذكور في وثيقة ملكيتها».

قلت: «ليس هذا هو الأسلوب الذي يعمل به هذا الطاقم يا ويست».

فأرسل بصره تجاه النافذة المظلمة وقال: «صار هو الأسلوب المعتمد الآن».

آلمني حلقي ألمًا جعلني أزدرد ريقي بصعوبة. لقد اتخذ قراره في اللحظة التي أخبرته فيها بالاتفاق الذي أبرمته مع هولاند. ما من شيء أقوله سيغير رأيه الآن. قلت: «هذا ليس صوابًا. يجب أن تعود بماريجولد إلى منطقة المضايق».

فقال: «لن أتوجه بماريجولد إلى أي مكان إلا إذا كنتِ على متنها»، بدا أنه يبغض ما يقوله.

هذا ما كان يتحدث عنه عندما قال إننا صرنا ملعونين. كان ويست على استعداد لمجابهة الطاقم إذا اضطر لذلك في سبيل ألا يتركني وراءه في منطقة البحر المجهول. كان يدفع بالفعل ثمن يوم القُبلة ذاك تحت ماء بحر شرك العواصف، وثمن تلك الليلة في غرفته حين أخبرني بأنه يحبني.

سوف يدفع كلانا هذا الثمن طيلة العمر.

الثاني والعشرون



ترامى صوت هاميش من النافذة قائلًا: «لقد أحضرها!»، فتركتُ الريشة في يدي تسقط على الطاولة ونهضت من مجلسي متجهة إلى باب الحانة المفتوح على الشارع. كان باج قادمًا نحونا وطوى ذراعه على ثلاث لفائف ورقية، وياقة سترته مرفوعة ليتقي الرياح الشديدة. مر بمجموعة من الرجال متجهين إلى السوق وكاد يصطدم بأحدهم.

كان كلوف قد تطوع للذهاب إلى رسام الخرائط؛ إذ لم يكن واثقًا من قدرة باج على إنجاز تلك المهمة، فلم يوارِ حقيقة أنه يرى ملّاح سفينتنا غير قادر على توجيه ماريجولد إلى كوكبة يوري والعودة مرة أخرى. لكنني أردت إسناد مهمات أخرى لكلوف.

عاودت النظر إلى الشارع بحثًا عن أي إشارة تدل عليه، لقد تأخر.

دسست يديّ في جيبي السروال الجديد الذي ذهبت ويلا على مضض لشرائه لي. لقد استشعرت ارتياحًا، لأنني نزعت ذاك الفستان السخيف.

مرق باج من الباب وشق طريقه إلى طاولتنا التي انتشرت عليها الخرائط بعشوائية. لم يكلف نفسه عناء النظر إليّ - في الواقع لقد تحاشوا جميعًا النظر إليّ طيلة اليوم.

شمر ويست كمي قميصه وتجاهل ما يظهره باج من استياء، وقال: «حسنًا، ماذا لدينا هنا؟».

فأجاب باج بسخط: «ابحث بنفسك».

فزجره أوستر وهو يرفع أحد حاجبيه: «باج!».

بجواره بدت ويلا موافقة على احتجاج باج؛ إذ نفخت متأففة وهي تقلب مكعبًا آخر من السكر في شايها البارد.

أذعن باج لزجر أوستر وهدأ من أسلوبه وهو يفتح الخرائط فوق سِجل السفينة التي أعطتني إياها هولاند، وقال: «عُثر على حجر قلب الليل في كوكبة يوري. وفقًا للسجلات فقد عمل طاقم هولاند على تجريف الجزر هناك لأكثر من شهر في الآونة التي وجدت فيها إيزولد الحجر، وواصلوا العمل في هذا المكان لأسابيع بعد ذلك»، ووضع إصبعه على تكتلات اليابسة المتفرقة، وتابع: «منذ ذاك الحين مسح طاقم هولاند تلك الشعاب المرجانية مسحًا، بدأوا من الشمال متجهين إلى الجنوب، ثم من الجنوب إلى الشمال».

فغمغمتُ: «لكنهم لم يعثروا على شيء».

فرد باج بحدة: «بديهي»، وأردف: «لقد عملوا في تلك المنطقة لما يقرب من عشرين عامًا، ومسحوا كل الشعاب المرجانية التي كان طاقم هولاند يعمل على تجريفها في الآونة التي عثرت فيه إيزولد على حجر قلب الليل. أهون ما يقال إن الانخراط في هذه المهمة حماقة».

جلستُ على حافة الطاولة، وسألت: «أين الخرائط الجيولوجية وخرائط التضاريس؟».

فبحث في الخرائط وأخرج إحداها: «ها هي ذي».

انبسطتْ الخرائط أمامي، ولاحت فيها منطقة البحر المجهول مرسومة بألوان مختلفة، وسماكة الخطوط تحدد أنواع الصخور ومدى عمق المياه. كانت الشعاب المرجانية معظمها محاط بصخور البازلت والأردواز والحجر الرملي، وهي مواقع رئيسية للعثور على معظم الأحجار النفيسة التي كانت تشكل أساس تجارة الأحجار الكريمة. لكن إذا عثرت أمي على حجر قلب الليل في مكان ولم تتمكن هولاند من العثور عليه في هذا المكان منذ ذاك الحين، فهذا يعني أننا كنا نبحث عن شيء مختلف.

أشرت إلى جزيرتين في زاوية الخريطة مميزتين برمز حجر الكوارتز، وقلت: «ما هذه؟».

راح باج يحدجني فقط دون أن يرد؛ فانتزع أوستر الخريطة من يده وأجرى إصبعه عليها حتى وصل إلى النقطة المنشودة، وقال: «جزيرتان مشهورتان باسم الشقيقتين آسفين».

سمعت الاسم من قبل. كانتا جزيرتي شعاب مرجانية في كوكبة يوري استُخرِج منهما معظم حجر الآسفين الأصفر والأخضر.

وأضاف أوستر: « يبدو أن هناك أيضًا مخزونًا من أحجار العقيق الأزرق، لكنها صارت خالية من حجر السربنتين، استُخرج المخزون بالكامل».

سألته: «هل ثمة أحجار أخرى هناك؟».

فقال: «بعض العقيق الأسود فقط».

ضيّقت عيني وأنا أفكر، ثم سألت: «متى كانت آخر مرة جرف فيها طاقم هولاند هذه المنطقة؟».

عندئذ تحدث باج أخيرًا، لكن وجهه كان لا يزال جامدًا كصخرة: «منذ عامين»، ومد يده محركًا الخريطة ثم أردف: «هذه هي المنطقة الأكثر إثارة للاهتمام»، وأشار إلى بقع سوداء بين شبه جزيرتين طويلتين، وتابع: «إنها زاخرة بأحجار الكريزوكولا، ولم يتم تجريفها منذ عشر سنوات على الأقل».

كان هذا مثيرًا للاهتمام فعلًا؛ إذ توجد أحجار الكريزوكولا عادة في مخابئ صغيرة متناثرة يفصل بينها مساحات شاسعة.

تساءلتُ: «هل توجد مواقع أخرى تبدو جديرة بالاهتمام؟».

أجاب باج: «كلا. فهولاند كانت تبحث بطريقة منهجية، وقد حرصت على عدم إغفال أي موقع في تلك المنطقة».

ولكن إذا كان هذا هو الجزء الذي كانوا يعملون فيه عندما وجدت إيزولد الحجر فيجب أن أعثر على المخبأ هناك، في بقعة ما. وأخذت الريشة من يده ووضعت علامات على المناطق التي تقل آمال حصولنا على شيء فيها، وفي النهاية انحصرت خياراتنا في الشعاب المرجانية التي تعتلي طبقة صخرية تتألف من صخور النيس والجرينشيست.

قال ويست وهو مرتكز على الطاولة بيديه: «لقد عملوا في هذه الشعاب مرارًا وتكرارًا».

فقلت بهمس: «لم يكن معهم خبير أحجار كريمة. لقد مات أوسكار قبل زمن طويل من عثور إيزولد على حجر قلب الليل».

تساءل: «أوسكار؟».

أجبت: «إنه جدي»، وبدت الكلمة غريبة حتى على أذني، وأردفت: «لقد كان خبير أحجار كريمة. لو كان تحت يد هولاند خبير أحجار كريمة آخر ما كانت لتهتم هذا الاهتمام بأنني خبيرة أحجار كريمة». أي خبير أحجار كريمة يملك ذرّة عقل سوف يتحاشى تاجرة مثل هولاند. والتفتُ إلى باج وسألت: «هل أنت متأكد من أنه يمكنك الإبحار في هذه المياه؟».

فقال: «وهل لديّ خيار آخر؟».

عاودت السؤال بنبرة أكثر حدة مما قصدت: «هل يمكنك الإبحار هناك أم لا؟».

فحدجني بنظرة انزعاج طويلة، ثم قال: «يمكنني فعلها».

تمتمت: «أمامنا أسبوع واحد»، حتى لو كان أمامنا أسبوعان، فلا تزال هذه المهمة شبه مستحيلة.

قال ويست: «نحن بحاجة إلى تحديد تفاصيل المسار الذي سنسلكه مع غروب الشمس»،

فردد باج بصره بيننا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هازئة: «أي شيء آخر؟».

قلت بانزعاج: «نعم. أخبر هاميش بأنني بحاجة إلى مصباح خاص بفحص الأحجار الكريمة، وحزام أدوات تجريف آخر».

فقال: «يسرني تنفيذ ذلك»، وابتعد عن الطاولة والتقط سترته قبل أن يشرع في المسير نحو الباب.

وصُفق الباب مع انغلاقه أثناء وضع النادلة إبريق الشاي الثالث، وأزحت كوبي فوق الخرائط كي يتسنى لها أن تملأه.

تمتمت ويلا: «حزام أدوات تجريف آخر. ماذا حدث لحزامك؟».

فحدجها ويست قائلًا: «وما يهمك؟».

فهزت ويلا كتفيها وقالت: «فقط أحب استطلاع شأن مصارف نقودنا».

وانطلقت عيناها نحوي، فعضضت خدي من الداخل. كانت ويلا بذلك ترسم خطًّا فاصلًا بيننا، كانت تقف عند أحد طرفي الخط، وتضعني عند الطرف الآخر.

مسحت النادلة يديها في مئزرها وقالت: «هل أحضر طعامًا؟».

فدس أوستر يده في جيب سترته وهو يقول: «خبز وجبن، وحساء لحم بالصلصة إذا كان متوافرًا»، ثم وضع ثلاث عملات على الطاولة.

قالت ويلا ساخرة: «ألن تشاور فيبل أولًا؟».

فعبستُ وأنا أقاوم رغبة سكب الشاي في حِجرها. إنني أتفهم سبب غضبها. كل منهم لديه الحق في أن يغضب مني، لكنني لم أكن متأكدة مما إذا كان ويست مدركًا للمخاطرة التي خاطر بها حين أجبرهم على الانخراط في هذه المهمة؛ بعد انتهاء هذه المهمة قد لا يبقى لي مكان وسط هذا الطاقم.

رنوت مرة أخرى إلى النافذة وتنهدت. عندما بعثتُ كلوف إلى الأرصفة البحرية أخبرته بأن يعود بحلول الظهيرة.

قال ويست وهو يقرأ أفكاري: «قال إنه سيأتي إلى هنا».

نزعت عينيّ عن الشارع وأعدتهما إلى الخرائط وقلت: «سنبدأ من الناحية الشرقية في ذلك الجزء، حيث كانت سفن هولاند تجرف عندما وجدت إيزولد حجر قلب الليل، وسوف نلتزم بالعمل على تجريف الشعاب المرجانية التي حددتُها. ما من طريقة لمعرفة ما إذا كانت هذه الخطوة صحيحة أم لا حتى أصل إلى هناك، ولكن هذه الناحية ظروفها مهيأة لاحتواء مخزون متنوع من الأحجار الكريمة، إذ تجري فيها مياه دافئة من التيار الجنوبي، وبها طبقة أساس من صخور النيس، وتجويف شعاب مرجانية قديم بما يكفي لينضوي على بعض الأسرار». إنه أفضل مكان للبدء، بيد أن نفسي حدّثتني بأن الأمر لن يجري بتلك السهولة.

فُتح باب الحانة فضيقت عينيّ وأنا أنظر إلى الضوء الساطع، بينما دلف كلوف وهو ينزع القبعة عن رأسه ويفك أزرار سترته بيد واحدة، وتنهدت ارتياحًا حين لمحت كوي خلفه.

جلس كلوف وهو يلتقط إبريق الشاي دون استئذان، وراح يملأ كوبًا فارغًا وهو يقول: «استغرق الأمر شطر اليوم، لكنني عثرت عليه».

كان كوي لا يزال مبتلًا بالماء، وقد وشت لي الجروح الحديثة على أصابعه أين قضى اليومين الفائتين منذ القضاء على سفينة زولا، كان يعمل على كشط هياكل السفن. لم

يفصح وجهه عن أي أثر لإحساسه بشيء من الخزي وهو يراني ألقي نظرة ممحصة على يديه، لقد كان عملًا معينًا، عملًا لم يضطلع به كوي منذ سنوات على الأرجح، لكن أبناء جزيرة جيفال قد اضطلعوا بما هو أسوأ بكثير من أجل النقود.

بجواري انتصب ويست في جلسته وجعل يتفحصه.

ونطق كوي أخيرًا وهو يدس يديه في جيبيه: «ماذا تريدين يا فيبل؟».

أجبته: «لديّ مهمة عمل لك إن أردتها».

فالتمعت عيناه السوداوان وقال: «مهمة عمل».

وانحنت ويلا إلى الأمام وقد فُغر فمها وقالت: «اعذريني، هل تباشرين الآن ضم أحدهم إلى الطاقم دون إذننا أيضًا؟».

فدمدم ويست مُسكتًا إياها: «اسكتي يا ويلا».

أعدت بصري إلى كوي وقلت: «هذا صحيح. مهمة عمل».

فقال: «آخر مرة رأيتك فيها كنت حبيسة السفينة لونا وتُجرّفين تحت إمرة زولا. هل قضيتِ يومين في باستيان فصرتِ الآن توكّلين مهمات عمل؟».

فهززت كتفي وقلت: «يبدو كذلك».

وعبر الطاولة كانت ويلا تغلي بالغضب. هزت رأسها وكزَّت بأسنانها. وحدجني كوي بنظرة لا تختلف عن نظرة ويلا.

أسندت ظهري إلى المقعد وأنا أنظر إلى الخرائط، وقلت: «المهمة تستغرق سبعة أيام، نمسح فيها اثني عشر شعبًا مرجانيًا بحثًا عن حجر كريم واحد».

فقال: «هذا لا معنى له حتى. ماذا تقصدين بحجر كريم واحد؟».

قلت: «أقصد أننا نبحث عن حجر كريم واحد، لكننا لا نعرف مكانه».

فنفخ متسائلًا: «هل تتحدثين بجدية؟».

فأومأت له برأسي إيماءة واحدة.

سألني: «وكيف ستفعلين ذلك بالضبط؟».

لم أحر جوابًا وأنا أطوي الخريطة المبسوطة بيننا قبل أن أنقر بها على الطاولة.

تمتم وهو يهز رأسه: «كنت أعرف ذلك. أنت خبيرة أحجار كريمة».

ولم أنكر ذلك.

وتابع: «أخبرت جميع سكان جزيرة جيفال بأن ثمة سببًا وراء استخراجك أحجارًا كريمة أكثر من الجيفاليين الذين كانوا يغوصون لخمسين عامًا».

لم يتهمني اتهامًا مباشرًا قط، لكنني كنت أعرف أن كوي مرتاب بشأني. الشيء الوحيد الذي اختبأت وراءه هو حقيقة أنني كنت صغيرة جدًا؛ وما كان ليصدقه أحد إلا إذا عرفوا مَن كانت والدتي.

وأردف: «لست مهتمًا بعرضك. لقد تلقيت نصف أجري من زولا قبل أن يلقي قاتله جثته في الميناء، أيًا مَن يكون قاتله. سوف أنفق معظم النقود في العودة إلى جيفال».

وهذا ما كنت أعتمد عليه. كان وراء كوي عائلة تُعوّل عليه، وهذا هو سبب قبوله مهمة العمل لدى زولا من الأساس. على الأرجح أن شقيقه يدير قارب النقل في جيفال أثناء انطلاق كوي في مهمته تلك، وفي غضون أيام سوف يتساءلون عن مكانه.

لكن إذا كنت سأقنعه بمرافقتنا فيجب أن أقدم له عرضًا مغريًا.

عندئذ قال كلوف وهو يرتشف الشاي: «سوف نضاعف الأجر الذي وعدك به زولا، وسندفعه لك الآن».

فاستدرت في مقعدي لأواجهه وأنا أتساءل: «ماذا؟»، لقد كان عرضًا أفضل بكثير من العرض الذي كنت أعتزم تقديمه.

بدا كلوف غير مكترث كالعادة، لم يرف له جفن، وقال: «لقد سمعتني».

فأخفضت صوتي وأنا أقول: «لا نملك هذه السيولة النقدية يا كلوف، ليس هنا»، حتى لو كانت السيولة النقدية متوافرة فسيسحقني الطاقم إذا أنفقت هذا القدر من النقود.

هز كتفيه وقال: «أنا أملكها».

كان يتحدث عن المكافأة التي حازها من هولاند، والتي كان سيستخدمها لتشييد أسطوله الخاص.

قلت: «كلوف...»

قال ببساطة: «أنت بحاجة إلى تلك النقود. فخذيها».

هذا هو كلوف الذي عرفته، كان ليسرق النقود لو طلبت منه ذلك.

وابتسمت له ابتسامة واهنة في امتنان، وقلت: «سوف أعيد لك ما دفعته، بالتمام والكمال».

وعبر الطاولة شعرت بأن عيني كوي تنجرفان نحوي، من الواضح أنه ينصت للعرض الآن.

أضفتُ: «وسوف نعيدك إلى جيفال مجانًا حين نعود إلى المضايق».

عض كوي شفته السفلي وهو يفكر، وقال: «ما الذي أقحمتِ نفسك فيه؟».

فسألته: «هل تقبل العرض أم لا؟».

تململ في جلسته مترددًا، كان عرضًا لا يمكن رفضه، وكلانا عرف ذلك. سألني: «لماذا؟».

فتساءلت: «لماذا ماذا؟».

تحولت نبرته إلى مرارة وهو يقول: «لماذا تقدمين هذا العرض لي؟»، وأدركت أنه اكتشف دوافعي. كان عليّ أن أتوخى الحرص في التعامل معه إذا أردت إبقاءه ملتزمًا.

أجبته: «أنت أفضل جراف رأيته في حياتي، وهذه مهمة شبه مستحيلة، وأنا أحتاجك».

التفت إلى النافذة وأرسل بصره إلى الشارع. وبجواري كان ويست يرمقني، لم يَرُقه هذا. آخر مرة رآه فيها ويست كان كوي يطاردني على رصيف جيفال يريد قتلي.

وضع كوي يديه على الطاولة ومال نحوي وقال: «حسنًا. سوف أقبل العرض. أريد الأجر الآن، وأحتاج إلى حزام أدوات تجريف جديد. أولئك الأوغاد أخذوا حزامي حين استولوا على السفينة لونا».

فابتسمت وقلت: «لكَ ذلك».

ونهض ويست مقتربًا منا خطوة حين مال كوي نحوي أكثر وهو يقول: «ثمة شيء أخير».

فنظرت في عينيه وسألته: «وما هو؟».

فتعمّق صوته وهو يقول: «نحن لا نتبادل صنائع المعروف يا فيبل. تفهمين ذلك؟ أخبرتك بأنني لم أقطع ذاك الحبل، فإذا كان هذا العرض له أي علاقة بما حدث يوم الغوص فأنا منسحب».

كان هذا طبع كوي، غروره أشد بأسًا من نهمه للنقود؛ إذا بدا من أي تلميح إلى أنني أجعله مدينًا لي فسوف يتخلى عن النقود.

فمددت يدي تجاهه وقلت: «حسنًا. أنت لم تقطع الحبل. سوف نغادر عند غروب الشمس. وستكون أدواتك ونقودك على السفينة».

فصافحني كوي، ورمقني هنيهة أخرى قبل أن يستدير على عقبيه ويتجه صوب الباب.

وحدجتني ويلا بنظرة ارتياب. سلمتُها الخرائط، وهزت رأسها هزة قبل أن تنهض واقفة.

وأتبعها ويست بناظريه وهي تغادر. ثم سألني: «ما المعروف الذي يتحدث عنه كوي؟».

قلت: «هذا الوغد أنقذ حياتي عندما حاول جراف زولا قتلي».

فقال: «هذا مناط الأمر إذن؟ تسديد دين؟».

فقلت وأنا أنهض: «كلا. قصدت ما قلتُه، إنه جراف ماهر، ونحن بحاجة إليه».

استطعت أن أرى في عيني ويست أنه يريد القصة كاملة. سوف يتعين عليّ يومًا ما أن أخبره بها، ولكن ليس اليوم.

عاد كلوف بظهره إلى الخلف وهو يرمقني.

تساءلت: «ماذا؟».

فهز كتفيه وارتسمت ابتسامة ملتوية على شفتيه، وقال: «خطرت لي خاطرة فقط».

فحنيت رأسي جانبًا وأنا أحدجه، وسألت: «ماذا خطر لك؟».

فأجاب وهو يرتشف رشفة أخرى من الشاي: «إنك تشبهينه تمامًا».

لم أضطر إلى سؤاله عمن يقصد؛ كان يتحدث عن سينت.

الثالث والعشرون



سألني كلوف وهو يضع كوبه على الطاولة: «ماذا يجب فعله أيضًا قبل أن نغادر؟».

قلت: «لن تأتي معنا».

فقطب حاجبيه الكثيفين قائلًا: «ماذا تقصدين بأنني لن آتي؟».

فقلت: «إذا اكتشفت هولاند أنك لم تذهب إلى منطقة المضايق فستفتش عن السبب. لا يمكننا المخاطرة بذلك، وأريدك أن تخبر سينت بالوضع».

فقال: «لن يروق سينت تركي إياكِ هنا، لم تكن هذه هي الخطة».

فقلت: «إذا لم تكن قد لاحظت ذلك بعد فأعلمك أنه ما من شيء يسير وفق خطة. أحتاجك أن تكون موجودًا في منطقة المضايق يا كلوف».

راح يفكر في الأمر، لم يكن هذا منوطًا بسينت فقط، بل الأمر أن كلوف لا يثق في ويست، ولا يثق في أي من أفراد الطاقم. ثم قال: «هذه فكرة سيئة. ملّاحك هذا لن يصل بك إلى كوكبة يوري».

فقال أوستر بغضب: «هذا الملاح سوف يبلي بلاء حسنًا».

وتوجّه كلوف إلى ويست بالحديث: «إن لم ترجع فيبل إلى سيروس فسيكون لهذا ثمن فادح يجب دفعه».

عندئذ قال ويست بحدة: «لقد أخرجتُ فيبل نفسها من تلك الجزيرة التي تركتَها أنت عليها. وأعتقد أنها تستطيع إعادة نفسها إلى سيروس».

ابتسم كلوف: «أحسبك محقًّا في ذلك»، ونهض وهو يغمز لي قبل أن يتجه نحو الباب: «أظن أنه يجدر بي العثور على سفينة متجهة إلى منطقة المضايق».

فقلت: «أقصد إلى سفينة من سفن هولاند. نريدها أن تعرف أنك غادرت».

وضعت النادلة طبقين كبيرين من الخبز والجبن، ثم وضعت إبريق شاي آخر. وعلى الفور مد أوستر يده إلى طبق الزبدة.

ووضع طبقة سميكة من الزبدة على قطعة الخبز وناولني إياها قائلًا: «كُلي. سوف تشعرين بتحسن».

رمقته، وسألته: «لماذا لست غاضبًا كالبقية؟».

فقال وهو يمد يده ليلتقط قطعة خبز أخرى: «أنا غاضب. ما فعلته كان خطأ يا ويست. عندما ضممتنا إلى الطاقم قلت إن الرأي شورى بيننا جميعًا، وقد أخلفت كلامك».

فسألته: «لماذا تتصرف بهدوء إذن؟».

فنظر إليّ ويست قائلًا: «لأنه لو كان باج في هذا الوضع لكنت فعلت الأمر ذاته»، ومزق الخبز ووضع قطعة في فمه.

اتكأ ويست على الطاولة وزفر زفرة قوية، وأدركتُ أنه قد استوعب تبعات ما فعله. ربما يغفر هاميش الزلة، لكن ويلا وباج لن يتفهما الأمر.

حدق ويست إلى الطاولة وذهنه متقد بالتفكير، وقال: «أنت تعلمين أنه لا يمكننا تسليم حجر قلب الليل إلى هولاند إذا وجدناه، أليس كذلك؟ إنها أقوى تاجرة في منطقة البحر

المجهول، وإذا وضعتِ حجر قلب الليل بين يديها»، وسكت هنيهة قبل أن يردف: «يمكنها أن تدمر كل شيء، دمارًا يلحقنا ويلحق منطقة المضايق».

لقد كان محقًّا. كنت أفكر في الأمر ذاته.

وتابع: «إذا حصلتْ على ترخيص للتجارة في سيروس، فهذا من شأنه أن يقضي على كل ما خططنا له. لا شيء من ذلك يهم».

حاولت أن أبدو واثقة وأنا أقول: «لن يسمح سينت بحدوث ذلك»، لكن الحقيقة هي أننا لا نعرف ما يمكن أن يفعله سينت.

مد أوستر يده عبر الطاولة لالتقاط قطعة خبز أخرى، وظهر وشم الثعبانين المتشابكين من تحت كُمه المطوي؛ ثعبانين يأكل كل منهما ذيل الآخر. كان هو ذات الوشم المرسوم على ذراع عزرا، ذاك الشاب الذي رأيته في مكتب هولاند.

خطرت لي خاطرة جعلتني أتجمد.

من شأن حجر قلب الليل أن ينقذ سينت، لكنه لن ينقذ منطقة المضايق. إذا شقت هولاند طريق تجارتها إلى سيروس فسوف يُقضى على جميع تجار المنطقة.

ناديته: «أوستر؟».

فرفع عينيه تجاهي وقال بفم مليء بالخبز: «ماذا؟».

قلت: «أخبرني بشأن هذا الوشم».

اتقدت نظرة حادة في عينيه الرماديتين وتجمدت يده في الجو، وعلى الجانب الآخر من الطاولة لاذ ويست بالصمت.

تساءل أوستر بحذر: «لماذا؟»، فانحنى ويست باتجاهي سائلًا: «بِمَ تفكرين؟».

قلت: «كنت محقًّا بشأن هولاند. لن يمضي الأمر ببساطة، إن الأمر أكبر من تسليم الحجر لهولاند مقابل ترك سينت وشأنه. إذا حصلتْ هولاند على ترخيص يسمح لها بالتجارة في منطقة المضايق، فلن يكون ما فعلناه مهمًّا؛ إذ سيؤول الأمر بنا جميعًا إلى العمل على الأرصفة حالما تشق هولاند طريقها إلى منطقة المضايق».

أومأ ويست قائلًا: «أعرف ذلك».

ثم أردف: «ما من أحد يستطع المساس بها. إنها تسيطر على التجارة في منطقة البحر المجهول، ومجلس التجارة طوع أمرها».

هز ويست كتفيه وقال: «لقد صمد مجلس تجارة منطقة المضايق لفترة طويلة. ما من شيء بأيدينا إلا أننا نأمل ألا يمنحوها الترخيص».

قلت وما زال عقلي يفكك الأفكار المتشابكة: «هذا ليس صحيحًا».

ونظر كلاهما نحوي منتظرين أن أفسر.

تابعتُ: «نحن نعلم أن هولاند تريد الإضرار بتجار سيروس»، وانجرفت عيناي وهبطتا على أوستر وقلت: «لقد كلفتْ تاجرًا لا يحمل ترخيصًا بمهمة لتيسير الصفقة التي تريد عقدها مع المجلس؛ مهمة لا تريد أن يعرف عنها أحد».

فانحرف فم أوستر متسائلًا: «مع مَن؟».

فقلت: «عندما كنا عند هولاند تم عقد صفقة مع شخص لديه هذا الوشم ذاته».

وفجأة بدا الاضطراب على أوستر وتململ في جلسته، وسأل: «ما اسمه؟».

قلت: «عزرا».

اضطربت نظرة أوستر عند سماع الاسم.

سألته: «هل تعرفه؟».

فأجاب: «نعم».

سألته: «ماذا يمكنك أن تخبرنا عنه؟».

فقال: «لا شيء، إن كنت أعرف مصلحتي. لن تحبي الانخراط مع آل روث، ثقي بي».

عندئذ ارتفع صوتي: «مهلًا، أأنت من آل روث؟».

لكن لم يبد ويست متفاجئًا ألبتة؛ كان يعرف بشأن هذا الوشم.

سأله بصوت خفيض: «أتظن أنه بوسعنا استغلالهم؟».

فرد أوستر بهدوء: «لا».

عاد ويست يتساءل: «ولم لا؟».

فأجابه: «إنهم خطر يا ويست. إن هنريك يجنح إلى ذبحك أكثر من دعوتك لاحتساء الشاي، مثله مثل هولاند».

أما أنا فرفعتُ كمَّ قميص أوستر لأمعن النظر في الوشم، ثم سألته: «كيف تعرفه؟».

بدا أن أوستر يقرر مدى ما سيطلعني عليه، ثم قال: «إنه عمي. علاقتنا ليست على ما يرام»، وأضاف: «عندما غادرتُ باستيان كان ذلك بمثابة إعلان بانفصالي عن آل روث، وما من أحد ينفصل عن آل روث».

سألته: «وعِزرا؟».

تنهد أوستر عندما رأى أنني لن أستسلم، وقال: «ليس من نسل العائلة. وجده هنريك يعمل مع حداد عندما كنا صغارًا، وضمه لأنه كان موهوبًا. وفر له هنريك أفضل فرصة تدريب ممكنة آنذاك، وعندما بلغ عزرا الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة كان يصنع أفضل القطع الفضية في باستيان، لكن هنريك لم يستطع بيعها».

تساءلتُ: «ولِمَ لا؟».

أجاب: «لسنوات طوال كانت عائلة روث أكبر مُنتِج للأحجار الكريمة المزيفة التي تُهرب من منطقة البحر المجهول إلى منطقة المضايق. لقد جعلتهم التجارة أثرياء، لكنها حالت دون حصولهم على خاتم تجارة معتمد من نقابة الأحجار الكريمة، وكان التعامل معهم محظورًا قانونيًّا».

لم يمنع ذلك هولاند أن توكل مهمة عمل لهنريك، وقد فهمت السبب. إن الرسوم التوضيحية التي عرضها عزرا على هولاند بدت بالغة الإتقان. ما من أحد قادر على صنع قطعة كهذه إلا صاحب موهبة حقيقية».

قلت: «إذن، فهو يستخدم عِزرا للحصول على خاتم تجارة معتمد؟».

أومأ أوستر برأسه وقال: «هذا ما يبتغيه، لكنه لن يحصل عليه أبدًا. إن سمعة آل روث مشهورة في جميع موانئ منطقة البحر المجهول. لن يثق أحد بهنريك أبدًا، ناهيك عن تكليفه بمهمات عمل».

قلت: «قد فعلتْ هولاند».

فقال: «لكنها لن تخبر أحدًا بشأن صانع التحفة الفنية. لن تذكُر اسم عزرا أبدًا، ولا هنريك».

إذا كان أوستر يخبرني بحقيقة الوضع، فهذا يعني أن هنريك رجل يحاول إضفاء صفة الشرعية القانونية على أعماله.

نقرتُ بأصابعي على المنضدة وتساءلتُ: «هل تعتقد أنهم قد يساعدوننا؟».

فقال: «إنهم لا يساعدون أحدًا. إنهم يساعدون أنفسهم فقط».

فقلت مفكرةً بصوت مسموع: «إلا إذا كانت لهم مصلحة في الأمر»، وأسندت ظهري إلى المقعد وأنا أمعن في التفكير. لم أكن أعرف بالضبط ما خططث له هولاند بشأن منطقة المضايق، لكن ويست كان محقًّا بشأنها، إنها غير جديرة بالثقة. وراودني شعور بأنها تنتظر لتبادر بالتحرك، وسألتُ: «هل تأخذنا إليه؟».

بدا أوستر وكأنه لا يصدق ما نطقته للتو، وقال: «يجدر بك ألا تربطك بهم صلة يا فيبل، أنا جاد».

عاودت السؤال: «هل ستفعل ذلك أم لا؟».

نظر أوستر في عينيّ مليًّا قبل أن يهز رأسه ويزفر زفرة ثقيلة، ثم قال: «لن يروق باج ذلك».

الرابع والعشرون



قال باج: «أوغاد مجانين»، منذ غادرنا الميناء، لم يتوقف فمه عن السباب، وقد استجمع أوستر كل عزمه لتجاهله ونحن نسير إلى حي الوادي الخفيض.

عندما طلبتُ من أوستر أن يصطحبنا إلى آل روث لم أتوقع أن يوافق.

لم يخبرني أوستر كيف فر من عائلته عندما غادر باستيان رفقة باج، ولم أسأله عن الأمر. لكن كان من الجلي أنه كان ماضيًا لم يرغب باج في العودة إليه. لقد عارض فكرة ذهاب أوستر إلى حي الوادي الخفيض، ولم يذعن إلا عندما أدرك أن أوستر سوف يذهب من دونه.

والآن صار لدى باج باعث آخر على غضبه مني، وترسّخت قناعتي الآن أن الهوة بيننا ربما تكون قد اتسعت إلى حد يتعذر معه رتقها. لم أقصد جرهم إلى حرب هولاند على منطقة المضايق، لكن ويست جعلهم ينخرطون في هذا الصراع عندما أمرهم بالتوجه إلى كوكبة يوري. وما يمكننا فعله الآن هو المضي قدمًا في إتمام الخطة ونأمل أن نتمكن من تصحيح أوضاع الطاقم بعد ذلك.

إذا كان في باستيان حي فقير فهو حي الوادي الخفيض، رغم أنه لا يتسم بالروائح النتنة والقذارة كما هي حال الأحياء الفقيرة في سيروس، مثل حي وادي الضنك وحي الساحل. حتى الطيور الرابضة على الأسطح بدت أنظف من الطيور في منطقة المضايق.

سار ويست بمحاذاة أوستر وهو يسدد نظرات تحذير إلى الناس المحدقين إليه؛ إذ راقبوا أوستر وهو يمر بهم، وتهامسوا، ولم أعرف ما إذا كان ذلك لأنهم تعرفوا عليه أو لأنه تبدى

بالغ الوسامة. اعتنى أوستر بمظهره وهو يستعد في غرفة الطاقم على متن السفينة؛ مشط شعره الكثيف الداكن حتى انسدل على كتفه كحجر السج المذاب، وارتدى قميصًا نظيفًا ومهندمًا. لطالما تبدّى وسيمًا، حتى في تلك الأيام التي كان يقضيها في البحر دون استحمام، لكن مظهره الآن رائع، كان فاتنًا.

تبدّى باج في حُلة مختلفة أيضًا. لاحت نظرة خاوية في عينيه لم ألمح مثلها منذ اليوم الذي تحداني فيه على إعادة العملة المعدنية التي رماها في البحر عند الجزر المرجانية. وقال متضجرًا: «ما زلت أعتقد أن هذه فكرة سيئة».

هذه الجملة جعلت صبر أوستر ينفد، وفجأة استدار على عقبيه، وكاد باج يصطدم به عندما توقف فجأة.

رمق أوستر باج في وجهه وقد زمّ شفتيه. ثم سأله: «هل انتهيت؟».

دمدم باج: «لا، في الواقع لم أنته. هل أنا الوحيد الذي يتذكر ما اقتضاه الأمر للفرار من أولئك الناس؟ كدت أموت في محاولة إخراجك من بين شباك تلك العائلة المختلة!».

فدفعه أوستر للخلف وقال: «إذا كنت خائفًا يمكنك الانتظار في الحانة».

أجاب باج: «لست أخاف على نفسي»، وخرجت الجملة صادقة دون تكلف حتى بدا أن ضجيج الشارع يهدأ من حولنا. وارتخت تقاسيم باج، وانخفضت زاويتا فمه.

أمسك أوستر بكُمّ قميص باج ثم قال: «إذا كنا سنلتقي بعِزرا فسنكون بخير».

فتساءل: «وماذا إن كان هنريك؟».

فبذل أوستر قصارى جهده ليرسم ابتسامة وهو يجيب: «نكون هالكين». وعانقه عناقًا شديدًا.

لم يسعني إلا الابتسام.

ثم قال ويست بنفاد صبر: «انتهيت؟».

ونظر أوستر إلى باج وكأنه ينتظر إجابة منه.

وتنهد باج مجيبًا: «بلى».

أفلته أوستر وهو راضٍ الآن، وتبعناه في الزقاق الضيق بين آخر مبنيين في الشارع، حيث تقع ناصيته بين لافتة المقهى ولافتة المغسلة، وقد تحول الطوب إلى اللون الأسود.

سار أوستر وكتفاه مشدودتان إلى الخلف، وكان من الواضح استنفاره الدفاعي، وقد تبدلت تعابير وجهه، وازدادت خطواته ثقلًا. أيًا يكن ما على وشك مواجهته فقد كان يتهيأ لذلك.

وصلنا إلى نهاية الزقاق حيث لاح باب حديدي تراصت على جانبيه ما بدت للوهلة الأولى مسامير مثبتة في الطوب.

وحين دققت النظر فيها وأدركت ماهيتها الحقيقية تجهمتُ، وسألت: «هل تلك...؟»

فغمغم أوستر مجيبًا قبل أن أنهي سؤالي: «أسنان».

سألته: «أسنان بشرية؟».

فرفع أوستر حاجبًا وقال: «ثمن الكذب على هنريك»، وتكورت يده قبل أن يرفعها، ونظر من فوق كتفه إلى باج مرة أخرى قبل أن يطرق الباب.

ثم قال بصوت هامس: «يجدر بك الانتظار بالخارج هنا».

فضحك باج بمرارة ردًا على ذلك، وهز رأسه هزة، وقال: «هذا لن يحدث أبدًا».

وبجواري انطلقت يد ويست إلى خلف حزامه في تأهب لاستلال السكين. وساد السكون من حولنا لا يقطعه إلا صوت خفيف لماء يتقاطر ونحن نقف أمام الباب المغلق. ولم أستطع إشاحة بصري عن صف الأسنان.

وراح باج ينقر على مشبك حزامه بقلق، لكن أوستر لم يبد قلقًا، وعقد ذراعيه على صدره منتظرًا، ولم يجفل عندما انفتح المزلاج أخيرًا.

دوّى صرير الباب أثناء انفتاحه كاشفًا من ورائه عن وجه صبي لاحت فيه ندبة غائرة ملتوية على خده. قال: «نعم؟»، وبدا غاضبًا أكثر من كونه مهتمًّا بمعرفة ما نريد.

فقال أوستر بهدوء: «أريد عِزرا. أخبره بأن أوستر هنا لمقابلته».

اتسعت عينا الصبي وتقهقر خطوة متعثرًا وهو يقول: «أوستر؟»، ونطق الاسم بطريقة تشي بأنه يعرف أمرًا بشأنه.

لم يرد أوستر، ودلف إلى المدخل ذي الإضاءة الخافتة، وتبعناه على الأثر. تراصت على الجدار سلسلة من الخطافات، حيث عُلِقت بعض السترات والقبعات أسفل مجموعة من اللوحات الزيتية ذات الأطر المذهبة. كانت رسومات للبحر بأشكال وألوان شتى، وبدت غير متناسقة على الإطلاق مع منظر الجدران المتصدعة، حتى البلاط أسفل أقدامنا كان متكسرًا، وأنماطه الفسيفسائية ناقصة بعض القطع.

تردد دبيب الصبي في الصالة قادمًا يشق الصمت المشحون بالتوتر، ثم ظهر مرة أخرى مشيرًا إلينا في الضوء الخابي. تبعه أوستر دون تلكؤ، لكنني استللت سكيني من حزامي وأبقيته بجانبي. وانعطف بنا الصبي إلى غرفة مضاءة بضوء فانوس.

كان إطار الباب فارغًا، ليس فيه سوى مفصلات لا تحمل بابًا، كاشفًا من ورائه عن غرفة كبيرة مستطيلة الشكل. اكتست الجدران بورق حائط متموج ذي حمرة قانية، واصطبغت الأرضية بلون بني ضارب إلى الحمرة، وفُرش عليها بساط صوفي سميك.

لم يكن ثمة أحد جالس على المكتب الموضوع أمام المدفأة، لكن الصبي رتبه ووضع ريشة الكتابة على الجانب الأيمن، وقبل أن ينتهي فُتح الباب الموجود في الجدار الخلفي، وظهر من ورائه الشاب الذي رأيته في منزل هولاند؛ عِزرا.

حالما دلف إلى الغرفة استقرت عيناه على أوستر، ثم قال: «لا بد أنك تمازحني».

حدجه أوستر بنظرة خاوية قبل أن تلوح ابتسامة على شفتيه.

وتقدم عزرا فاتحًا ذراعيه قبل أن يحتضن أوستر ويربت ظهره بقوة. كان ذلك وجهًا مختلفًا عن الوجه الذي قابل به عزرا هولاند في مكتبها البارحة. لكن بدا أن الحميمية بينهما تُزعج باج الذي حرك كتفيه في حركة دائرية كأنه يرغب في تسديد لكمة لشيء.

تجاهله عِزرا، وانحنى مقتربًا من أوستر وهو يقول: «ربما إحضاره معك إلى هنا لم تكن فكرة سديدة. سوف يكون هنريك هنا في أية لحظة».

فتمتم أوستر: «فليحالفك الحظ في محاولة إخراجه من هنا».

لكن سلوك عِزرا اللطيف تبدد واحتدت ملامحه عندما وقعت عيناه عليّ، لقد عرفني من أول نظرة تقريبًا، وسأل: «ماذا تفعل هذه هنا؟».

فأجابه أوستر: «إنها صديقة لي».

فقال: «أأنت متأكد؟ لقد رأيتها من قريب في مكتب هولاند».

وضع أوستر يده على كتف عِزرا وقال: «بلى، متأكد. كيف حالك؟».

لم يستطع عِزرا إشاحة عينيه عني، وأجابه: «أنا بخير يا أوستر».

ولم يبد أوستر مقتنعًا وانحنى ليجذب انتباه عزرا إليه.

فقال عزرا مؤكدًا: «بخير. أنا بخير».

فأومأ له أوستر بما ينم عن أنه تقبل إجابته، ثم قال: «لدينا مهمة لك».

تفصحه عِزرا بريبة قبل أن يعود إلى المكتب، وقال: «أي نوع من المهمات؟».

عندئذ قلتُ: «مهمة نعرف أنه يمكنك الاضطلاع بها».

تجمدت يدا عِزرا على الكتاب الموضوع أمامه عند سماع صوتي، وتبدت ندوب يديه بُنية اللون تحت ضوء الفانوس. وأخرجتُ من سترتي الورقة التي كنت قد أعددتها وفتحتها ووضعتها أمامه.

ركضت عينا عزرا فوق الورقة ببطء واتسعت، ثم قال: «أهذه مزحة؟».

وفُتح الباب من ورائه بقوة مرتطمًا بالجدار، وجفلتُ وتقهقرتُ خطوة. ولمحت التماعة نصل في يد ويست بجواري.

وقف رجل كبير السن في مدخل الباب وإحدى يديه مدسوسة في جيب مئزر جلدي. كان شاربه ملتويًا من طرفيه، وشعره ممشطًا على جانب، وتألقت عيناه المصطبغتان بزرقة فاتحة تحت حاجبين كثيفين وهو يصوبهما نحوي ثم نحو باج قبل أن تستقرا أخيرًا على أوستر.

ودندن قائلًا: «آه»، ولاحت ابتسامة عريضة على شفتيه، لكنها كانت ابتسامة خالية من الدفء الذي اتسمت به ابتسامة عِزرا. وتابع: «قال الصبي تُرو إن عزيز آل روث الضائع جالسٌ في بيتي. أخبرته بأن هذا مُحال، مُحال أن يجرؤ ابن أخي على الحضور هنا طيلة حياته».

فقال أوستر وهو يرمقه في عينيه ببرود: «أظن أنك كنت مخطئًا».

نظر هنريك إلى باج وقال: «أرى أنك أحضرت راعيك معك. تسرني إعادة تهشيم هذا الأنف. ربما يمكننا التصويب جيدًا هذه المرة».

فزمجر باج قائلًا وهو يتحرك نحوه: «ثمة طريقة واحدة فقط لاكتشاف ذلك».

لكن أوستر صده بوضع كف يده على صدره. وضحك هنريك وهو يلتقط غليونًا من الرف، وقال: «حسبت أنك قطعت علاقتك بآل روث يا أوستر».

فقال أوستر: «هذا حقيقي. ولكن هذا لا يعني أنني لا أستطيع التعاون في عمل معهم».

فتقوّس أحد حاجبيّ هنريك بفضول وهو يسأل: «ما العمل الذي يمكن أن تقدمه ويثير اهتمامنا؟».

فأومأ أوستر بذقنه إلى الورقة المبسوطة على المكتب، فالتقطها هنريك ثم قال: «ما هذا بحق الجحيم...»

هتف أوستر: «هل يمكنكم فعل هذا أم لا؟».

فضحك هنريك وقال: «بالطبع نستطيع. ما الذي يُعجزنا عن ذلك؟».

قلتُ وأنا أستعد للمساومة: «حدد سعرك».

فضيّق هنريك عينيه وهو يصوبهما نحوي وقال بنبرة تقترب من الخطر: «من التي أحضرتها إلى بيتي يا أوستر؟».

فقلتُ: «أنا فيبل، حفيدة هولاند، وأبحث عن صائغ فضة».

حنى هنريك رأسه للوراء وهو يرمقني، وقال: «ما من سعر يجعلني أقبل بهذه المهمة. إن العبث مع هولاند سوف يقضي على عملنا في باستيان، إلى الأبد».

قلت: «ماذا لو أخبرتك بأن هولاند لن تكون عقبة في طريقك بعد الآن؟».

فقال هنريك ساخرًا: «سأقول إن حماقتك تضاهي حُسنك. سوف أخبر هولاند بأنك كنتِ هنا، وسأجني من هذه الخطوة مبلغًا أكبر مما كنت سأتقاضاه منك مقابل المهمة».

كان هذا بالضبط ما كنتُ أخشى أن يقوله. لم يوجد سبب يجعله يثق بي، ولم يكن ثمة شيء يمكنني أن أقدمه له وتفوق قيمته قيمة ما يمكن أن تقدمه له هولاند، إضافة إلى أن مساعدته لنا تنطوي على مخاطرات شتى.

جال بصري في أرجاء الغرفة، ورق حائط مكشوط، وشمعدانات غالية الثمن، وسترة فخمة معلقة على خطاف صدئ. إن هنريك على شاكلة زولا، رجل يحاول ارتقاء مكانة لن يبلغها أبدًا، وهو مقتنع بأنه لن يصل إلى مبتغاه إلا بتحقيق شيء واحد بالذات.

قلت: «افعل هذه المهمة وسوف أقدم لك ما لا تستطيع هولاند تقديمه».

فتلاشت ابتسامة هنريك وحل محلها اضطراب في عضلات فكه، وسأل: «وما هذا؟».

رمقته وقلت: «خاتم تجارة معتمد من النقابة». لست متأكدة ما إذا كان بوسعي إنجاز هذا الوعد، ولكن إذا كان بوسع أي أحد إحضار خاتم تجارة معتمد من النقابة فسيكون سينت.

كان على التجار أن يتدربوا لسنوات قبل أن يتمكنوا من تقديم عرض للحصول على خاتم. وكان عدد الخواتم التي تقدمها كل نقابة قليلًا جدًّا. وفي أغلب الأحيان كان التجار يعملون تحت إشراف تجار أكبر سنًّا في انتظار موتهم أو تخليهم عن التجارة.

جمُدت يده على عود الثقاب حتى اقترب اللهب للغاية من أصابعه، ما اضطره إلى أن يطفئه، وتساءل: «ماذا؟».

قلت: «بوسعي أن أحضر لك خاتم تجارة معتمدًا إذا أنجزت المهمة، وبشرط ألا تشي بنا لأحد».

فقال بنبرة تقطر حنقًا: «أنت تكذبين».

لكن كان بوسعي أن أرى بالفعل أنني تمكنت منه. كان تشوّقه الشديد للفرصة باديًا على محياه. قلت: «لست أكذب. سأحضر لك خاتم تجارة معتمدًا من مجلس التجارة في منطقة المضايق».

فقال: «منطقة المضايق؟ نحن نعيش في باستيان يا عزيزتي».

قلت: «كلانا يعرف أن حصولك على خاتم من إحدى النقابات يسهل حصولك على خاتم من نقابة أخرى. أيهما تريد أكثر؟ نيل استحسان هولاند، أم الحصول على خاتم لترسيخ مكانتك الخاصة».

أشعل هنريك عود ثقاب آخر، ونفخ في الغليون حتى تصاعدت ألسنة الدخان، ثم قال: «هل أخبرك أوستر بما سيحدث لك إذا كذبتِ عليّ؟».

فقلت: «تفضل».

فقال بهدوء: «سوف تعثر جدتك على أشلاء من جسدك في شتى أرجاء هذه المدينة. وسوف آخذ ابن أخي هذا».

اشتدت قبضتا باج. كنت على يقين من أنه في أية لحظة سوف يدق عنق هنريك.

ثم التقط هنريك الورقة وألقى نظرة ممحصة على الرسم، لقد رسمتها من ذاكرتي فقط، مهارتي في الرسم ليست كما ينبغي، لكنهما عرفا بالضبط ما كنت أبحث عنه. قال: «ما من أحد يمكن أن يكون بهذه الحماقة إلا أحد غوغاء منطقة المضايق».

فرددت الإهانة: «ما من أحد يمكن أن يكون بهذه الرقة سوى واحد من ذوي الدم المملح»، وأردفت: «هل ستفعلها؟».

نظر هنريك إلى عِزرا الذي وقف بهدوء متكئًا على الجدار. مهما يكن ما يجول بخاطره فقد احتفظ به لنفسه.

بعد هنيهة، رفع هنريك يده وأمسك بكتف أوستر، واعتصره اعتصارًا.

ثم قال: «سوف نفعلها».

الخامس والعشرون



انبسطت أشرعة ماريجولد معًا على الصواري أثناء غروب الشمس فوق الماء. في غضون يوم واحد فقط جمعنا كل شيء سنحتاجه للغوص عند شعاب كوكبة يوري، وفي غضون دقائق سوف نبحر تحت جنح الظلام.

وافق هنريك على قبول مهمتنا، بيد أن الوثوق به سيكون بمثابة الإيمان بقدرة أحجار الأفعى المثقوبة على توفير الحماية من شياطين البحر. ما من سبيل لمعرفة ما قد يفعله آل روث.

الأمر الوحيد الذي بدا أكيدًا هو حقيقة أن الوقت يداهمنا، بطريقة أو بأخرى كانت هولاند ستنفذ خطتها، وإذا فعلت فستتغير أحوال منطقة المضايق تغيرًا جذريًّا.

رنوت إلى كلوف وهو واقف عند طرف الرصيف المائي وسترته مزرّرة حتى ذقنه. دسست يدي في جيبي وترددت أنفاسي على الوشاح الذي يطوق رقبتي وأنا أسير باتجاهه، كان البحر مصطبغًا باللون الرمادي ومضطربًا في مواجهة كتائب الظلام الزاحفة.

لم ينبس بشيء وأنا أقف خلفه، وقد تورد خداه وطرف أنفه من أثر الرياح القوية.

وسألته: «هل تظن أن سينت قادر على فعلها؟»، وراقبت وجهه وهو يرسل بصره إلى الماء ويستغرق في التفكير، وقد انسلت خصلاته الشقراء الفاتحة من تحت قبعته وتطايرت على وجهه.

قال: «لست أدري». لم يكن كلوف سعيدًا عندما أخبرته بأننا ذهبنا إلى هنريك، واشتد غضبه عندما أخبرته بما عرضته عليه.

لم أعرف ما سيقوله أبي عندما يعلم بما أفعله، وانعقد أملي فقط على أن يجاريني في هذا المسعى. إن الحصول على خاتم تجارة معتمد لمجرم هو أمر شبه مستحيل، لكن إذا أردتُ انخراط آل روث في مخططنا فلا بد أن أحضر الخاتم. قلت: «ستة أيام».

فقال مؤكدًا: «ستة أيام».

سوف ينعقد اجتماع مجلس التجارة في ساجساي هولم، وسوف يحضره جميع التجار المعتمدين في منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق. إذا نجح مخطط هولاند فسوف تنال موافقة المجلس لشق طريقها التجاري إلى سيروس، أما إذا نجح مخططي فلن تتاح لها الفرصة أبدا للإبحار في مياه منطقتنا.

سيتعين على كلوف التحرك بسرعة إذا أراد الوصول إلى سيروس والعودة إلى ساجساي هولم مع سينت في الوقت المناسب.

سألته: «ماذا تعرف عن حجر قلب الليل يا كلوف؟ بصراحة».

فتنهد قائلًا: «لا شيء يُذكر. أعرف فقط أن أمك أخذته معها عندما غادرت باستيان، وأنها حرصت على ألا يعثر عليه أحد».

سألته: «أهي أخبرتك بذلك؟».

فابتسم وأجاب: «نعم، بعد احتساء قدر كبير من الجاودار. ولم أتيقن من صدق مقالتها حقًّا إلا عندما روت هولاند القصة ذاتها».

إذا كانت إيزولد قد أخذته فقد فعلت ذلك لسبب ما، والشيء الوحيد الذي كان منطقيًّا في هذه القصة هو أنها أرادت إبعاد حجر قلب الليل عن يد هولاند. كانت قيمة حجر قلب الليل في ندرته. وبعد أن كُشف النقاب عنه أمام مجلس تجارة منطقة البحر المجهول، اختفى، ما جعله لا يعدو أن يكون أسطورة.

همست وأنا أرنو إلى المياه التي تتلألأ باللون الفضي: «لست أدري حتى لماذا أفعل ما أفعله. ما كان سينت ليفعل ذلك من أجلي أبدًا».

فالتفت كلوف نحوي ببطء ونظر إليّ قائلًا: «لا يمكن أن تكوني مؤمنة بما تقولينه حقًّا».

فتساءلت: «ولِمَ لا؟».

فهز رأسه وقال: «ذاك الرجل مستعد لإغراق أسطوله من أجلك يا فيبل. مستعد للتخلي عن كل شيء من أجلك».

أحسست بغصة تعترض حلقي وأنا أقول: «كلا، ما كان ليفعل».

نزع كلوف القبعة عن رأسه وقال: «إيزولد ليس الاسم الوحيد الذي يحظر علينا نطقه أمامه»، ثم قبّلني على قمة رأسي وقال: «توخي الحرص، وراقبي هذا الطاقم».

سألته: «أراقبهم؟».

فأجاب: «إنهم يبدون مستعدين لإلقاء ذلك القبطان في البحر، وأنتِ معه».

كززت على أسناني وأرسلت بصري إلى ماريجولد.

وأردف: «سوف أراكِ في ساجساي هولم».

أتبعته بناظريّ وهو يذهب، وقاومتُ الدموع التي تلسعني وهي تحتشد خلف عينيَّ. إن ما قاله عن أبي أمر جلل، ذو وطأة ساحقة على نفسي، لأنني حملت بين جنبيّ بصيص أمل خابٍ بأن سينت يحبني من صميم قلبه.

كان ثمة جزء من نفسي يخشي اكتشاف أن يكون هذا الحب حقيقيًّا، وكان ثمة جزء أكبر من نفسي يعلم أن اكتشاف هذا من شأنه أن يدمرني.

شرعتُ في ارتقاء السلم الحبلي درجة وراء درجة، حتى تناهى إلى أذني صوت هتاف جعلني أتجمد، ونظرت من فوق كتفي إلى الوراء فرأيت هولاند وهي تمر من مدخل الميناء المقوس في عباءتها الحمراء. قفزتُ إلى الرصيف وسلطتُ عينيّ عليها وهي تتجه نحونا وشعرها الفضي يتطاير خلفها.

أحاط بها ثلاثة حراس سدوا عرض الممر، وكان على عمال الرصيف أن يتنحوا عن طريقها.

هتفتْ ويلا منادية وهي تراقب المشهد من أعلى السور بعينين متسعتين: «ويست!».

ظهر ويست بجوارها بعد هنيهة، وحالما لمح هولاند هبط السلم ووقف بجواري، ثم سأل: «ما الأمر؟».

فهمستُ: «لست أدري».

مضت هولاند تقطع المسار المفضي إلينا وعيناها مثبتتان على البحر، وتراقص طيف غروب الشمس على محياها، ما جعل عباءتها تتألق كنصل متقد تكويه النيران. رفعتْ يدها في الهواء فتوقف الحراس، تاركين إياها تقطع ما تبقى من المسار وحدها.

ابتسمت ابتسامة ودودة حين توقفت أمامنا، وقالت: «ارتأيت أن أشهد مغادرتكم».

وحملق ويست إليها قائلاً: «أتيتِ في الوقت المناسب».

وجاء هاميش سيرًا على الرصيف من وراء هولاند وهو مشغول بوضع علامات في سجله، حتى كاد يصطدم بها قبل أن يمسكه أحد رجالها من تلابيبه ويدفعه للخلف. وحين رفع عينيه كاد يهوي ساقطًا من هول الصدمة، ودار حول هولاند بحرص وجاء ليقف خلفنا.

قلت وأنا أعود أدراجي إلى السلم الحبلي: «سوف نراكِ في ساجساي هولم».

قالت هولاند: «كل ما أطلبه قبل مغادرتكم هو وثيقة الملكية»، وبسطت كفها أمامنا مبتسمة.

فانفجرتُ متسائلة: «ماذا؟».

فأجابت: «وثيقة ملكية السفينة ماريجولد».

خطا ويست خطوة نحوها؛ فاقترب حراسها في لمح البصر وأياديهم على مقابض سيوفهم القصيرة. وقال: «تكونين قد فقدتِ صوابك إذا كنت تظنين أنني سوف...»

فقالت وقد ضيقت عينيها: «أنت لا تثق بي. وأنا لا أثق بك. لست أدري ما إذا كنت ستأتي إلى ساجساي هولم أو ما إذا كنت ستسلمني حجر قلب الليل إن وجدته. أطالب بوثيقة ملكية ماريجولد وإلا فالاتفاق بيننا لاغٍ».

اشتعل ويست غضبًا بجواري، وتصلبت عضلات كتفيه في استنفار بالغ، واصطبغ جلده بحمرة شديدة.

قلت: «لن نعطيكِ وثيقة الملكية».

فقالت: «ما من سبب للقلق إذا كنت تعتزمين الوفاء بالاتفاق يا فيبل، ما الذي يمكن أن تخسريه؟».

لكنّ كلينا كان يعرف إجابة هذا السؤال، سوف أخسر سينت.

التفت ويست إلى هاميش الذي بدا مذهولًا.

فقال هاميش وعيناه تتسعان خلف زجاج نظارته: «لا يمكنك أن تكون جادًّا».

لكن ويست بسط يده منتظرًا. وعلى سطح السفينة كان بقية أفراد الطاقم يعملون على تجهيز ماريجولد للانطلاق.

شاهدتُ بفزع هاميش وهو يدس يده في سترته ويخرج مظروفا باليًا. ومددت يدي نحو ويست وأنا أقول: «لا تفعل يا ويست»، لكنه تجاوزني وأخذ الوثيقة من هاميش وسلمها إلى هولاند.

فتحت هولاند المظروف وأخرجت الورقة المطوية بداخله، حيث لاح في زاويتها العليا من ناحية اليمين ختم مجلس تجارة منطقة المضايق، والكتابة بالحبر الأسود متقنة. وكان اسم ويست مذكورًا في خانة اسم المالك.

أعادت الورقة إلى المظروف وهي قانعة.

ومن ورائي كان ويست قد شرع بالفعل في ارتقاء السلم، واختفى وراء سور السفينة قبل أن يتردد صوته على متنها هاتفًا: «ارفعوا المرساة!».

قالت هولاند: «أراكِ في ساجساي هولم»، واستدارت وهي ترفع عباءتها وتشق طريق عودتها.

رحت أكيل اللعنات وأنا أرتقي السلم، وعندما وصلت إلى سطح السفينة كان كوي مستلقيًا بتكاسل فوق كومة من الحبال المكدسة، ويداه متشابكتان خلف رأسه. وهبطت ويلا من الصاري الخلفي وهي تحدجه قبل أن تنطلق نحو مرساة المقدمة لمساعدة باج في تدوير الرافعة.

وأخذ هاميش يغمغم بكلام غير مفهوم بعد صعوده السلم، وكلانا يراقب ويست ليرى ما سوف يفعله، لكن ويست كان ينظر في الملاحظات التي دونها باج في سجل الملاح، أما أنا فقد ارتجفت على إثر ما أحسسته من برد يزحف في جسدي.

وحدجني هاميش بنظرة حذرة.

وترامى صوت ويلا وهي تقول بحنق: «هل ستظل مكانك هكذا؟».

فالتفتُّ، ووجدتها واقفة أمام كوي.

ابتسم لها ابتسامة استهانة وقال: «نعم. إلا إذا كنت تريدين أن تدفعي لي مبلغًا إضافيًا للمشاركة في أعمال إبحار هذه السفينة».

احتقن وجه ويلا من أثر الغضب وهي تعود أدراجها إلى ذراع تدوير الرافعة. وبدا كوي متسليًا وهو ينقر بأصابعه على مرفقيه ويراقبها من طرف عينه.

وتردد صدى تحذير كلوف في ذهني. بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى ساجساي هولم قد يكون عِقد طاقم السفينة ماريجولد قد انفرط.

وتساءل باج وهو ينظر إلى الرصيف حيث كانت هولاند تسير عبر الممر: «ماذا كان الأمر؟».

لكن ويست انطلق إلى عجلة الدفة وبصره مصوب إلى الأشرعة، وأجابه: «لا شيء».

لم يكن لدى بقية أفراد الطاقم أية فكرة عما حدث للتو، ولن يخبرهم ويست بشيء. وبدا أن الارتباك قد اشتمل هاميش اشتمالًا وهو ممسك بسجل الحسابات.

سلم ويست عجلة الدفة إلى باج وهو يومئ بذقنه ناحية الجانب الأيمن ويقول: «أبق عينيك عليه».

كان يقصد كوي الذي ما زال مستلقيًا على الحبال وهو يراقب ويلا التي انخرطت في ربط الحبال.

أجابه باج بإيماءة مترددة، وفك ويست أزرار سترته واختفى في الممر الجانبي المفتوح.

ونظرت ورائي صوب هاميش الذي رفع حاجبيه. كان قلقًا. وتساءلت أي كفة ستغلب، كفة ولائه لويست أم ولائه للطاقم، هل سيتستر على ما فعله ويست أم سيخبر الطاقم بشأن وثيقة الملكية؟

تبعتُ ويست إلى غرفته، وأغلقت الباب خلفي. كان واقفًا عند الطاولة المجاورة لسريره، ومنخرطًا في تسجيل بعض أرقام القياسات في سجل الملاح، وتحركت شفتاه من دون صوت وهو يسجل الأرقام. وعندما رفع عينيه نحوي أخيرًا لمحت أن الجفوة بيننا لا تزال على حالها كما هي منذ أن كنا في الحانة صباحًا.

ثم قال وهو يغلق السجل: «قد نصل إلى هناك بحلول ليل الغد إذا استمرت الرياح بالقوة ذاتها»، وتدحرجت ريشة الكتابة على الطاولة.

أومأتُ برأسي وسكنتُ وأنا أنتظر ما إذا كان سيقول أي شيء آخر. بيد أنه التزم الهدوء، وذهب إلى مكتبه وسحب الدرج لوضع السجل في داخله. ثم عبث في الخرائط على المكتب بشرود، وخطوت جانبًا لأنظر في عينيه، بيد أنه ابتعد شبرًا آخر عنا.

تنهدت، وقلت: «لم يكن يجدر بك أن تفعل ذلك، أقصد إعطاءها وثيقة الملكية»، ولمحت منظر عضلات رقبته وهي تضطرب تحت جلده فأحسست بانفتال أحشائي والتهاب جلدي بحرارة لافحة، ثم قلت: «لن أدعك تفقد ماريجولد يا ويست، أُقسم على ذلك».

فنفخ وهو يهز رأسه وقال: «لا يمكنك أن تعديني بذلك».

فقلت: «بل يمكنني»، وعضضت على شفتي السفلية عندما بدأتْ ترتعش.

عقد ويست ذراعيه واتكأ على الجدار بجوار النافذة التي كانت تتدلى منها قلادة أحجار الأفعى، واصطكت الأحجار معًا في مهب الريح. مهما تكن الأفكار التي تجول بخاطره فقد أطفأت تألق عينيه وبثت التوتر فيه بشدة.

قلت: «عليك أن تخبرهم بشأن الوثيقة».

فقال: «هذا آخر ما يريدون سماعه».

فقلت: «لا يهم. إنهم يستحقون أن يعرفوا».

فقال بصوت لا يكاد يُسمع: «أنت لا تفهمين».

قلت: «بل أفهم».

فقال: «كلا، لا تفهمين. لديكِ سينت، والآن لديك هولاند»، ثم ازدرد ريقه وتابع: «لكن نحن؟ أنا وويلا وباج وأوستر وهاميش ... ليس لدينا سوى بعضنا بعض».

سألته: «إذن لماذا أجبرتهم على الانخراط في هذا الأمر؟».

فازدرد ريقه وأجاب: «لأنني لا أقوى على فقدانهم، ولا أقوى على فقدانك».

عندئذ انتابتني رغبة في مد يدي نحوه ولمسه، ومعانقته. لكن الجفوة كانت قوية. وقلت مرة أخرى: «سوف أستعيد الوثيقة. مهما كلف الأمر».

ودنا ويست مني حتى استشعرت الدفء المنبعث منه رغم برودة الغرفة، وقال: «حين ننتهي من هذا الأمر نقطع صلتنا بسينت»، ثم مد يديه ممسكًا بسترتي وأردف: «عِديني».

رفعت عيني إلى وجهه وقلت بصوت راسخ الثقة: «أعدك».

السادس والعشرون



ترامى البحر شاسعًا تحت الظلام الذي يشتمل السفينة ماريجولد كأنه هوة سوداء ملتحمة بسماء صافية معتمة.

ارتقيت السلم المفضي من الطابق السفلي إلى السطح فوجدت باج جالسًا رفقة أوستر عند مؤخرة السفينة وفي يد كل منهما وعاء حساء ساخن، والصمت جاثم فوق السفينة، لا يتردد في الأجواء سوى صوت السفينة وهي تمخر عباب البحر.

كان هاميش نائمًا في غرفة الطاقم منذ غروب الشمس، وتساءلتُ عما إذا كان ذلك بسبب عدم اتخاذه قرارًا بعد بشأن ما يجب فعله حيال السر الذي يخفيه ويست. إنها مسألة وقت فقط قبل أن يفصح هاميش عن الأمر.

ارتفع غطيط كوي عند مقدمة السفينة، ولم أستطع سوى رؤية قدميه الحافيتين المتقاطعتين في ضوء القمر.

وتحرك ظل فوق السطح بجواري فنظرتُ لأعلى حيث كانت ويلا مستقرة في حبالها على الصاري الرئيسي ورأسها مائل للخلف وهي ترنو إلى النجوم.

ترددتُ قبل أن أمسك الأوتاد وأتسلق الصاري في مهب الرياح الباردة التي لا تخلو من لسعة صقيع.

تجاهلتني ويلا وأنا أعثر لنفسي على مجلس بجوارها. كانت خصلات شعرها الطويل الملتوي مضفرة في ضفيرة، ما أظهر نحافة وجهها أكثر.

سألتني بصوت فاتر: «ماذا تريدين؟».

فلففت ذراعي حول الصاري وانحنيت نحوها وقلت: «أريد أن أقول شكرًا لك».

فتساءلت: «على ماذا؟».

حلق بصري في عنان السماء حيث تتشابك السحب التي تتشكل في شكل خيوط طويلة، ثم أجبتها: «لأنك أتيتِ من أجلي»، وقد أثرت عواطفي على طريقة نطقي للجملة.

لست أدري ما إذا كانت ويلا قد لاحظت ذلك. قالت: «وقد عاد هذا المسعى علينا بنفع بالغ».

فقلت: «لم أطلب منه الانخراط في الأمر. كنت سأضطلع به وحدي».

فقالت: «لست أهتم يا فيبل. لقد جعلتِ كل شيء متمحورًا حولك، كدأبك دائمًا».

نهضتُ بجذعي وانحنيت إلى الأمام للنظر في عينيها وأنا أتساءل: «ماذا؟».

فأجابت: «منذ أن وطئت قدمك هذه السفينة ونحن نفعل ما تريدين أنتِ فعله. في الواقع كنا نفعل ما تريدينه قبل أن تطأ قدمك السفينة حتى، إذ كنا نستنزف مواردنا بالعروج على جيفال».

فقلت: «لم أطلب ذلك قط».

فقالت: «لا يهم. ما كان ويست ليتوقف عن الذهاب إلى تلك الجزيرة ما دمت أنتِ فيها. وعندما كدتِ تُعرضين نفسك للقتل تعيّن علينا نقلك عبر منطقة المضايق لتبحثي عن سينت».

انبريت لأتكلم: «أنا...»

لكنها لم تعطني فرصة للحديث، وتابعت: «عندما فشل مسعاك آنذاك، من التي جاءت إليكِ وانتشلتكِ من حالة الضياع التي كنتِ فيها في تلك الحانة؟ أنا. من الذين خاطروا بحياتهم ليأخذوكِ إلى بحر شرك العواصف؟ نحن جميعًا».

قلت: «لم تُسدوا إليّ معروفًا بالذهاب إلى مكان غرق السفينة لارك في بحر شرك العواصف يا ويلا. لولاي لكانت ماريجولد لا تزال راسية في سيروس من دون أشرعة».

عندئذ صاحت: «أتمنى لو ظلت كذلك!».

أضاء ضوء القمر وجهها فأدركت أنها كانت تبكي، ولم تكن دموع غضب، بل دموع أسى وانكسار.

واختنق صوتها وهي تقول: «لو فقد ويست ماريجولد لتسنى لي المغادرة. لكنكِ أنقذتِها. وخطر لي مرة أخرى أنه حالما يتحرر ويست من قبضة سينت وتكونين معه فسأحصل على حريتي، بيد أننا عبرنا منطقة المضايق لنعثر عليكِ، وأنتِ تبرمين صفقات واتفاقات بالفعل، وتشقين طريقك الخاص، كأنما كل ذلك عبث».

غاص قلبي، وأدركت أن كلامها لا يخلو من وجاهة. لم أفكر في الثمن الذي دفعته ويلا، ولا لوهلة. لقد أخبرتني بأنها وجدت أخيرًا طريقة لمغادرة ماريجولد، أنها وجدت طريقة لتنال حريتها، وقد جئت أنا واستلبتُها ذلك، حتى إن لم أقصد ذلك.

سألتها: «لم تخبريه بأنك ستغادرين، أليس كذلك؟».

أجابت: «كلا».

فسألتها: «ولِمَ لا؟».

فنشقتْ وقالت: «أنتِ لا تعرفين ما كان عليه من قبل، عندما كان يعمل تحت إمرة سينت. ظننتُ أنه حالما يتحرر من قبضة سينت سيعود الشخص الذي أعرفه. ولكن حين اختفيتِ

في ديرن نهض ذاك المارد مرة أخرى، أما الشخص الذي كنت أعرفه ... فقد اختفى».

قلت: «لقد سمعت بشأن السفن. ماذا حدث؟».

فمسحت خدها وهي تقول: «لا يهم. هذا ليس أخي الذي أعرفه. هذا صنيعة سينت. كان مستعدًّا للتخلي عن كل شيء في منطقة المضايق للعثور عليكِ. كان مستعدًّا لاختيارك مقابلنا جميعًا»، وأردفت: «ما الذي يمكن أن يفعله أيضًا من أجلك يا فيبل؟».

لم أعرف ما أرادتني أن أقوله. لقد استوعبتُ الأمر، فهمت من نظرة عينيها ما تقصده، لقد كان تأثيري سلبيًّا على ويست كتأثير أبي عليه تمامًا. وعرفت أنها تتمنى لو لم تأتِ إليّ قط في الحانة تلك الليلة، لو لم تحثني على أن أطلب الانضمام للطاقم.

قلت: «لقد كان مخطئًا في إجبار الطاقم على القدوم إلى كوكبة يوري. وقد كان الباعث على تصرفه هذا هو الخوف فقط».

فنظرت إليّ أخيرًا وقالت: «لقد منحتِه شيئًا يخاف عليه»، والتقت عيناها بعينيّ، وكان بوسعي رؤية ألف كلمة غير منطوقة تلوح فيهما.

كانت تلك هي الحقيقة. وهذا بالضبط السبب الذي جعل سينت يعيش وفق قواعده، وهذا السبب الذي جعله يلقنني تلك القواعد.

بالأسفل انفتح باب غرفة القبطان فتدفق ضوء الفانوس على سطح السفينة، وخرج ويست من الممر الجانبي، وقد لمحتُ الإنهاك باديًا على وجهه من مكاني على الصاري.

نظر نحونا وقال: «أريد أن أتحدث معكم»، ثم هبط ببصره إلى مؤخرة السفينة حيث جلس باج وأوستر، وتابع: «معكم جميعًا».

دققت ويلا النظر إلى أخيها قبل أن تبدأ في هبوط الصاري، واجتمع الطاقم حول عجلة الدفة بهدوء وهم يتبادلون النظرات، في حين دس ويست شعره خلف أذنه بتوتر.

قال: «أريد إخباركم بشيء».

ولبثوا منتظرين جميعًا.

ثم قال في نفس واحد: «عندما أتت هولاند إلى الأرصفة أخذت وثيقة ملكية ماريجولد».

عندئذ قال باج بصوت بدا مغايرًا لصوته: «أخذت ماذا؟»، ولاح اليأس في نبرته.

وترقرقت الدموع في عيني ويلا مرة أخرى.

تابع ويست: «لقد طالبت بوثيقة الملكية، وقد أعطيتها إياها».

تجهم أوستر كأنما يسمع كلمات لا معنى لها، وبجواره راح هاميش يحدق إلى حذائه.

وواصل حديثه: «عندما نصل إلى ساجساي هولم سوف نستعيدها».

وتردد صوت باج عميقًا: «ثم ماذا؟».

فأجابه ويست: «ثم نعود إلى الوطن».

فقال باج: «هكذا ببساطة؟ وكأن شيئًا لم يحدث؟».

لبث ويست صامتًا لفترة طويلة، وانتظروا إجابته، وحين ظننته سوف يتحدث أخيرًا، استدار على عقبيه وعاد إلى غرفته.

تبادل أفراد الطاقم النظرات.

ثم قالت ويلا بحدة: «إذن نحن نعمل تحت إمرة هولاند الآن؟».

فأجريتُ يدي على وجهي وقلت: «نحن لا نعمل تحت إمرتها».

وتنحنح أوستر وقال: «بالتأكيد يبدو أننا نعمل تحت إمرتها».

فقلت لهم وأنا أرجو أن يصدقوني: «سوف نعيد الوثيقة. هولاند تريدني أنا وليس ماريجولد».

وعبث هاميش في خيط مفكوك عند حاشية سترته وهو يقول: «لقد سئمت الانخراط في أعمال عائلتك يا فيبل».

فتمتمتُ: «وأنا أيضًا».

أعرف أن الجميع يتشاركون الإحساس ذاته، لقد أمضوا سنوات تحت سيطرة سينت، والآن تستولي هولاند على أغلى شيء عندهم في العالم - مأواهم ووطنهم. إنني لم أنقذهم حين قدتهم إلى مخزون السفينة لارك، بل أوقعت بهم في فخ، ووقعت فيه معهم.

السابع والعشرون



توارت جزر كوكبة يوري في الظلام، فلم أستطع تبينها بوضوح وأنا واقفة فوق سور مقدمة السفينة أرنو إلى ضوء القمر المتهادي على سطح البحر. حتى من موقفي هذا كان بوسعي استشعارها - تلك الذبذبات الرقيقة للأحجار الكريمة المكنونة في الشعاب المرجانية بالأسفل.

ذاع صيت سلسلة الجزر هذه؛ إذ كان يُستخرج منها جزء كبير من الأحجار الكريمة المنتشرة في منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق على حد سواء. ومن الأعلى بدت قمم الجزر كأنها مجموعة متشابكة من الأوردة النابضة بنبض ثابت.

رن صوت معدن، فاستدرتُ ورأيتُ كُوي في المؤخرة حاملًا حزامه على كتفه. لقد قضى ساعات الرحلة نومًا، وحالما استيقظ سلط أفراد الطاقم أعينهم عليه، لكنه تظاهر بأنه لا يلاحظهم وهو يهبط الدرج المفضي إلى صحن السفينة.

والتمعت في يديه أدوات التجريف التي أحضرها هاميش وهو يدسها في الحزام أداة تلو الأخرى. سوف نعمل على التجريف منذ شروق الشمس حتى غروبها، دون أن تتاح لنا فرصة شحذ الأزاميل أو إصلاح المطارق على اليابسة؛ ولذا اشترى هاميش أدوات أكثر من كافية لنا نحن الثلاثة.

وارتدى كوي الحزام وشد الإبزيم وعيناه مصوبتان نحو الماء، ثم قال: «تبدو هادئة بما يكفي».

فأومأت وقلت: «نعم».

كان يتحدث عن التيارات، وكنت أفكر في الأمر ذاته. كانت حركة المد والجزر مسجلة بدقة على الخرائط التي زودتنا بها هولاند، وقد خضنا غمار مياه أشد تقلبًا عند جزيرة جيفال.

سألني: «هل ستخبرينني بالذي سوف أبحث عنه بالأسفل؟».

كنت أخشى هذه اللحظة، في الواقع كنت متيقنة من أنني إذا أخبرتُ كوي بالحقيقة في الحانة فلن تطأ قدمه ماريجولد قط. أخرجتُ سجل سفينة هولاند من داخل سترتي وسحبتُ الورقة الموجودة تحت الغلاف الجلدي.

أمسكها كوي وفتحها، ثم ضاقت عيناه وهما تتحركان فوق الرسم، وقال هازئًا: «حجر قلب الليل. أنت أشد جنونًا مما كنت أظن».

تغافلت عن الإهانة وقلت: «حجر أسود معتم، ينضوي على أطياف بنفسجية. هذا كل ما تحتاج إلى معرفته».

أعطاني الورقة وقال: «من الجيد أنك دفعتِ لي مقدمًا».

صعد أوستر من الطابق السفلي حاملًا كوبين تتصاعد منهما ألسنة البخار، ونزلتُ من السور لمقابلته. وأعطاني أحد الكوبين الساخنين وقد تأثر أنفي بالرائحة القوية للشاي الأسود.

ارتشفت رشفة فجفلتُ، وقلت: «يجدر بك ألا تقطع إمدادات الشاي الرائعة هذه عني».

فابتسم وقال: «عرفتُ أنك سترغبين في المزيد».

حل باج رباط إحدى السلال من سور مؤخرة السفينة وألقاها نحو هاميش الذي كان يكومها، ورمقني من فوق كتفه مصوبًا ناظريه على الكوب.

من بين كل الموجودين على السطح سيكون باج هو الأصعب في التصالح معه. يبدو أنه يحب كأشد ما يكون الحب وكذلك يكره كأشد ما يكون الكره.

ارتشفتُ رشفة أخرى وسألته: «ماذا كان هنريك يقصد عندما قال إن باج راعيك؟».

ارتكز أوستر على السور بجواري وخفض صوته حتى لا يسمعه باج، وأجاب: «قابلتُ باج في الميناء أثناء اضطلاعي بمهمة لهنريك. كان باج عاملًا في طاقم تحت إمرة تاجر متوسط المستوى يتردد على باستيان أسبوعيًا»، وصب الشاي في كوبه مردفًا: «ولم يمر شهر إلا وقد أحسست بأن روابط محبة الصداقة بيننا قد قويت للغاية لدرجة أنني بدأت في انتظار وصول سفينته في الميناء»، حتى في الضوء الخابي كان بوسعي رؤية وجهه يتورد خجلًا.

تساءلت: «ثم؟».

فتابع: «بعد فترة ليست بالطويلة بدأ باج في معرفة أنني أعمل مع عائلة روث. وعندما...»، وتمهل وهو يلقي نظرة من فوق كتفه ناحية باج مرة أخرى قبل أن يواصل حديثه: «وعندما اكتشف هنريك مدى قوة الأواصر بيننا لم يرض بأن يكون أحدٌ قريبًا مني لهذه الدرجة. لقد امتدت صداقتنا لمدة عام تقريبًا بحلول الوقت الذي كِدتُ أعرض نفسي فيه للقتل بسرقة مخزون من تاجر جاودار لصالح عمي. أخبرني باج من قبل أنه يريد مني قطع علاقتي بعائلتي، لكنه لم يضع خطة معينة لذلك حتى تلك اللحظة. ولكن عندما حدثت تلك الحادثة أتاني قبل أن يغادر الميناء وطلب مني ترك باستيان وعائلة روث، وإن لم أفعل فلا صداقة بيننا».

عقبتُ: «كان عليك أن تختار، بينه وبين عائلتك».

فأجاب وقد شحبت عيناه: «نعم. سمع باج أن هناك صانع أشرعة على استعداد لدفع مبلغ كبير مقابل تهريبه من باستيان، وقد تولى باج مهمة تهريبه. كاد أن يودي بحياته، لكنه أتم الأمر».

ارتفع صوتي وأنا أسأله: «ليو؟».

فابتسم أوستر.

كان ليو صانع أشرعة قبل أن يمتهن الخياطة وينشئ متجرًا في ضاحية نورث فيج بمدينة سيروس. لقد كان هو الشخص الذي أنقذ ماريجولد بقبوله مهمة صنع الأشرعة في وقت رفض فيه الجميع تلك المهمة.

وتابع: «لقد أقحم نفسه في مشكلات مع هولاند، وكان بحاجة إلى الاختفاء. ظهر باج عند باب منزلي بعد بضعة أيام ومعه ثلاث حافظات مليئة بالنقود، وقال إنه سيغادر منطقة البحر المجهول ولن يعود، وأعطاني مهلة يومًا لاتخاذ قرار».

سألته: «وأنت اختفيت هكذا ببساطة؟ دون أن يعلم أحد؟».

فأجاب: «ما عدا عِزرا. كان شاهدًا على مغادرتي، لكنه سمح لي بالذهاب، وتظاهر بأنه لم يرني أقفز من النافذة. لو أخبر أي شخص برحيلي ما تسنى لي الخروج من الميناء».

إذن، فأمر عِزرا أعقد من أمر هنريك وآل روث. وتساءلتُ: «هل يمكنك تغيير الوضع؟ أن تعود إلى عائلتك وتمكث معهم؟».

فقال: «آل روث يتشاركون الدم، لكنهم ليسوا عائلة».

لم أُلح؛ حدثتني نفسي بأنني إذا ألححت في الاستفسار فسيكشف أوستر عن كل ما طواه في نفسه منذ غادر باستيان.

ومال نحوي ملصقًا كتفه بكتفي وقال: «بيد أنني ما كنت لأفعل ذلك. أقصد العودة، وتغيير الوضع».

ازدردتُ الرغبة في البكاء. لم يكن يتحدث فقط عن باج أو روث أو باستيان، بل كان يتحدث عني أيضًا، كان أوستر أول من وثق بي من أفراد الطاقم، وبطريقة أو بأخرى ما زال يثق بي. ودفعت كتفه بكتفي دفعة بسيطة في بادرة ودية دون أن أنبس بكلمة.

تناهى إلى أذني صوت ويست من خلفي: «مستعدة؟»، واستدرت لأراه واقفًا أمام عجلة الدفة، وفي يده حزامان.

أعطيت أوستر الكوب قبل أن يقذف ويست بحزامي في الهواء، وتلقفته وأنا أنظر إلى الخط المستقيم في الأفق. كانت طلائع ضوء النهار تتقدم بالفعل في السماء المعتمة، وفي غضون بضع دقائق سوف يبدو قرص الشمس كالذهب السائل وهو يتهادى في خط الأفق.

وفوق مؤخرة سطح السفينة كان باج وهاميش يرخيان الحبال التي تؤمن الزورق وهما ينزلانه إلى الماء.

قلت مكررة الخطة وأنا أربط حزامي: «سوف أحدد الأماكن، وسوف تتبعني».

سوف يكون العمل في الشعاب المرجانية بنظام؛ إذ سأميز المناطق التي يمكن أن تنضوي على حجر قلب الليلة بقصاصات من الحرير الوردي كنت قد مزقتها من الفستان الذي أعطتني إياه هولاند، وسيتبع ويست وكوي تلك العلامات ويعملون على تجريفها. وعندما ننتهي من شعب مرجاني سوف نبدأ في التالي. لكن ثمة ما يربو على عشرين شعبًا مرجانيًّا متشابكة بالأسفل، وعلينا أن ننتهي من ستة في اليوم على الأقل إذا أردنا الانتهاء في الوقت المناسب لمقابلة هولاند.

جمعتُ شعري في جانب واحد وشرعت في تجديله على كتفي وربطه بشريط من الجلد وأنا أقول: «عندما أصل إلى النهاية سوف أعود للمشاركة في التجريف».

هبطت ويلا العتبات وهي تحمل المجدافين، وعندما مد كوي يده ليأخذهما، ألقت بهما في المسافة الفاصلة بينهما.

لكنه ابتسم ابتسامة عريضة قبل أن ينحني لالتقاطهما.

كنت قلقة من نشوب المشكلات بين الطاقم وكوي، لكن سلوك ويلا الغريب بدا أنه يسليه أكثر من كونه يزعجه. ومع ذلك، فلست أريد أن يستفزه أحدهم؛ آخر شيء أحتاجه الآن هو أن يغرز نصله في جسد أحد.

ارتقى كوي السور، ولاح وهج نور الشمس زاحفًا في صفحة السماء. وقف في مواجهة الريح وخلع قميصه ورماه على السفينة بجوار ويلا التي نظرت إلى القميص الملقى قبل أن ترفع بصرها نحوه وتثبّته عليه.

انتظرني ويست أن أرتقي السور قبل أن يتبعني. ووقفنا هنالك كتفًا بكتف نحن الثلاثة وأعيننا مصوبة إلى المياه المعتمة.

نظرت إلى ويست ثم إلى كوي وقلت: «مستعدان؟».

أجابني كوي بإيماءة، ولم يجبني ويست بأي شيء، لكنه كان أول القافزين. وقفزت أنا وكوي معًا، والرياح الدافئة تشتملنا قبل أن نرتطم بالمياه في لحظة واحدة.

كان ويست في طريق صعوده وأنا أفتح عيني تحت سطح الماء، ورمشت بقوة في مقاومة لسعة الملح قبل أن أركل بقدمي وأصعد في إثره. وازداد سطوع السماء بالفعل؛ في غضون دقائق سنحظى بضوء كافٍ لبدء العمل في الشعاب المرجانية.

كان الزورق يطفو على كثب من مؤخرة السفينة، وحالما اصطدمت المجاديف بالمياه بجوارنا سبحنا نحو الزورق ورفعنا أنفسنا على جانبه. تراءى نظام الشعاب المرجانية أشد التواء تحتنا أثناء تجديف كوي بالزورق تجاه الجزيرة، وراقبنا بقية أفراد الطاقم من موقفهم عند جانب السفينة الأيمن. كانت هذه المياه ضحلة للغاية بما يحول دون إبحار السفينة ماريجولد فيها؛ لذا ظلت راسية في المياه العميقة.

عندما وصلنا إلى أول شعب مرجاني في قائمتنا، أسقط ويست المرساة وقفز للماء.

كان الماء أدفأ في المياه الضحلة، وكانت الذبذبات الصادرة عن الأحجار الكريمة أقوى. كان بوسعي استشعارها على كل أنملة من جلدي وأنا أستنشق أول مجموعة أنفاس عميقة سريعة لتمديد رئتيّ، وقد انتابتني رهبة من برودة الأعماق التي كنت أعلم أنها تنتظرني بعد ساعات من الغوص، كانت تلك برودة تبقى عالقة في الجسد لأيام.

راح ويست يحرك قدميه بجواري وهو يميل رأسه للخلف ليستنشق رشفة أخيرة من الهواء قبل أن يغوص. وفعلت الأمر ذاته قبل أن أتبعه غوصًا في المياه المصطبغة بزرقة عميقة.

وبالأسفل رأيته وهو متجه إلى أقصى حافة الشعاب المرجانية المتوارية في الضوء الخابي، وقد انزاح شعره للخلف وهو يشق طريقه بين أشعة الشمس التي تتخلل المياه. أما أنا فقد تركت جسدي يغطس ببطء إلى أن شعرت باشتداد ضغط المياه.

ترددت الذبذبات من حولنا كأنها جوقة مائية تتألف من مائة صوت غنائي تمتزج في نغمة مثيرة للاضطراب. لم أسمع مثل ذلك من قبل، وشعرت كأنما ضربة قوية من حديد تهوي على عظامي بشدة.

كانت هذه شعابًا مرجانية قديمة، تشكلت على مدار زمن طويل، وقد امتزجت ألوان الصخور ببعضها في مشهد يشبه مشهد حقول الجاودار شمال سيروس.

وصل ويست إلى طرف الشعاب المرجانية، وراقبت يده وهي تنطلق لتلمس الحافة المرجانية القديمة برفق. ثمة آثار عمليات تجريف تمت على طول الحواف، لكن هذه الشعاب المرجانية كانت خصائصها مدهشة؛ إذ تتجدد بوتيرة تجعل كل كسر في الصخر يتوهج بلون أبيض على إثر نشوء زيادات جديدة. احتشدت الأسماك حول قمم مدببة تنمو عليها تكتلات مرجانية مروحية الشكل، وتكتلات مرجانية فقاعية، وشقائق نعمان أرجوانية بأشكال وألوان بديعة.

في مكان وسط هذه المياه الضحلة ذات التكتلات المتشابكة، وجدت إيزولد حجر قلب الليل.

عندئذ لامستْ أطراف أصابع ويست ذراعي وأنا أغوص أسفله إلى طرف الحافة. أخبرني لون القاع بأن طبقة الأساس تتألف من حجر جيري. توجد مجموعات متناثرة من معدن الكالسيت والفلوريت وحجر العقيق في هذه الشعاب المرجانية، وبوسعي سماع ذبذباتهم المميزة في كل مكان حولي من مكامنها تحت الصخور.

وضعت يدي على الحافة أمامي وأغمضت عيني، وتركت سلسلة من الفقاعات تنفلت من بين شفتيّ. قطبت جبيني وأنا أصيخ السمع وأفرز الأصوات صوتًا تلو الآخر حتى حددت رنينًا عميقًا يصدر عن شيء غريب على هذا المكان. نوع من العقيق؟ ربما يكون حجر عين الببر، لست أدري.

ثم فتحت عيني وسبحت فوق الحافة وأنا أحاول العثور على مكمنه. وتزايد ارتفاع الصوت، وأحسست به شعورًا في صدري أكثر من كونه صوتًا أسمعه، وعندما صرت على مسافة شديدة القرب منه لدرجة أنني أحسست بالشعور يمور بداخلي توقفتُ، وجعلتُ أتحسس قطعة بصلية الشكل من البازلت المكسور كامنة تحت سعفة في الشعاب المرجانية.

سحبتُ قصاصة حريرية من حزامي وربطتها ربطة غير محكمة حول السعفة حتى يتماوج طرف القصاصة مع التيار. نزل كوي بجواري ليبدأ العمل، وراح يتفحص البقعة قبل أن يخرج معولًا وإزميلًا. وعندما سحب مطرقته ركلتُ وأنا أشق طريقي إلى أسفل الشعاب المرجانية.

وتبع ظل ويست ظلي، وعندما وجدتُ بقعة أخرى مثيرة للريبة توقفتُ، وتمركزتُ حتى أتمكن من ربط قصاصة أخرى. وراقبني ويست وهو يسحب معولًا من حزامه، وحين التفتُّ لأنطلق مرة أخرى أمسكَ بيدي، وسحبني للخلف عبر تيار الماء باتجاهه.

ولامستْ أطراف القصاصات الحريرية قدميّ وهو يرفع ناظريه نحوي وأصابعه تعتصر ذراعي. كانت هذه أول مرة يلمسني فيها منذ أن أبرمت اتفاقي مع هولاند، ولاحظت أنه كان ينتظر، ينتظر ماذا، لست أدري. كان ويست يتنازعه إحساس بالضياع من دون الدعم والاستقرار الذي يستقيه من أفراد طاقمه ومن سفينته. أدرك أنني كنت جزءًا من وصوله إلى هذه الحالة، وغزاني شعور بالذنب جعلني أشعر وكأن الهواء في صدري يشتعل اشتعالًا.

شبكت أصابعي بأصابعه وضغطتُ بشدة، وارتخت عضلات فمه، ثم أفلت يدي، وسحبني التيار فوق الحافة، وبعد هنيهة كان قد اختفى.

نظرتُ إلى الأسفل والتيار يحملني فوق الشعاب، وجعلت أراقب الشعاب تحتي حتى صك مسمعي صوت صادر عن حجر كريم آخر، ثم آخر، وآخر. وعندما نظرت إلى طرف الشعاب المرجانية، حيث وُجد كوي وويست، لم أر سوى اللون الأزرق الداكن. كانت أمي تقول إنه لون البحر وهو نائم؛ لأن المياه لم تبد بهذه الدرجة من اللون إلا قبيل الفجر.

انضوت متاهة الشعاب المرجانية على كل شيء، بدءًا من الألماس الأسود وصولًا إلى أندر أنواع الياقوت. لقد شهدت هذه المياه نشأة معظم القصص التي أخبرتني بها أمي عن التجريف في منطقة البحر المجهول.

إن هذا المكان يعرف أمي.

أشعرتني الفكرة بأن قلبي يغوص بين أضلعي وأنا أربط قصاصة حريرية أخرى قبل أن أنطلق تاركة التيار يسحبني مرة أخرى. لم تخبر أمي أي إنسان عن المكان الذي وجدتْ فيه حجر قلب الليل. وتساءلتُ، ما الأسرار الأخرى التي دفنتها هنا؟

الثامن والعشرون



«فيبل».

ترامى صوت ينادي باسمي وأنا لا أزال أحلم بأنني أعوم في زرقة البحر العميقة المترامية التي يتخللها الضوء من حولي، والشعاب المرجانية ممتدة من تحتي، وأشعة الشمس تتهادى على السطح المتماوج من فوقي.

وتكرر اسمي رقيقًا بصوت ويست الأجش: «فيبل».

ثم عانقني وهو يشبك أصابعه بأصابعي، ولسعتني قروح يدي إثر التلامس.

وقال: «حان وقت الاستيقاظ».

ففتحت عينيّ بما يكفي لأرى ضوءًا خافتًا يتدفق عبر زجاج النافذة المغلقة في غرفة القبطان. وتقلبت تحت الغطاء لأواجه ويست، ووضعت رأسي على انحناءة كتفه وأنا أدس يديّ تحت جسده. وقد كانت يداي ما زالتا مخدرتين بعض الشيء، حتى بعد بضع ساعات نوم في الغرفة الدافئة.

امتلأت الغرفة برائحته، واستنشقتها في نفس عميق مريح. لقد تخفف وصار أكثر أريحية؛ إذ تصرف على طبيعته بدرجة أكبر مما كان عليه ونحن في منزل آل أزمث. ولست أدري ما إذا كان الباعث على ذلك عودته إلى البحر أم الساعات الطوال التي قضاها تحت الماء في الهدوء الشامل. ولم أكترث للإجابة.

قال وهو يزيح الشعر عن وجهي: «توشك الشمس أن تشرق».

كان اليوم الأول من مهمة الغوص قاسيًا مع تحول المد والجزر الذي أبطأ تقدمنا فوق الشعاب المرجانية. ورغم أننا عثرنا على مخابئ تحوي مخزون أحجار كريمة، فلم يكن أيٌّ من تلك المخابئ يقترب من أن يكون مخبأ لحجر قلب الليل. والأسوأ أننا لم يكن لدينا الوقت لتجريف ما وجدناه، وكان علينا ترك كل تلك الأحجار مطمورة في الصخور كما هي.

اقتربت منه أكثر وأنا أحاول أن أتجاهل شروق الشمس لأطيل مكوثي في السرير بجواره، وأمسكتُ بيده ورفعتها في شعاع الضوء المتسلل. كانت أصابعه مليئة بالجروح والخدوش من أثر العمل في الشعاب المرجانية. همستُ: «لم تنبئني قط كيف تعلمت التجريف».

أول مرة رأيته يرتدي فيها حزام تجريف كانت أثناء غوصنا إلى السفينة لارك. كان غريبًا أن يكون القبطان جرافًا؛ لأن مهنة التجريف كانت من أدنى المهن على السفن.

أجاب: «لقد تعلمت في صغري».

سألته: «لكن مَن علّمك؟».

بدا أنه يحاول تحديد مدى ما سيخبرني به من القصة، ثم أجاب: «لا أحد على وجه التعيين. لقد بدأت فقط في تتبع الجرافين في الماء أثناء غوصهم، وراقبتهم وهم يعملون. رأيت أن هذا خيرٌ من البقاء على متن السفينة وتعريض نفسي لملاحظة القبطان».

دفنت وجهي في يده وأنا أتخيله في ذاك المشهد، صغيرًا جدًّا وخائفًا من البقاء على متن السفينة؛ فاضطربتْ نفسي.

تابع: «وقد زودني ذلك بأكثر من مهارة نفعتني حين التحقت بالطاقم التالي».

طاقم سينت. ربما ضم أبي ويست إلى طاقمه بعد فترة وجيزة من تركه لي على جزيرة جيفال. في الآونة التي كنت أتلمس فيها فرص نجاتي على تلك الجزيرة كان ويست

يتلمس فرص نجاته على تلك السفينة. وتساءلتُ عن المدة التي استغرقها سينت ليطلب من ويست تنفيذ المهمة الأولى.

انبث التوتر في جسدي حين أحسست بارتجاج السرير تزامنًا مع ترامي قعقعة بعيدة. وكذلك تصلب جسد ويست وهو يصيخ السمع.

ارتكزت على مرفقي وأنا أحدق إلى الظلام، وبعد بضع ثوان دوت القعقعة مرة أخرى، كان ذلك هزيم رعد في عاصفة تزحف نحونا.

قلت: «لا»، ونزعتُ الغطاء وانطلقتُ إلى النافذة وفتحتُها.

ومن ورائي تردد دبيب ويست على الأرضية، وغاص قلبي مع تدفق الرياح في الغرفة، لم تكن مالحة، وكانت مفعمة برائحة اليابسة الرطبة. تلفعت السماء بسواد شامل تقريبًا لا يقطعه إلا تلألؤ النجوم فوق السفينة، لكن الرائحة تشي بما هو قادم بوضوح.

كانت عاصفة.

حدق ويست إلى السماء وأصاخ السمع، أما أنا فعدت أدراجي وانتزعت حزامي من حيث كان معلقًا بجوار الباب ثم خرجت إلى السطح حافية القدمين.

كان باج واقفًا عند عجلة الدفة يراقب المياه، وقال بضجر وهو يرفع يده صوب الشرق: «عرفت أن ذلك سيخرجكما من السرير».

انحنيت على سور السفينة، وسالت اللعنات من فمي حين وقعت عيناي على ما رأيته، حيث بدت قمة بيضاء تعتلي الأمواج وهي تتقدم نحونا بزاوية حادة، وتسنى لي ملاحظة تقلُّب المياه حتى في الضوء الخافت.

ظهرت ويلا على العتبة العلوية من الدرج وإبهاماها مشبوكان في حزام أدواتها وهي تتساءل: «حسنًا؟».

أجريتُ يديّ في شعري لأزيحه عن وجهي، وفي تلك اللحظة خرج ويست من الممر الجانبي المفتوح، وقال: «ليس لدينا وقت لانتظار مرور العاصفة، يمكننا التجريف قبل أن تضربنا».

فرفع باج حاجبيه متسائلًا: «هل ستُغوص؟ في خضم هذه الأجواء؟».

أرسل ويست بصره إلى الغيوم مفكرًا، وسألني: «هل سبق لك الغوص في خِضم عاصفة؟».

فتنهدتُ وقلت: «مرة أو مرتين».

سأل ويست وهو يرنو إلى باج وويلا: «والسفينة؟».

أجابت ويلا: «سوف نرى. لا تبدو الرياح منذرةً بعاصفة عاتية، نحن في مياه عميقة بما يكفي وقد طوينا الأشرعة؛ فيفترض أن تكون السفينة بخير».

لم يرقني أنها قالت يُفترض.

راح ويست يفكر هنيهة أخرى وارتدت عيناه إلى السماء. كانت مهمة الغوص مسئوليتي، بيد أنه لا يزال القبطان، والكلمة الأخيرة له. سألني: «ماذا بشأن التيار؟».

فأجبت بصراحة: «سوف تشتد قوته. سأعرف متي نحتاج إلى الخروج من الماء».

فنزع قميصه وقال: «حسنًا. فلننطلق للغوص إذن».

هبطتُ الدرج المفضي إلى الطابق السفلي، وطرقت باب الغرفة بقوة وأنا أمرق إلى الداخل. ما زال كوي وأوستر وهاميش نائمين، وقد طغى صوت ارتطام الباب بالحائط على غطيط هاميش. وأخذتُ حزام كوي من حيث كان معلقًا على العارضة الخشبية وألقيته على أرجوحته الشبكية.

استيقظ فزعًا وجلس نصف جلسة وهو يستنشق نفسًا: «ما هذا بحق الجحيـ...»

قاطعته: «عاصفة. انهض».

فتأوه ممتعضًا وتحرك في أرجوحته قبل أن تهبط قدماه على الأرضية من ورائي.

وحين عدت إلى سطح السفينة وجدت ويلا متبرّمة وهي تتسلق الصاري الرئيسي وعلى كتفيها لفافة حبل استعدادًا لتعزيز حبال الصاري.

عقص كوي شعره وهو يرمق السماء.

قالت له ويلا هازئة من فوق الصاري: «أخائف يا جرّاف؟».

فابتسم كوي بخبث وقال: «لقد أتممت عمليات تجريف في خِضم عواصف من شأنها أن تفتك بهذه السفينة فتكًا».

لقد انتهينا من اثني عشر شعبًا مرجانيًا، وبقي اثنان وعشرون، وسيكون التقدم بطيئًا مع اضطراب المياه الشديد. لا ريب أن ذلك سوف يؤخرنا عن إنجاز المهمة في الموعد المحدد، ولست متأكدة كيف سنتمكن من الإنجاز في الوقت المناسب.

ظهر أوستر بعينين غائمتين وهو يجيل بصره على سطح السفينة.

ووجّهه باج على الفور إلى مهمة يتولاها: «الزورق».

فامتثل دون تلكؤ وهو يهرول بقدمين ثقيلتين نحو مؤخرة السفينة لمساعدة ويست على إنزال الزورق إلى المياه. واضطربت حركة الزورق في المياه مع اشتداد الريح، جاذبًا الحبل الذي يربطه بالسفينة، وقد رأيت المشهد وأنا أوازن نفسي أثناء وقوفي على السور، وشعرت بشد يجتاح عضلاتي جميعًا، وانتابني خوف من القفز. بعد يوم كامل من الغوص

وقسط قليل من الراحة كان الألم يجتاح كل أنملة من جسدي، وقضاء ساعات في مياه هائجة يجعل الأمر جحيمًا.

وقبل أن أمعن التفكير في الأمر ضغطتُ بكلتا يديّ على أدواتي لتثبيتها على جسدي وقفزت. واستنشقتُ نفسًا أثناء سقوطي قبل أن أرتطم بسطح البحر، مع زحف أولى الموجات الحادة إلى السفينة.

وجعلتُ أركل بقوة لضخ الدم إلى عضلات ساقيّ المتيبستين، واستنشقتُ نفسي الأول حين عدت إلى سطح البحر. قفز ويست وكوي ورائي، ووقف بقية الطاقم عند سور السفينة والأعين ترقب السُّحب في الأفق، لقد استولى عليهم القلق.

صعدنا على متن الزورق ووضع ويست المجدافين في الحلقتين وسحبهما إلى صدره. اشتدت الريح، وراح ويست يبذل جهدًا كبيرًا في مقاومة سحب المياه.

عندما وصلنا إلى النقطة المنشودة قفزتُ إلى الماء على الفوز لكيلا أهدر أي وقت. سقطت المرساة في الماء وضغطتُ على أضلعي المتألمة بيديّ وقد شرعتُ في ملء رئتيّ.

وقلت لهما: «ابقيا على الجانب الغربي كي لا يجرفكما التيار ويخبطكما في الشعاب المرجانية. وخذا حذركما من الدوامات، سوف تشتد قوتها». وأومأتُ بذقني إلى الزاوية اليمنى للمياه على مسافة بعيدة، حيث تلوى وجه البحر بالفعل. بحلول الوقت الذي تضربنا فيه العاصفة ستكون الدوامة هائلة تسحب أي شيء يلمسها إلى قلبها.

فأومأ كوي وويست بإيماءة تفهُّم وهما يأخذان أنفاسهما بحركة متسقة تقريبًا. وأحسست بلسعة في صدري وأنا أستنشق آخر نفس هواء بارد قبل أن أغطس.

انجرفت ذراعاي فوق رأسي وتركتُ جسدي يغوص بثقله لأحتفظ بطاقتي لمقاومة التيار. لمس التيار قدمي أولًا، ثم طرح شعري بعيدًا عن وجهي وهو يشتملني. كانت الشعاب المرجانية تحتنا والقصاصات الحريرية التي علقتها فيها البارحة ترفرف، لكن الرمل كان

يعكر المياه بالفعل ناشرًا الضباب الأخضر في كل مكان، ما يشوش الرؤية. وأمسك كوي بحافة صخرة عندما وصل إلى آخر مكان كان عنده البارحة، وقد غمرته الرواسب بكثافة حتى صارت رؤيته متعذرة أثناء ابتعادنا عنه. ثم أخرج ويست نفسه هو الآخر من التيار حين رصد القصاصة الحريرية التالية.

ابتلعه الضباب، وعندما وصلتُ إلى القصاصة الأخيرة قصدتُ إلى الشعاب المرجانية. وقد تبدلت أصوات البحر واشتد صخبها مع هدير العاصفة التي كانت لا تزال على بعد أميال.

استللتُ المطرقة من حزامي واخترت أكبر إزميل، ونقرتُ بضربات سريعة لكسر القشرة المرجانية. وبمجرد انكشاف التكوين الصخري تحتها ضغطت بإبهامي على الحافة وشاهدتُ القشرة تنهار. كان الحجر المطمور في التكوين الصخري غريبًا وذبذباته طاغية في المياه من حولي. إذا كان هذا هو الحجر الذي أظنه فقد فوَّته الجرّافون بسبب التكوين الصخري غير المألوف المحيط به؛ إذ إن هذا النوع من المرو نادر وقيمته كبيرة، لكنه يتشكل في صخور الفلسبار، وليس البازلت. لم يأت أحد للبحث عن هذا النوع النادر من المرو هنا، ولم يعثر عليه أحد هنا. وإذا اختبأ المرو هنا فربما حجر قلب الليلة مختبئ هنا أيضًا.

عندما تمكنت من رؤية اللون البرتقالي الباهت المميز للبازلت أغمدت الإزميل مرة أخرى في حزامي واستللتُ مِعولًا. وما هي إلا بضع طَرقات حتى تَكشف لي الحجر الكريم أرجواني اللون، وساورني خوف ألا أجد حجر قلب الليل في الوقت المناسب.

تمايل سعف المرجان في المياه المضطربة، وسبحت الأسماك في تشتت وهي تقاوم التيار. كان ضجيج العاصفة يتردد في البحر كصود الرعد الممدود؛ ما بث الارتباك في نفسي. إن كان حجر قلب الليل كامنًا في هذه الشعاب المرجانية فلن أجده في هذه الأجواء.

استدرتُ وتركت فقاعة هواء تنفلت من بين شفتي وأنا أتكئ بظهري على الصخرة وأشاهد دورانًا للضباب الأخضر الباهت على مسافة بعيدة. في غضون بضع دقائق سوف نفقد ما

تبقى من الضوء وسنضطر إلى انتظار مرور العاصفة.

دوّى صوت حاد عبر الماء ونظرت إلى الأعلى فرأيت كوي طافيًا فوق الجزء العلوي من الشعب المرجاني ويخبط إزميلًا بإزميل آخر ليجذب انتباهي، وحالما نظرت إليه هبط مرة أخرى وتوارى وراء الشِّعب.

وصعد ويست من حيث كان يعمل سابحا باتجاهه، وتبعته وأنا أشق الماء ودقات قلبي تتردد في أذنيّ.

تهادى شعر كوي الأسود وهو يضرب مقبض الإزميل. وهبطتُ بجوار ويست، وتصلب جسدي حين رأيت الجرح في كتفه، يبدو أنه اصطدم بزاوية شِعب مرجاني.

لمستُ الجلد المشقوق بلطف، فنظر إليّ وأشار بحركة سريعة من أصابعه أن لا داعي لقلقي، ثم أعاد ناظريه إلى كوي.

كانت يداه تعملان بسرعة، ولاحظتُ انقباض صدره، كان بحاجة إلى الصعود لالتقاط أنفاسه، وبسرعة. وانحنى إلى الوراء مع انهيار قطعة أخرى من البازلت، وحين وقعت عيناي على المشهد فُغر فمي، وتدفق الماء البارد المالح حول لساني وأنا أقترب وأتطلع إلى اللون الأسود اللامع.

رنا إليّ ويست بجبين مجعد، لكنني لم أتبين ما يريده في هذا الضوء الخابي. واستللتُ الإزميل من حزامي ودفعت كوي جانبًا وأنا أشير إليه للصعود إلى الهواء قبل أن يفقد وعيه. وعمل ويست على الجانب الآخر من الحجر، وعملنا كل من جانبه حتى اقترب الإزميلان من نقطة واحدة وانفصل جزء منه وسقط بيننا، فمد ويست يده وأمسك به في راحة يده وأغلق أصابعه حوله.

فركتُ عيني التي راحت تلسعني لأزيح الرمال، وقد تشوشت رؤيتي. وعندما اندفعت سمكة مارة بيني وبين الشعب المرجاني نظرتُ لأعلى، ثمة خطب ما.

دبت حركة حومان في الماء من حولنا، لكن الشِّعب كان خاويًا، وفجأة اختفت جميع الأسماك وسرطانات البحر من المشهد، وشاهدتُ آخر سمكة تفر بعيدًا.

تجمد ويست بجواري وهو يرى المشهد ذاته.

لا يعني هذا سوى شيء واحد فقط.

نظرتُ لأعلى وتطلعتُ إلى السطح الذي كان الضوء يتماوج فوقه منذ لحظات، أما الآن فقد صار معتمًا تمامًا.

التاسع والعشرون



شققت سطح الماء وسط هدير الريح العاتية وأنا أشهق، وبرز ويست بجواري مع انتشار عروق البرق المتشابكة في الغيوم من فوقنا.

شهقتُ نفسًا مع انطلاق موجة نحونا، وغطست مرة أخرى قبل أن تلطمني. واختفى ويست مع تلاطم المياه وانكسار الموجة من فوقنا.وقد غطست لعمق أبعد مع انحسار الموجة بعد الضربة، وركلتُ في الاتجاه المعاكس، لكن ثمة موجة أخرى كانت قادمة بالفعل وارتطمت بالصخور.

شققت سطح الماء مرة أخرى وأنا أختنق بلهيب المياه المالحة في حلقي، ورأيت ويست يسبح نحوي.

صرختُ وأنا أدور في دائرة لأبحث في المياه الهائجة: «علينا العودة إلى السفينة!».

ومن بعيد كان كوي يرفع نفسه إلى الزورق، وسبحنا نحوه، وغطسنا مع مرور كل موجة كي نتفاداها، وعندما وصلنا إليه أخيرًا كان كوي قابضًا على المجدافين.

وهتف وسط الريح الهادرة: «هلُمّا».

تمسكت بحافة الزورق ورفعت نفسي، وانزلقت على الخشب وارتميتُ في قلب الزورق، بينما صعد ويست ورائي واتجه إلى الدفة.

لاحت ماريجولد من وراء المياه الضحلة وهي تتأرجح، والصواري تتمايل مع ارتطام كل موجة في بدن السفينة.

ووضع كوي المجدافين في الماء وراح يُجدف وهو يجأر في مقاومة التيار، كانت الرياح عاتية، والماء سريع الجريان جدًّا.

صرختُ وأنا أرتجف: «لن نتمكن من الوصول إلى السفينة!»، وكانت قطرات المطر كشظايا زجاج تنغرز في بشرتي.

ثبتت عينا ويست على السفينة. وعندما فتح فمه ليرد استقر الزورق فجأة، وهدأت المياه. وبدأ البحر الرمادي يسكن من حولنا، لكن الغيوم ما زالت تمور من فوقنا كلسان دخان هائج. وعم صمت شامل لا يقطعه سوى صوت أنفاسي، إلى أن رأيتها.

هناك عند الساحل كان الماء يرتفع؛ زوبعة شديدة تهرول نحونا وتجر من ورائها جدارًا مائيًّا.

هتف ويست: «جدِّف».

أدار كوي الزورق وتوجه نحو الشاطئ وهو يحرك المجدافين بقوة، لكن الأوان كان قد فات.

اندفعت الموجة نحونا بسرعة، وبدأت قمتها تنحني وهي قادمة. وراقبتُ المشهد وانحبس شهيق في حلقي مع انهيارها فوقنا.

وتناهى إلى أذني صوت ويست ينادي: «فيبل!»، لكن صوته اختفى مع انهيار الموجة فوقنا.

اختفى الزورق من المشهد، وغمرتني المياه وأنا أحس كأنما ثمة يد تسحبني إلى الأعماق. جعلتُ أركل وأتلوى في مقاومة قوة السحب وأنا أبحث عن اتجاه السطح.

وانبثق تحتي وهج وامض في الوقت الذي تحررتُ فيه من قوة السحب تلك، واندفعت نحو الوهج وأنا أركل بقوة. ولما اقتربت أدركتُ أنه ليس أسفل مني، بل كان فوقي. لقد دار العالم بي تحت الماء.

شققتُ سطح الماء وأنا أصيح باسم ويست. وندت عني صرخة حين رأيت الزورق قد انجرف إلى الشاطئ. وبجواري كان ويست ينادي عليّ، فسبحت بقوة نحو الشاطئ، وعندما شعرت بالرمال أسفل مني وقفتُ ورحت أجتر قدميّ إلى خارج الماء. وأمسكني ويست بين ذراعيه وساعدني في المسير.

كنت ألهث وأنظر في أرجاء الشاطئ وأنا أتساءل: «أين كوي؟».

لوّح بيده في الهواء وأجاب: «هنا»، وكان حبل الزورق ملفوفًا على كتفه وهو يسحب الزورق إلى الشاطئ.

هويتُ على الرمال عندما وصلنا إلى الأشجار. وقلت بشق الأنفس: «ويست، الحجر».

فقال ويده قابضة على حافظة صغيرة مربوطة بحزام التجريف: «معي».

تنهدت تنهدة ثقيلة وأنا أرسل بصري من ورائه صوب ماريجولد. لاحت لي مجرد ظل في الضباب، ووقف ويست على حافة المياه يراقبها بنظرة عجز وهي تتمايل وتتأرجح، وصدره يعلو ويهبط بأنفاس ثقيلة.

وصلت العاصفة بسرعة، بسرعة بالغة. وكانت الريح أعتى مما توقعنا.

واجتاحت زوبعة أخرى الجزيرة؛ ما أدى إلى انحناء الأشجار حتى لامست فروعها الرمال. ودوى هدير ريح مزمجرة أخرى زحفت فوق سطح البحر ولطمت السفينة.

مالت ماريجولد حتى امتدت الصواري فوق الماء على الجانب الأيمن، ثم استقامت فجأة وارتدتْ معتدلة مرة أخرى بحركة سريعة.

وتقدم ويست خطوة في الماء وعيناه تتسعان.

تساءلتُ: «ما هذا؟»، لكنني سرعان ما أدركت حقيقة الوضع وأنا أطرف بعيني لأتفادى قطرات المطر.

كانت ماريجولد تتحرك، تنجرف.

قال ويست بصوت لا يكاد يُسمع: «حبل المرساة».

لقد انقطع الحبل.

التمعت صاعقة برق أخرى من فوقنا، تبعتها صاعقة أخرى، إلى أن هدأت الريح رويدًا رويدًا. واستقرت المياه مع هدوء الأمواج شيئًا فشيئًا.

في تلك اللحظة كان ويست يدفع الزورق إلى المياه مرة أخرى.

قفزتُ في الزورق وأنا قابضة على المجدافين، وبمجرد أن طفا الزورق أعطيتهما لكوي. وشققنا المياه الضحلة، في حين راحت ماريجولد تنجرف أكثر فأكثر. كان بوسعي رؤية ويلا فوق الصاري وفي يديها منظار برونزي يلتمع.

وسرعان ما رصدتنا.

كان الطاقم ينتظرنا عندما وصلنا أخيرًا إلى السفينة، وتشبثت بأدنى درجة في السلم الحبلي ورفعت نفسي، وكانت يداي مخدرتين جدًّا لدرجة أنني لم أستشعر ملمس الحبل.

كان ويست ورائي تمامًا، وشعره ملتصق بوجهه، وحالما صعد تساءل: «المرساة؟».

فقالت ويلا بأسى: «نعم. فقدناها في الزوبعة الأخيرة».

فراح يكيل اللعنات وهو يمضي إلى السور ويطل على الماء.

قلت وأنا أسحب الحافظة الصغيرة من حزام ويست: «يا هاميش، أريد مصباح فحص الأحجار الكريمة».

اتسعت عيناه عندما فتحت الحافظة وأفرغت الحجر الكريم في راحتي، وقلبته قبل أن أمسكه بين إصبعيّ.

حملق أوستر إلى الحجر وسأل: «هل هذا....؟»

لم أكن أعرف، لم أستطع تحديد ماهيته. بدا مثل العقيق، بيد أنه اتسم بشفافية غريبة، والذبذبات التي صدرت عنه لم تكن مألوفة، هذا حجر لست أدري ماهيته. لكن بما أنني لم أرَ قط حجر قلب الليل بنفسي، فليست هناك سوى طريقة واحدة للتأكد.

قلت مرة أخرى وأنا أنطلق نحو غرفة القبطان: «أحتاج إلى مصباح فحص الأحجار الكريمة».

مرقتُ من الباب ووضعت الحجر في الطبق البرونزي الصغير على الطاولة المنخفضة، ووضع ويست المصباح على المكتب ناشرًا الضوء في الغرفة.

اتكأ كوي على الجدار المجاور لي وقطرات البحر تتلألأ وهي تنزلق على وجهه، وسأل: «ماذا تظنين؟».

فأجبت بصراحة: «لست أدري».

دخل باج وراء هاميش الذي كان حاملًا بين يديه مصباح فحص الأحجار الكريمة، ووضعه على المكتب بعناية وهو ينظر إلينا عبر عدسات نظارته المضبّبة.

جلستُ على كرسي ويست وأشعلت عود ثقاب وأخذتُ أحوم بطرفه تحت الزجاج، لكن أصابعي اهتزت بشدة وانطفأت الشعلة قبل أن تصل إلى الفتيل. قبض ويست على يدي وأدار أصابعي تجاه الضوء، فلاحت أصابعي مصطبغة بطيف أزرق.

وأجبته عن سؤاله غير المنطوق: «أنا بخير»، وبطريقة ما كانت لمسته لا تزال دافئة بعض الشيء.

سحب الغطاء من سريره ووضعه على كتفي، في حين أخذ هاميش عود ثقاب آخر وأشعل المصباح بأصابع رشيقة. اشتعل الوهج تحت الزجاج، وبسطتُ يدي كي يلتقط ويست الحجر، وانحنى بجواري قبل أن يضع الحجر الصغير على المرآة.

انتصبتُ في جلستي وحبستُ أنفاسي وأنا أنظر من المنظار وأضبط عدساته ببطء. وخيم الهدوء على الغرفة، وضيقت عينيّ في تركيز. لاحظت وهجًا خافتًا في مركزه المحاط بحواف معتمة، وقلبت المرآة في محاولة للتلاعب بالضوء، وأحسست بأن الغصة التي تعترض حلقي تتفاقم.

لا ينضوي على أطياف، ولا طيف واحد.

تمتمت وأنا أعض بشدة على شفتي: «إنه ليس حجر قلب الليل».

ارتكزت ويلا بيديها على المكتب وهي ترمقني، وسألتني: «أأنت متأكدة؟».

فأجبت بانهزام: «متأكدة. لست أدري ماهية هذا الحجر، بيد أنه ليس حجر قلب الليل. ربما هو نوع من أحجار الإسبنيل».

قال كوي من موقفه في الركن المعتم بالغرفة: «لقد عملنا على شِعبين مرجانيين اليوم».

لم يكن بحاجة إلى توضيح مغزى كلامه. أمامنا يوم واحد فقط وسيتعين علينا الانطلاق لمقابلة هولاند. إننا متأخرون، وإذا لم نعثر على حجر قلب الليل فسوف نعود أدراجنا إلى ساجساي هولم خالي الوفاض.

قال باج: «سيحل الظلام في غضون سويعات»، ونظر إلى ويست في انتظار الأوامر.

قال ويست: سوف نبدأ مرة أخرى مع شروق الشمس».

أمسك أوستر بباج من خصره وسحبه نحو الباب دون أن ينبس بكلمة، وتبعهما هاميش وويلا، فلم يتبق في الغرفة سواي رفقة ويست وكوي. ولاح الإحباط باديًا على وجه كوي، لقد كان جرافًا بارعًا ولم يتعود على الانطلاق في مهمات غوص خائبة المسعى، وهو الآن متشوق للعثور على حجر قلب الليل مثلي تمامًا. وحدق إلى الأرضية بصمت هنيهة أخرى قبل أن يزايل موقفه عند الحائط ويخرج من الباب.

ولما خرج، سألت ويست بلهجة خائرة القوة لدرجة أنني أكاد أبكي: «ماذا عن المرساة؟».

فأجاب: «ويلا تعمل على الأمر»، وأطفأ شعلة المصباح قبل أن يفتح صندوق الملابس ويسحب قميصًا نظيفًا، ثم خرج وتركني وحدي عند مكتبه.

حدقتُ إلى بركة الماء التي خلّفها وراءه على الأرضية، والضوء ينعكس على سطحها الأملس مع تأرجح الفانوس المعلق على الأرضية الخشبية.

إن هذه الشعاب المرجانية تنضوي على كمية من الأحجار الكريمة تكفي لاستمرار عمل تجار الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول لعشر سنوات أخرى.

إذن، أين حجر قلب الليل بحق الجحيم؟

لم أستطع تجاهل الشعور المزعج بأنني لن أجده في منطقة كوكبة يوري، وأن عدم عثور أطقم هولاند على أي قطعة من حجر قلب الليل خلال كل تلك السنوات منذ أن استخرجت إيزولد قطعتها ليس من قبيل المصادفة.

كانت سجلات السفن واضحة، كل شيء مسجل ولا يوجد يوم خارج عن التوثيق. كان جميع أفراد الأطقم يغوصون في كوكبة يوري لقرابة الاثنين والثلاثين يومًا قبل أن يعودوا إلى باستيان للتزود بالإمدادات، ثم يعودوا بعد يوم واحد دون انحراف عن مسارهم.

انتصبت في جلستي وأنا أحدق في العتمة وعقلي يمعن التفكير، وثمة خيوط رفيعة للإجابة بدأت تتشكل في ذهني.

إذا كان ظني صوابًا، ولم تجد إيزولد حجر قلب الليل في كوكبة يوري، فهذا يعني أن أحدهم قد كذب، ولكن كيف؟

لو زوّر الملاح السجلات لوشى به ما لا يقل عن ثلاثين شخصًا على متن سفينة هولاند، منهم القبطان ذاته.

لكن ربما كانت أمي هي الكاذبة. إذا كان لدى إيزولد أي ريبة بشأن قيمة اكتشافها فربما احتفظت بمصدر الحجر لنفسها، ربما وجدته وهي بمفردها.

مع تلك الخاطرة انتفضتُ واقفة، فضربت رجلاي الكرسي ملقية إياه على الأرضية ورائي، وعبثت يدي في الخرائط بحثًا عن الخريطة التي رأيتها منذ أيام، تلك الخريطة التي لم أنظر إليها مرتين.

وعندما وجدتها سحبتها من تحت بقية الخرائط. خريطة ساحل باستيان. وأخذت الفانوس من حيث هو معلق على الجدار ووضعته على زاوية الخريطة، وحركت أصابعي على الورقة السميكة الناعمة إلى أن وجدت البقعة المنشودة.

جزيرة فيبل الصخرية.

هتفتُ: «ويست!»، ورحت أتفحص الأعماق والرسوم المدونة على طول الساحل، وخريطة التيارات المائية المحيطة بالجزيرة الصغيرة، وهتفتُ مرة أخرى: «ويست!».

برز ويست في الممر الجانبي المفتوح بقميص غير مبتل قد أدخل ذراعًا واحدة فيه، وتساءل: «ما الخطب؟».

فقلت وأنا ألهث: «ماذا لو أن أمي لم تجد الحجر هنا؟ ماذا لو أنها كذبت بشأن مصدره؟».

تساءل: «ماذا؟».

فقلت بصوت بدا كأنه قادم من مكان سحيق: «لماذا سرقت إيزولد حجر قلب الليل؟ لماذا غادرث باستيان؟ إنها لم تثق بهولاند، لعلها لم تكن تريدها أن تعرف أين عثرت عليه».

أصغى إليّ الآن وهو يدخل ذراعه الأخرى في القميص ويسير نحوي وهو يقول: «لكن أين؟ ما دامت انطلقت في رحلة غوص فلا بد أن ذلك كان على سفينة ووسط طاقم. ومذكور في السجل أنهم كانوا هنا».

فقلت: «لقد كانوا هنا»، ورحت أفتش بين الخرائط الموجودة في الدرج إلى أن عثرت على السجل، وفتحته بيننا، وأردفت وأنا أضع إصبعي على باستيان: «ما عدا يومًا واحدًا».

قال: «من المستحيل أن تعثر عليه في باستيان، فلا توجد شعاب مرجانية في تلك المياه، لا يوجد سوى ساحل رملي ممتد لأميال».

فأشرت إلى الجزيرة الصغيرة.

تساءل: «جزيرة فيبل الصخرية؟».

قلت: «ولَم لا؟».

فقال: «لأنها مجرد صخرة عليها منارة».

قلت: «ماذا لو لم تكن مجرد صخرة».

فرفع الكرسي المطروح أرضًا قبل أن ينظر إلى الخريطة مرة أخرى وهو يفكر، وقال: «إنها قبالة ساحل باستيان مباشرة، ألا تظنين أنه إذا كان ثمة شيء فيها لوجده أحدهم؟».

فزفرت زفرة إنهاك قائلة: «ربما. وربما لا. لكنّ ثمة شعورًا يتملكني ويخبرني بأننا نبحث في المكان الخطأ. لا أعتقد أنه هنا يا ويست».

لم أكن أعرف ما إذا كان هذا الكلام يحمل وجاهة أو منطقًا. إن قلة النوم وقضاء ساعات في المياه الباردة شوشت تفكيري، ومع ذلك فقد تملكني هذا الشعور، هذا الشك.

سألني ويست وهو يتفحصني: «أأنت متأكدة؟».

فأمسكت بالغطاء وأحكمته حول جسدي وأجبته: «كلا».

لقد كان مجرد شعور. وذرعتُ المسافة أمامه وقد بدأ الدفء يسري أخيرًا تحت بشرتي مع انبثاث الحرارة في خديّ.

وقلت مرة أخرى بهمس: «لا أعتقد أنه موجود هنا».

وتواثبت عيناه بين عينيّ، وشاهدته يزن كلماتي. وبعد هنيهة سار باتجاه الباب المفتوح، وحالما اختفى من الممر الجانبي المفتوح دوّى صوته على سطح السفينة هاتفًا: «تجهزوا!».

الثلاثون



استغرقت ويلا ساعة لتدبر حلًّا لمشكلة المرساة؛ إذ أرسلت كوي وويست للغوص مرة أخرى لملء صندوق فارغ ذي إطار حديدي بصخور من قاع البحر، وحالما امتلأ، سحبناه وثبّتناه في السفينة.

كان ذلك حلًّا مؤقتًا، لن يصمد أمام عاصفة أخرى. وعندما نصل إلى ساجساي هولم سيتعين علينا استخدام آخر ما تبقى معنا من نقود لاستبدال المرساة؛ وسيؤجج هذا غضب الطاقم من أوامر ويست.

جلست منطوية على نفسي على الشباك المعلقة في الصاري الأمامي وقد اشتملني الغطاء الذي أخذته من غرفة ويست بإحكام. لم يغمض لي جفن أثناء إبحارنا طوال الليل صوب جزيرة فيبل الصخرية بعد أن تخلينا عن يومنا الأخير في التجريف عند كوكبة يوري. قضينا الأيام الأربعة المنصرمة في تجريف الشعاب المرجانية، وقد صار يفصل بيننا وبينها الآن مسافة تقدّر بساعات، حتى إذا عدنا الآن فلن يسعفنا الوقت. لقد كانت مجازفة، مجازفة وضعت حياة سينت على المحك.

تناهى دبيب قدمين إضافيتين على السطح، فنظرت لأسفل لأرى كوي عند مقدمة السفينة، وقد أخرج زجاجة صغيرة من جيب سرواله وفتحها وارتشف رشفة.

قلت: «غير مسموح بالجاودار على السفينة»، وابتسمت عندما جفل وهو يكاد يسقطها.

رفع عينيه نحوي وهو يرتشف رشفة أخرى قبل أن يتسلق ويجلس بجواري على الصاري الأمامي، وأعطاني الزجاجة، فشممتها ورفعتها في ضوء القمر.

فابتسم قائلًا: «جودته أفضل من أن يكون مصنوعًا في جيفال؟».

كان هذا الجاودار مصنوعًا صنعًا منزليًّا، وقد أثارت الرائحة فيضًا من الذكريات عن أسبيك، أحد الجرافين الذين صاروا يعملون على قارب نقل، كنت قد دمرتُ قاربه الصغير في الليلة التي وطئت فيها قدماي ماريجولد.

قلت: «ما زلت لم تخبرني بسبب قبولك مهمة التجريف على متن السفينة لونا»، وتجرعت جرعة كبيرة من الزجاجة، فسرى احتراق الجاودار من حلقي، وانفجر في صدري، وانقبضتُ وأنا ألتقط أنفاسي.

أجابني كوي: «النقود».

فضحكت معقبة: «بالتأكيد». لقد كان كوي يجني نقودًا أكثر من أي أحد آخر في جيفال، وقد حظيت عائلته بالرعاية. إذا كان يتولى مهمات على السفن فهو يسعى وراء شيء آخر أيضًا.

رمقني بنظرة وكأنه يُقيّمني، ويزن مخاطر إخباري بالحقيقة، ثم أجاب: «تسري شائعة بأن التجارة بين منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق سوف تتوسع».

تساءلتُ: «وبناء عليه؟».

فقال: «هذا يعني توافد المزيد من السفن إلى جيفال».

فابتسمتُ ابتسامة عريضة وقد فهمت ما يرمي إليه. أراد كوي أن يكون جاهزًا إذا تضاعفت السفن الراسية عند جزر الحاجز في طريقها من منطقة البحر المجهول إلى منطقة المضايق والعكس، ولسوف يحدث ذلك.

وأضاف: «أحسب أنها مسألة وقت فقط قبل أن تتحول جيفال إلى ميناء».

أعدت له الزجاجة وأنا أقول: «أنت تتكلم بجدية».

وضع السدادة في الزجاجة مرة أخرى ولاذ بالهدوء، ثم قال: «تظنين أنها بلاهة؟».

وتمنى على الفور لو أنه لم يُفصح عن ذلك وقد تولاه الإحراج. لم أرَ تلك النظرة على وجه كوي من قبل، مطلقًا. قلت: «كلا، لا أظن ذلك. أعتقد أنها فكرة عبقرية».

فقال وقد بدا مرتابًا: «حقًّا؟».

فقلت: «لقد قصدتُ ما قلته».

فأومأ لي وارتمى بجسده للوراء متكئًا على الحبال.

سألته: «هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا، وأقسم لك إنني لن أخبر كائنًا مَن كان بإجابتك أبدًا؟».

فضاقت عيناه وهو يحدجني.

واعتبرت صمته جوابًا بالإيجاب، وسألت: «لماذا قطعت الحبل ذاك اليوم؟».

فبدت على وجهه أمارات السخرية وفتح الزجاجة مرة أخرى، ولاذ بالصمت مليًّا وهو يرتشف ثلاث رشفات قبل أن يجيب: «إذا كان سيقتلك أحد، فسيكون أنا».

قلت: «إنني أتحدث بجدية يا كوي. لماذا؟».

فهز كتفيه وأجاب: «أنت جيفالية».

قلت: «كلا، لست كذلك».

فقال وبصره معلق في السماء: «ما دمت قد نمتِ على تلك الجزيرة يومًا ما وأنت لست متأكدة مما إذا كنت سوف تستيقظين مرة أخرى أم لا، فأعتقد أن هذا يجعلك جيفالية».

ابتسمت في الضوء الخابي. لأول مرة لم يتوجع قلبي من استحضار ذكرى تلك السنوات. لقد كان محقًّا، لقد نجونا معًا، وتلك كانت آصرة لا تنقطع بسهولة. في غضون أيام قليلة سيكون في طريق عودته إلى جيفال، وفوجئت بأن نفسي خالجها شيء من الأسف تجاه ذلك. لقد اكتشفتُ جانبًا من كوي في الأسبوعين الماضيين لم أره مطلقًا طيلة السنوات الأربع التي أمضيتها في جيفال. وسررتُ غاية السرور أنني سحبته من الماء في ذاك اليوم عند الشعاب المرجانية وأنقذته من الغرق، حتى إن انتهى صنيعي هذا بركضي على الرصيف البحري للنجاة بحياتي.

وترامى صوت ويلا الحاد قاطعًا الصمت: «انزلا إلى هنا».

نظر كوي بين قدميه ليراها أسفل الصاري.

أما هي فأسقطت لفافة حبل عند قدميها.

وعندما غادرت، قوّس كوي حاجبه قائلًا: «أظن أنها معجبة بي».

ضحكتُ، ولمحت نظرة انتصار تتألق في عينيه. لو أنني لا أعرف تاريخنا لقلت إننا بدونا في هذا المشهد كصديقين. واعتقدتُ أن الفكرة ذاتها قد خطرت له قبل أن يسقط الزجاجة في حجري ويهبط.

هتف أوستر باسمي من موقفه بجوار باج عند عجلة الدفة: «فيبل»، وأومأ بذقنه تجاه الأفق، فاعتدلت في جلستي ورحت أبحث عما رآه.

لاحت جزيرة فيبل الصخرية مع أفول القمر. وانبثقت المنارة القديمة بيضاء ناصعة تتألق في الظلام، وتقع على لسان نحيف ممتد في المياه من الجانب الشرقي للجزيرة.

هبطت الصاري، وجاء ويست إلى صحن السفينة، ووضع قبعته على شعره الجامح وهتف: «اطووا الأشرعة».

تسلقتُ الصاري الرئيسي وفككت الحبال حتى أتمكن من تحريك قماش الشراع لأعلى، واضطرب خفقان قلبي مع تردد صوت احتكاك الحبال بالحلقات المعدنية. وعلى الصاري الآخر فعل هاميش الأمر ذاته وهو يرمقني من طرف عينه، كأن الخاطرة ذاتها تدور في عقله كما تدور في عقلي، كنتُ إما ذكية أو غبية باتخاذي قرار مغادرة كوكبة يوري. وكنا جميعًا على وشك معرفة الإجابة.

ابتسم فجأة وغمز لي وكأنه يسمع أفكاري.

وابتسمت بتكلف وأنا أهبط الصاري، في حين كان بقية الطاقم يفكون ذراع تدوير المرساة. وخلعت قميصي وكل أنملة من جسدي تئن بآلام الأيام الأربعة الماضية. وأخذ ويست القميص مني وسلمني حزامي، فارتديته في صمت. كنت متوترة، وكان ذلك شعورًا لم يساورني مطلقًا في مهمة غوص.

سقطت المرساة المؤقتة في الماء، وعندما شرع ويست في ارتداء حزامه، أوقفته، وقلت: «دعني ألقي نظرة أولًا».

لاحت الهالات السوداء تحت عينيه، وكان الجرح في كتفه منتفخًا، رغم أن أوستر بذل قصارى جهده لتنظيفه. كان منهكًا، وإذا كنت مخطئة بشأن الجزيرة الصخرية الصغيرة فلست أريد أن يرى ويست ذلك.

لم يجادلني، وأومأ لي بالإيجاب. وارتقيت السور، وقفزت قبل أن أفكر في الأمر. ارتطمتُ بالماء، وأحسست بالألم في ذراعيّ ورجليّ وأنا أركل. وعندما شققت السطح مرة أخرى كان أفراد الطاقم جميعًا يشاهدونني.

حولت وجهي عنهم وأنا أحاول تهدئة أنفاسي. إذا أخفقت في هذا المسعى فسأكون قد خذلت سينت، وخذلتهم جميعًا، مرة أخرى.

غطستُ في الماء وصدري ممتلئ بالهواء، وتجمدتُ حين ساورني ذلك الشعور.

حين استشعرت وجودها.

أحسست بتلك الهمسات الدافئة في كل مكان من حولي وهي تشتملني في هذا العمق البارد. يمكنني استشعار إيزولد، أستشعرها كأنها موجودة تغوص بجواري.

كانت دقات قلبي تتسارع وأنا أسبح وأشق المياه الراكدة بذراعيّ. كانت المياه في هذه المنطقة ساكنة للغاية وهي محمية بحدود الجزيرة الصخرية المنحنية. مما أراه أقول إن العاصفة لم تصل إلى هذا الشرق الأقصى، ولذا ظلت المياه صافية ونقية، وتلألأت تحت أشعة الضوء التي تخترق اللون الأزرق الخفيف.

ولم أرَ في قاع البحر سوى طمي متماوج بالأسفل، ولم ألمح أي شعب مرجاني أو شيء من هذا القبيل في الأرجاء. وكانت الرمال محاطة بجدران صخرية سوداء صاعدة نحو السطح، حيث كانت الأمواج تكتسي من فوقي بزبد أبيض.

إذا كان ثمة أية أحجار كريمة يمكن العثور عليها هنا فليس لديّ أدنى فكرة عن مكمنها، ولست أستشعر ذبذباتها. وعندما قطعت نصف المسافة تقريبًا حول الجزيرة نظرتُ إلى المشهد لأجده كسابقه بلا تغيير. صعدت لألتقط أنفاسي عندما أحسست بأن رئتي تكاد تنفجر في صدري استجداء للهواء، ثم غطست مرة أخرى. وعلى الفور استشعرت ذلك الشعور مرة أخرى، ذلك الصمت المألوف، كأنها همهمات تصدر عن أمي وأنا أتعمق في البحر. تركت جسدي يغوص إلى القاع، وضغط العُمق يشتد على جسدي وأنا أتفحص بعينيّ الحافة الصخرية المطوقة للجزيرة.

ثم رأيت أن الحافة الصخرية تنفتح على كهف واسع منحدر إلى مياه عميقة، وقد تحول لون المياه إلى السواد، حيث بدت طيات الظلام تتلوى وتنفتل. ومن فوقه لاح الجدار الصخري ذا طبيعة حادة ومتعرجة.

أحسست بتدفق تيار مائي بارد أمامي، ومددت يدي لأتحسسه، كان رقيقًا ويتحرك على نحو غير منتظم. وقطبتُ جبيني وأنا أراقب المياه من حولي، ولمحت بطرف عيني شيئًا يتحرك، فسكنت حركتي.

لمحت على حافة الصخرة خصلة من الشعر الأحمر الداكن تلتمع في الشعاع المتدفق عبر الماء. واحترق الهواء في صدري وأنا أستدير ليتسنى لي رؤية ما حولي بحركة محمومة؛ لوهلة خُيّل إليّ أنني أراها، كلسان دخان يتبدد في الهواء.

إيزولد.

ثم ارتكزت بقدميّ على الصخرة من تحتي ودفعت جسدي، فانزاح الشعر عن وجهي وأنا أسبح عائدة نحو السطح. كان الجرف تحت سطح الماء ناتئًا باستقامة، وعندما وصلت إلى الحافة مددت يدي وأمسكت بها، ووجدت أن ثمة تجويفًا هنالك، لكنني لم أجد شيئًا في الداخل سوى الظلام، لم أجد ذبذبات صادرة عن حجر كريم، ولا شيء يلتمع.

إذا كانت هولاند قد أخبرتني بالحقيقة فإن إيزولد كانت تأتي إلى هذا المكان وتلتمس فيه ملاذًا، فتبتعد عن شوارع باستيان الطافحة بالأضواء وتكون بمنأى عن عين أمها. لعل هذا المكان هو المكان الذي حلمتْ فيه أمي باليوم الذي ستهجر فيه باستيان وهولاند، المكان الذي حلمت فيه بقضاء أيام تحت الشمس على سطح سفينة تحس فيها بالحرية وقضاء الليالي في غرف تلك السفينة، ولعلها كانت تحلم بي.

ترددت دقات قلبي بصخب في أذنيّ، وكانت آخر أنفاسي توشك أن تنفد. واشتعلت الحرارة في وجهي رغم برودة الماء، وزممت شفتيّ وأنا أرنو إلى الضوء الذي يتخلل السطح من

فوقي. كانت هنا، طاف طيف أمي في هذه المياه. ولكنني استشعرت وجودها هنا بدرجة أكبر مما استشعرته في بحر شرك العواصف حيث وافتها المنية.

ثمة جزء من روح إيزولد يحوم في المكان هنا، وهذا الجزء نادر، لم أدركه ولن أدركه أبدًا. وحملقتُ إلى المياه السوداء، وشعرت بمشاعر الوحدة المستبدة التي بدا أن هذا الظلام قد يسحبني إليها، وكأن أمي تنتظرني هناك في هذا الظلام الدامس.

الواحد والثلاثون



وقفت أمام النافذة في غرفة ويست، وجميع الأعين مسلطة عليّ. وتقاطر الماء من شعري بسرعة متزامنة مع خفقان قلبي، حتى تجمعت بركة مياه تحت قدميّ.

استدعى ويست الطاقم إلى غرفته، لكن كوي حبَّذ المكوث في الطابق السفلي.

قالت ويلا بصوت خفيض: «إذن هذا كل شيء؟ كان هذا كله عبثًا؟»، وقد ارتسم على محياها ومُحيا باج الاستياء الهادئ ذاته.

نظرتُ إلى انعكاسي المتماوج على بركة المياه المتجمعة تحتي. كانت محقة. لقد أبرمتُ اتفاقًا مع هولاند ولم أنجزه من جانبي، ولن يكون سينت هو الوحيد الذي سيخسر، إذ لا يزال يتعين علينا استعادة وثيقة ملكية ماريجولد.

تقطّعت بنا السبل، ولم يعد أمامنا سوى وضع ثقتنا في هنريك.

قلت: «لا يزال لدينا آل روث».

فقال باج بفتور: «إذا كان هذا كل ما لديك، فليس لديكِ شيء».

ولم يجادله أوستر في ذلك.

قلت: «عندما نصل إلى ساجساي هولم سوف أتحدث مع هولاند، سوف أتدبر أمرًا ما معها».

وتحدث ويست أخيرًا: «ما الذي يعنيه ذلك؟».

لكنني لم أحر جوابًا. الحق أنني كنت سأفعل أي شيء لاستعادة تلك الوثيقة، وعلى الأرجح كانت هولاند تعلم ذلك. ليس معي حجر قلب الليل لأقايض به الوثيقة، وهذا يجعلها صاحبة القوة كلها.

سألني أوستر بهدوء: «ما الذي ستفعلينه يا فيبل؟».

فأجبت بكل بساطة: «أيًّا ما ستطلبه هولاند مني».

غمغمت ويلا: «أنانية».

فانفجر ويست قائلًا بغضب: «أنت غاضبة مني يا ويلا وليس منها».

مد أوستر يده نحوها وهو يقول: «ويلا»، لكنها دفعته.

ثم قالت: «كلا! لم يكن هذا ما اتفقنا عليه. قلنا إننا سنعثر على فيبل ونعود إلى سيروس لإنهاء ما بدأناه».

فقال ويست: «أنا آسف»، وأعقب ذلك صمت رهيب، واتجهت إليه كل الأعين. وأردف: «كانت غلطة أن أصدر أمرًا بتوجيه السفينة إلى كوكبة يوري دون تصويت».

فنفخ باج وقال: «كانت غلطة وقد تعاودها».

فقال ويست: «لن يحدث ذلك مرة أخرى. أعدكم».

ونظرت ويلا إلى أخيها وهي تزدرد ريقها بصعوبة قبل أن تقول: «لن أكون موجودة لأعرف ما إذا كنت ستفي بوعدك».

فقال بسأم: «ماذا؟».

فقالت: «عندما نعود إلى سيروس سوف أغادر».

تصلّب ويست، وحدجها بنظرة حادة، وانحبس الكلام في فمه.

ثم أردفت بهدوء: «لقد اكتفيت يا ويست. اكتفيت من ملاحقتك من ميناء إلى آخر، والسماح لك بالاعتناء بي»، وتعمّقت الكلمات بزخم العواطف البادي في صوتها وهي تقول: «أريد أن أغادر ماريجولد».

بدا ويست وكأنه تلقّى صفعة منها.

وبدا أن بقية أفراد الطاقم صُدموا مثل ويست، وتبادلوا النظرات ولا أحد يعرف ماذا سيقول.

تقدم هاميش أخيرًا وهو يتنحنح قائلًا: «لدينا ما يكفي من النقود لاستبدال المرساة والعودة إلى منطقة المضايق. وسيتعين علينا الوقوف عند الجزر المرجانية لتجريف بعض الأحجار الكريمة لزيادة خزينتنا».

أجاب ويست: «حسنًا»، واستدار نحو النافذة في إشارة إلى السماح لهم بالانصراف.

خرجوا تباعًا، ونظرت ويلا إلى الخلف من فوق كتفها قبل أن تتبعهم.

ناديته: «ويست»، وانتظرته ليرنو إليّ، وعندما لم يفعل مِلت نحوه ووضعت رأسي على كتفه. فضغط شفتيه على قمة رأسي واستنشق نفسًا عميقًا.

وقفنا هناك على هذه الحال هنيهة أخرى قبل أن أغادر الغرفة. ومضيت نحو الطابق السفلي، حيث أضاء الفانوس في غرفة الطاقم ناشرًا الضوء من خلال فتحة الباب الموارب التي نظرت إلى الداخل عبرها.

كانت ويلا واقفة أمام صندوقها ويداها قابضتان على خنجرها، وجعلت تُقلبه ببطء والأحجار الكريمة التي ترصعه تتلألأ في الضوء.

فتحتُ الباب وجلست على أرجوحتي الشبكية تاركة قدميّ تتأرجحان فوق الأرضية.

قالت بنبرة متذبذبة: «أعرف. لم يكن يجدر بي فعل ما فعلته».

قلت: «كنتِ غاضبة».

فقالت: «هذا لا ينفي أن ما فعلته كان خطأ».

ووضعت حزام أدواتها داخل الصندوق وأغلقته قبل أن تجلس على الغطاء في مواجهتي، وتابعت: «أعلم أن ما سأقوله سيئ، لكن أعتقد أن ثمة شيئًا من السرور خالجني عندما حدث كل هذا»، وأغمضت عينيها وأردفت: «كأنما صار لديَّ سبب وجيه أخيرًا».

فهمت مغزى كلامها، كانت تخشى إخبار ويست بأنها مغادرة، وعندما عارض ويست الطاقم شعرتْ بأن لديها حجة تبرر خطوتها.

وهمستْ: «أنا الأنانية».

ركلتها برفق في ركبتها بقدمي، وقلت: «لستِ أنانية. أنت تريدين أن تشقي حياتك الخاصة، وسوف يتفهم ويست ذلك».

فقالت ويلا: «ربما»، وكانت خائفة، خائفة من خسارته، وخوفها في هذا الصدد لا يقل عن خوفه من خسارتها.

سألتُها: «ماذا ستعملين؟».

فهزت كتفيها وقالت: «على الأرجح سأعمل مع صانع سفن أو حداد، ربما أقضي فترة تدريب مهني تحت إشرافهم».

وابتسمتْ ابتسامة عريضة وقالت: «ربما ستصنعين لنا سفينة يومًا ما».

فابتسمت لذلك.

ولذنا بالصمت ونحن نستمع إلى أزيز البحر حول بدن السفينة. ثم قلت: «سيكون غيابك عصيبًا عليه».

فعضت ويلا على شفتها السفلية وقالت: «أعرف».

وتزحزحتُ جانبًا لأفسح لها مكانا على الأرجوحة، وترددتْ قبل أن تنهض وتجلس بجواري.

وهمستْ: «هل تظنين أنه سوف يسامحني؟».

فنظرتُ إليها وقلت: «ليس ثمة ما يسامحك عليه».

في أعقاب رحلتنا عند السفينة لارك أخبرتني ويلا أن هذه لم تكن الحياة التي اختارتها. لكنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة في ذاك الزمان، وقتما كانا متشردين من متشردي حي الساحل، لقد آن الأوان لتشق طريقها.

الثاني والثلاثون



كان بوسعي استشعار نظرة ويست مسلطة عليّ وأنا واقفة عند مقدمة السفينة أشاهد مدينة ساجساي هولم وهي تلوح في الأفق.

كانت القرية الصغيرة مغمورة بضوء الشمس التي توشك أن تغرب، والمباني المشيدة بالطوب الأحمر متراصة بجوار بعضها كأنها حجارة مكدسة بطريقة غير منتظمة وآيلة للسقوط. لكن عينيَّ كانتا مركزتين على سفينة واحدة فقط في الميناء، ذات خشب مطلي بطلاء غامق ومحفور في مقدمتها نقش لشياطين البحر، ولاح على شراع الصاري الأمامي شعار هولاند.

ما فتئ اضطراب بطني يشتد في الساعات التي انقضت منذ مغادرتنا جزيرة فيبل الصخرية. لقد وقفت أمام مكتب جدتي وأخبرتها أن بوسعي العثور على حجر قلب الليل، كنت قد أبرمت الاتفاق مرهونًا بمقامرة، وقد خسرتُ.

إذا وصل كلوف إلى سينت في الوقت المناسب وأحضر خاتم تجارة معتمد نستخدمه في مساومة هنريك، وإذا أوفى آل روث بوعدهم؛ فمن شأن هذا أن يتيح لنا فرصة لتسديد ضربة قاضية لهولاند. لكن هذا لن يجعل حياة سينت بعيدة عن الخطر، إذا كان ثمة شيء لا يجيده أبي فهو الالتزام بقواعد الآخرين؛ فسلوكياته يتعذر التنبؤ بها، كما هي الحال مع هنريك أيضًا.

أمسكتُ بحبال التثبيت وألقيتها للخارج عندما اقتربنا من الرصيف، وتعلقت حلقة الحبل بأبعد عمود في الرصيف مع اقتراب خطوات مدير الميناء على الألواح الخشبية وهو

مشغول في الأوراق التي بين يديه، وراح يدون شيئًا بريشته من اليسار إلى اليمين دون أن يكلف نفسه عناء رفع عينيه لأعلى، حتى هبط ويست السلم.

وحين وطئت قدما ويست الرصيف نظر مدير الميناء إليه من تحت حافة قبعته وسأله: «السفينة ماريجولد؟».

وتحولت نظرة ويست إلى نظرة ارتياب في الحال وهو يقول: «نعم».

نظر إلى شعارنا ووضع علامة في الورقة وقال: «هولاند في انتظارك على متن السفينة سيدراجون». وحامت عيناه على ويست من أعلى إلى أسفل، بيد أنه لم يقل ما كان يجول بخاطره، وقال: «لن أجعلها تنتظر لو كنت مكانك».

رنا ويست إليّ، واستنشقتُ نفسًا طويلًا قبل أن أرتقي السور وأهبط السلم.

وقلت: «سوف أستعيد وثيقة الملكية يا ويست».

بدا قلقا، بل خائفا حتى، وقال: «إنها مجرد سفينة يا فيبل».

فابتسمتُ بحزن ورأسي مائل جانبًا، وقلت: «حسبتُ أنه لا كذب بيننا».

فاختلجت زاوية فمه.

وتابعتُ حديثي: «لا يزال في جعبتي خيارات يمكنني استغلالها. لا يزال لديّ نصيبي من غنيمة السفينة لارك و...»

فقاطعني مصححًا: «لا يزال في جعبتنا خيارات يمكننا استغلالها»، وأضاف: «وكذلك سينت».

فأومأت برأسي وهبطت بناظريّ إلى الأرض. ليست المرة الأولى التي يُستدرج فيها ويست إلى فوضى تخصني أنا وسينت، ولم يرقني ذلك. ذكرني هذا أنني تخليت عن القواعد التي كنت أعمل بمقتضاها قبل أن ألتقيه، تلك القواعد التي اتفقنا على نبذها في علاقتنا، لكنني الآن أتساءل عما إذا كنا نخادع أنفسنا بالتفكير في أنه بوسعنا سلوك مسلك مختلف كما قلنا.

اصطف أربعة حراس عند المدخل المقوس للرصيف الخاص بهولاند والذي يحمل شعارها. كل الموانئ في منطقة البحر المجهول بها رصيف خاص بهولاند مثل هذا. وعند نهاية الرصيف لاح سلم خشبي حلزوني يفضي إلى سور ميسرة السفينة سيدراجون.

قلت وأنا أرمق السيف القصير المعلق في خصر الحارس: «نحن هنا لمقابلة هولاند».

صعّد فيّ النظر قبل أن يستدير على عقبيه، وتعبته أنا وويست. كان قرص الشمس قد غاب، وقطعنا الرصيف نحن الثلاثة، وراحت الفوانيس على متن السفينة سيدراجون تشتعل فانوسًا تلو الآخر.

ارتقيتُ السلم الخشبي ويدي تجري على السور الزلق. وفاحت رائحة لحم مشوي من السفينة، وعندما وصلتُ إلى سطح السفينة نظرت إلى الوراء صوب ماريجولد الراسية في ظل سفينة أخرى.

كان حارس هولاند ينتظرنا، وأشار بيده صوب الممر نحو باب مفتوح، حيث رأيت وراءه بساطًا قرمزيًّا مفروشًا على الألواح الخشبية. لملمت شتات نفسي واستعدت رباطة جأشي قبل أن أسير نحو الباب.

وفي الداخل رأيت هولاند جالسة أمام طاولة صغيرة مطلية بالذهب، واستقر في حجرها ثلاثة سجلات مفتوحة كل منها يعتلي الآخر. كان يشتملها شال قرمزي، وشعرها الفضي كان مضفرًا بنسق معقد فوق رأسها، ويتدلى من كل أذن ياقوته لامعة بحجم عملة نحاسية.

رفعت عينيها نحوي ورمقتني عبر رموشها الكثيفة، وقالت: «كنت أتساءل عما إذا كنتما ستأتيان».

فذكّرتها: «قلنا إن موعدنا مع غروب الشمس».

أغلقت السجلات ووضعتها على الطاولة، ثم قالت: «تفضلا بالجلوس».

جلست على الكرسي المقابل لها، في حين ظل ويست واقفًا وعاقدًا ذراعيه فوق صدره.

وتقوس أحد حاجبيها في ريبة وهي ترمقه، ثم قالت: «إذن؟ أين هو؟».

قلت وأنا أحاول الحفاظ على هدوء صوتي قدر المستطاع: «ليس معي».

واختلج فمها اختلاجة بسيطة وهي تقول: «ماذا تقصدين بأنه ليس معك؟».

فقلت: «لقد مسحنا جميع الشعاب المرجانية في تلك المنطقة، ولم نجده»، لقد كذبت، بيد أنني كنت لا أزال مقتنعة أن حجر قلب الليل لم يكن في تلك المياه.

فقالت بفتور: «على ما أتذكر فقد قلتِ إن بمقدورك العثور عليه. لقد كنتِ مصرة على ذلك»، وعندما زحفت عيناها صوب ويست مرة أخرى اضطربتُ وأنا أتذكر مشهد حذاء زولا في الردهة المعتمة، وكيف كانت قدماه ترتعشان. ثم تابعت: «لقد أبرمنا اتفاقًا يا فيبل»، وكان التهديد باديًا في النبرة العميقة التي نطقت بها الكلام، وأضافت: «لكنني أعرف كيف يمكنك تعويض ذلك».

عندئذ تصلب جسد ويست بجواري.

ثم فتحتْ أحد السجلات وسحبت ورقة مطوية من داخله، وسرت قشعريرة على ذراعيّ وهي تفتحها وتمررها نحوي عبر الطاولة قبل أن تقول: «اجتماع مجلس التجارة في غضون يومين. ستحضرينه، بصفتك وكيلتي».

فحدجتها بنظرة دهشة وأنا أسأل: «وكيلة عن ماذا؟».

أجابت: «عن إدارة طريقي التجاري الجديد في منطقة المضايق».

فدفعت الورقة نحوها مرة أخرى دون أن أنظر فيها، وقلت: «أخبرتك بأنني غير مهتمة».

فقالت بلطف: «كان ذلك قبل أن أملك وثيقة ملكية السفينة ماريجولد».

وأخرجت ورقة عقد وسلمتني إياها؛ وارتجفت يداي وأنا أفتحها وأقرأ ما فيها.

تابعت: «سوف تستعيدين الوثيقة عندما توقعين على عقد لمدة عامين يقضي بقيادتك أسطولي الجديد».

عندئذ فُغِر فمي دهشة، وعاودني شعور الإعياء في أحشائي، وتساءلت: «ماذا؟»، لكنني كنت أعرف ما يجري بالفعل. لقد أرسلتني في مهمة مستحيلة للبحث عن حجر قلب الليل، في حين كانت ترتب الأمور بما يصب في صالحها. لم تكن تُعوّل عليّ في العثور عليه.

ومن طرف عيني رأيت ويست يخطو خطوة في اتجاهي. وقبل أن أنتهي من القراءة انتزع الورقة من بين أصابعي، وراقبت نظراته المحمومة تجري فوق المكتوب. ثم قال وهو يجعد الورقة بشد قبضته عليها: «لن تُوقعْ على أي شيء».

فقالت هولاند من دون ذرة ريبة في صوتها: «سوف توقع»، وتابعت محدثة إياي: «وقعي العقد وسوف تحصلين على كل ما تريدين. وثيقة ملكية ماريجولد وتجارة في منطقة المضايق. حتى أنه بالإمكان أن تعمل ماريجولد ضمن أسطولي إن شئتِ». وأمسكت بكوب الشاب ورفعته أمامها، ثم واصلت: «إذا قاد طريقي التجاري الجديد إلى سيروس تاجرة مولودة في منطقة المضايق فسوف يوافق مجلس التجارة على منحي الترخيص».

حاولت تهدئة أنفاسي وقبضتي مشتدة على ذراع الكرسي، ثم سألتها: «وسينت؟».

فارتشفت رشفة شاي وقالت: «إن سينت بمثابة عقبة لا يريد أي منا مواجهتها، صدقيني. سوف أتدبر أمره بحلول الوقت الذي ننشئ فيه مقرنا في سيروس. وبغيابه هو وزولا عن المشهد سأمنحك السيطرة على تجارة الأحجار الكريمة في تلك المياه».

نظرت إلى ويست، لكنه كان يحدج هولاند بنظرة فتاكة كالنيران.

وأردفتْ: «قابليني في مقهى وولف آند إنجل مساء الغد ومعك العقد». وهبطت عيناها على يديّ المرتعشتين، فكورتهما في قبضتين ووضعتهما في حجري. وانحنت باتجاهي وقد عادت الرقة الفاترة إلى محياها، وقالت: «لست أعرف السفينة القذرة التي ولدت عليها يا فيبل، ولا أكترث بذلك. ولكن المرة المقبلة التي ستبحرين فيها سيكون ذلك على متن سفينة تحمل شعاري».

الثالث والثلاثون



سلط الجميع أعينهم عليّ في صمت، حتى كوي بدا عاجزًا عن الكلام.

ثم انفجر باج قائلًا: «لن توقّعي عليه. لقد تكبدنا خسائر مالية كبيرة منذ أن غادرنا ديرن حتى نتمكن من إعادتك إلى منطقة المضايق والاضطلاع بما قلنا إننا سنفعله».

فقلت: «يمكنكم إكمال هذا المسعى من دوني. توقيعي لن يغير شيئًا في هذا الصدد».

فتمتمت ويلا: «بل يغير كل شيء». كانت تقف خلف الجميع متجهة إلى المصباح وترنو إلى اللهب من وراء الزجاج. إن هذا التوقيع ستكون له تبعات مختلفة عليها، إذ عدم وجودي على متن السفينة ماريجولد يقلص من فرص طاقم السفينة.

قلت: «إذا وقّعتُ العقد فسوف نستعيد وثيقة ملكية ماريجولد. وإذا نجح سينت وآل روث في الخطوات التي سيتخذانها، فلن يكون لهذا العقد وزن، سيكون لاغيًا».

تساءلت ويلا: «وإذا لم ينجحا؟».

فقلت: «إذن تبحرون بطاقم ينقصه فرد واحد خلال العامين المقبلين، إنها ليست بالفترة الطويلة»، وحاولت أن أبدو مصدقةً لكلامي. عامان بعيدًا عن ماريجولد، عن ويست، تبدو مدة أبدية، لكنه ثمنٌ مستعدة لدفعه إذا كان ذلك يعني وجود مكان أعود إليه بعد انتهاء عقدي.

وضع هاميش الدفتر المفتوح على الطاولة قائلًا: «سواء في وجود العقد أو عدمه، نحتاج إلى أن نقرر ما خطوتنا التالية. لا يزال لدينا ما يكفي من النقود لتدشين طريقنا التجاري

من سيروس». منذ غادرنا جزيرة فيبل الصخرية كان هاميش منكبًّا على مراجعة الحسابات. وأضاف: «لسنا بحاجة إلى مقر، ليس على الفور».

نظر الجميع إلى ويست، لكنه لاذ بالصمت بجواري.

وتنهد باج وهو يتقدم لينظر إلى الدفاتر، وقال: «لا جدوى من الحصول على ترخيص من نقابة الأحجار الكريمة إذا اقتحمت هولاند منطقة المضايق؛ ومن ثم أقترح أن نعتمد على تجارة الجاودار».

وافقه أوستر: «سوقه رائجة دائمًا. وتجارة نبتة البوصير أيضًا».

كان هذا منطقيًّا، فجميع الموانئ في منطقة المضايق سوف تريد شحنات من كلا المنتجين.

أومأ هاميش برأسه قائلًا: «هذا ما كنت أفكر فيه. في هذا الوضع سنظل في موقف مواجهة مع سينت، لكن هذا ليس بالأمر الجديد. سوف نبدأ بثلاثة موانئ، سوان وسيروس وديرن، بهذا الترتيب».

عقّب أوستر: «لست أدري ما إذا كان وجودنا في سوان لا يزال موضع ترحيب هناك».

نظر هاميش إلى ويست، بيد أنه لم يقل شيئًا. ربما عرفتْ منطقة المضايق كلها بما فعله ويست للتاجر في سوان، وهذه السمعة سوف يستمر تأثيرها لفترة طويلة، لكنّ ثمة مكانًا واحدًا في منطقة المضايق حيث السمعة غير مهمة.

قلت: «ماذا عن جيفال؟».

عندئذ انتصب كوي في موقفه عند زاوية الغرفة وهو يرمقني.

وقال باج متشككًا: «جيفال؟ إنها محطة إمداد وليست ميناء».

فكررت الكلمات التي قالها كوي لي في اليوم السابق: «إذا كانت التجارة ستنفتح بين منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق، فإنها مسألة وقت فقط قبل أن تصبح جيفال ميناء حقيقيًّا. إنها الرصيف الوحيد بين ساجساي هولم وديرن».

تجهّمت ملامح هاميش وهو يمعن التفكير، ثم قال: «لا يوجد حتى تجار في جيفال».

فألقيت نظرة خاطفة على كوي وقلت: «ليس بعد. لكن إذا كنا سنتاجر في الجاودار والمولين فستكون جيفال أرض تجارة خصبة لذلك».

هز أوستر كتفيه قائلًا: «ليست فكرة سيئة. ما رأيك يا ويست؟».

راح ويست يتمعن في الأمر وهو يحك مؤخرة فكه، ثم قال: «أنا موافق».

تمتم هاميش: «علينا أن نجد شخصًا جديرًا بالثقة هناك لبدء التجارة معه».

فلاحت على شفتي ابتسامة عريضة وأنا أومئ بذقني نحو كوي وأقول: «أعتقد أنني أعرف أحدهم».

فنظروا إليه جميعًا.

سأله هاميش: «أحقًّا هذا؟».

فاستقام كوي في وقفته وقال: «أعتقد أنه يمكننا تدبر الأمر»، كان يحاول إخفاء مدى حماسه، بيد أنني رأيت وهج الإثارة من حوله.

أغلق هاميش الدفتر ووضعه عند زاوية المكتب، ثم قال: «إذن، كل ما تبقى هو التصويت»، وحامت عيناه على وجوهنا جميعًا، وأردف: «وصوتك يا فيبل لا يزال مهمًّا إذا كنا سنستخدم حصتك من الغنيمة في إنشاء هذه التجارة».

قلت دون تردد: «إنني مشاركة».

صفّق هاميش بيديه أمامه وقال: «حسنًا. ما رأي الجميع في استخدام ثلث الغنيمة المستخرجة من ركام السفينة لارك لشراء الجاودار ونبتة البوصير؟»، واتجه بصره إلى ويلا أولًا.

انفرجت شفتاها لتتحدث، بيد أن ويست قاطعها قائلًا: «لن تُصوّت».

عندئذ انطبق فم هاميش وهو يردد بصره بينهما.

وتابع ويست: «مَن لهم حق التصويت هم من سيشاركون بحصصهم من غنيمة السفينة لارك».

وتحولت ويلا أخيرًا عن موقفها قبالة المصباح الذي ألقى الضوء على شطر وجهها فقط، وسألت: «ما الذي تتحدث عنه؟».

فقال ويست وهو لا يزال يتحاشى توجيه الحديث إليها مباشرة: «حصة ويلا لم تعد جزءًا من دفاتر حساباتنا».

نظرت ويلا إليّ كأنها تنتظر أن أبدي اعتراضًا، ثم قالت: «ويست...»

قال: «أريدكِ أن تأخذي حصتك وتفعلي بها ما تشائين. ابدئي تجارتك الخاصة، استثمريها في تدريب مهني، أيًّا ما يحلو لك»، وبدا أن نطقه هذا الكلام يؤلمه ألمًا مبرحًا.

اغرورقت عينا ويلا بالدموع وهي ترفع ناظريها إليه.

وازدرد ويست ريقه وقال: «أيًّا تكن الخطوة التالية فهي تخصنا. لستِ عالقة في دائرتنا».

ظل هاميش صامتًا في انتظار رد ويلا، بيد أنها لم تنبس بكلمة، ثم قال: «حسنًا. ما رأيكم بشأن التجارة في نبتة البوصير والجاودار. ماذا عنك يا فيبل؟».

فأومأت له بالإيجاب وأنا أقول: «أوافق».

وردد باج وهاميش الجواب ذاته، وتلاهما أوستر. بيد أن ويست ظل واقفًا بجواري ونظرته شاردة على الدفاتر المغلقة.

قال هاميش: «يجب أن يكون القرار بإجماع المصوتين».

كان عقل ويست محمومًا بالتفكير، ولم أدر ما إذا كان محمومًا بالأرقام أم بغربلة الخيارات. لكن ساورني شعورٌ بأنني لن يروقني ما سيقوله تاليًا، وأخيرًا قال: «يمكننا دفع النقود لهولاند مقابل تحرير فيبل من ذاك العقد».

فقلت وأنا أحدجه بنظرة حادة: «لن تفعل ذلك. لن يحدث ذلك».

ولاذ البقية بالصمت.

وتساءل ويست: «ولِمَ لا؟».

فقلت: «قلنا إننا سنستخدم غنيمة لارك لتدشين تجارتنا الخاصة. وليس لإهدارها على هولاند».

تمتمت ويلا: «إنه ليس إهدارًا تمامًا».

قلت: «لن تقبل النقود. إنها لا تحتاج إلى أموال. ثمة شيء واحد تريده هولاند، ونحن لا نملكه»، بدا الاستياء عليّ بدرجة أكبر مما أردته أن يكون باديًا. لقد اهتموا لأمري، لكنني لن أترك هولاند تنتهز الفرصة وتستغل ماريجولد وطاقمها.

قال هاميش بنبرة ألطف: «ويست، ما زلنا نحتاج إلى صوتك».

نظر ويست نحوي أخيرًا وعيناه تحومان على وجهي، وأجاب: «حسنًا»، وازدرد ريقه وهو يتجاوزني منطلقًا صوب الباب.

أوقفه باج قائلًا: «ويست. لا تزال ثمة إصلاحات علينا مباشرتها».

فأجابه: «سنتعامل معها في الصباح».

وتركه باج يذهب وأتبعه بناظريه حتى توارى في الممر. والتوى فم ويلا جانبًا وهي ترمقني، وأجبت سؤالها غير المنطوق بإيماءة قبل أن أنطلق وراء ويست.

انتشر في جو الليلة دفء غير مألوف، وهواء منعش، حتى تلألأ سطح السفينة في الضوء الخابي. مر ظِل ويست على قدميّ وهو يسير فوق مؤخرة السفينة، وسحب حبلًا مهترئًا من برميل وأنا أرتقي الدرجات المفضية إليه. لم يعرني انتباهًا وأنا أرتكز على السور وأشاهده وهو يفككها ويمزق الألياف لاستخدامها في كشط العوالق بهيكل السفينة. لقد صار هذا السلوك مألوفًا؛ إذ كان ينطلق للاضطلاع بالمهمات الشاقة وقت استيائه.

قلت له وأنا أحاول تحري اللطف: «إنهما عامان فقط».

لكنه لم يحر جوابًا وهو يغرز سكينه في الحبل.

عدت أقول: «فترة عامين ليست بالطويلة».

فنخر وقال: «بل هي طويلة. يجب أن نحاول شراء العقد».

قلت: «أنت تعلم أن هذا مسعى لا طائل منه».

فقال: «إذا وطئت قدماك تلك السفينة، فلن تسمح لك هولاند بالرحيل أبدًا. ستجد طريقة لتمديد العقد، لجعلك أسيرة الديون. ستمكر شيئًا ما».

فقلت: «إنها ليست كسينت».

فانفجر قائلًا: «أأنتِ متأكدة من ذلك؟».

عضضت على لساني. لن أكذب عليه. الحقيقة أنني لم أكن أعرف هولاند، وفي بعض الأحيان شعرت بأنني لم أكن أعرف سينت حقًّا. لكن لم أستطع التظاهر بأنني لم أفهم المعاني الكامنة وراء كلامه. منذ أول لحظة رأيت فيها هولاند في الحفل وهي تعمل على تسليم هذا العقد لي، لقد أوقعتْ بي، وأسوأ ما في الأمر أنني كنت بلهاء بما يكفي لأقع في شركها.

كف ويست يده عن العمل في الحبل مرسلًا بصره إلى الماء قبل أن يصوب عينيه إلى عينيّ، ثم قال بصوت عميق: «لا أريدك أن توقعي على ذاك العقد».

اقتربت منه وأخذت الحبل من بين يديه ورميته على ظهر السفينة. واسترخت عضلاته عندما دسست ذراعيّ تحت ذراعيه وطوقت بهما خصره. ثم قلت: «سوف يقوم سينت بما يلزم. أنا متأكدة من ذلك».

فوضع ذقنه على قمة رأسي، ثم سأل: «وماذا عن آل روث؟».

أجبته: «إذا أنجز سينت ما عليه، فسوف ينجز آل روث أيضًا ما عليهم».

سكت هنيهة ثم قال: «ما كان ليحدث كل هذا لو أنني لم أحاول الانتقام من زولا جراء ما فعله لويلا».

فقلت: «بل هولاند هي مناط الأمر كله يا ويست. لم يكن ليحدث أي من هذا لو لم أطلب منك أن تنقلني عبر منطقة المضايق».

كان يعلم أن كلامي صائب، لكن ويست بطبيعته يلقي اللوم على نفسه. لقد تحمّل مسئولية رعاية أناس لأمد طويل.

أملت رأسي للوراء كي أرفع ناظريّ إليه، وقلت: «عِدني بأنك سوف تفعل ما يجدر بك فعله».

أخذ خصلة من شعري وتركها تنزلق بين أصابعه، ما بث ارتجافة في جسدي. إن صمت ويست يكون نذير سوء، إذ كان ليس بالرجل كثير الكلام، لكنه كان يعرف ما يريد ولم يكن يخشى الإقدام لنيل مبتغاه.

عدت أقول: «عِدني».

فأومأ برأسه في تردد وقال: «أعدك».

الرابع والثلاثون



عندما استيقظتُ صباحًا في غرفة ويست كان قد غادر.

كان مصراعا النافذة مفتوحين وهما يخبطان برفق على الجدار مع تدفق الرياح، وانبثقت في ذهني ذكرى ذاك الصباح في ديرن، حيث السماء رمادية والنسيم عليل والضوء يتخلل الغرفة الضبابية، ولكن هذه المرة كانت النافذة تطل على منطقة البحر المجهول.

نهضت بجذعي وجلستُ ويداي تتحسسان تحت الغطاء المكان الذي كان يرقد فيه ويست، كان موضعه باردًا، ولم أر حذاءه بجوار الباب كالعادة.

وفي الخارج على سطح السفينة، جلس أوستر وباج يتناولان وجبة الإفطار في الممر الجانبي المفتوح.

سألتهما بصوت لم تزل عنه آثار النوم: «أين هو؟».

فأشار باج ناحية الميناء قائلًا: «ذهب رفقة هاميش لمقابلة صانع السفن».

ونهض أوستر من مجلسه على الصندوق وهو يسألني: «جائعة؟».

فهززت رأسي وقلت: «كلا»، ما انفكت معدتي تتلوى اضطرابًا منذ أن خرجت من الماء عند جزيرة فيبل الصخرية.

سرت باتجاه السور وأنا أرقب سطح السفينة سيدراجون، حيث انخرط طاقم هولاند في العمل بالفعل، وقد ترددت فوق الماء أصداء الكشط من حيث كان العمال ينظفون السفينة. اعتدتُ أن أجلس على الصاري الأمامي في سفينة أبي وأشاهد العمال وهم ينظفون

السطح. كان أبي يحب أن تكون سفينته نظيفة للغاية، مثله مثل أي قبطان جيد، وقد كانت مهمة التنظيف هذه هي أكثر ما يخشاه الطاقم كله.

أريدها نظيفة للغاية، أريدها أن تبرق وتلتمع.

طاف صوت أبي في ذهني وهو ينطق هذه الجملة كأنه مثل طنين عاصفة.

أريدها أن تبرق وتلتمع.

كان صوت الاحتكاك أثناء التنظيف يبعث في ذهني ذكريات دافئة من مرقدها، كذكرى سينت وهو مرتكز على السور بمرفقيه ويرنو إلى الماء الأزرق الصافي منتظرًا خروج أمي من تحت سطح الماء.

ورجوت أن تكون الذكرى العالقة في ذهني عن ماريجولد كتلك الذكرى الدافئة، وأن تبقى حاضرة حين أحتاج إليها خلال العامين المقبلين.

ارتقت ويلا العتبات صاعدة من الطابق السفلي وهي تمسك بحذائها في يدها، وقد ارتمت خصلاتها المتلوية على ظهرها كحبال برونزية، واصطبغت الندبة على خدها بلون وردي من أثر البرد.

سألتها وهي تزرر سترتها: «إلى أين تذهبين؟».

فأجابت: «إلى القرية لمقابلة الحداد. لا يمكننا العودة إلى سيروس دون مرساة».

أرسلتُ بصري فوق أسطح المنازل، وخالجني إحساس بالاضطراب، وأدركت أن الباعث على انزعاجي هو غياب ويست عن ناظري. منذ ليلة أمس وأنا أفكر في تلك النظرة الباردة التي تلوح في عينيه، والصمت الذي تغشّاه حين قلت إنني سأوقع على عقد هولاند.

قلت لها: «سوف أصحبك»، وعدت إلى غرفة ويست وجلبت حذائي وسترتي وعقصت شعري.

بعد بضع دقائق كنا نرتقي العتبات المفضية إلى خارج الميناء والشمس تلقي بأشعتها على وجهينا.

انطلقت ويلا في الشوارع تبحث عن ورشة الحداد، وكلما رأى أحد الأشخاص الندبة على وجهها اضطربت خطواته بعض الشيء. إنها تثير الرهبة في النفوس، ورغم ضآلة جسدها فإن بنيتها العضلية قوية، وكانت عيناها الزرقاوان تتألقان تحت رموش داكنة.

كانت حسناء. وفي هذا الصباح بدت حرة.

توقفت تحت لافتة مطلية باللون الأحمر تشير إلى أن هذا مقر حداد.

جلجل الباب وهي تدلف إلى الداخل وشاهدتها من خلال الزجاج وهي متجهة إلى الجدار، حيث كانت سلال المسامير تتدلى من الخطافات.

ثم أرسلت بصري إلى السماء حيث حامت الطيور البحرية وتقلبت في خضم الرياح التي هبت من الميناء الرابض في الأفق، وتنهدت وأنا أرقب المشهد وأستشعر ثقلاً على نفسي وأنا في هذا الزقاق، حتى خُيّل إليّ أن السماء تطأ صدري بثقلها وتغرسني في الأرض.

كنا لا نزال في فترة الصباح، ولكن بحلول مغيب الشمس سوف أوقّع على عقد هولاند.

لمحتُ وميض لون أزرق في ظل زاوية مبنى عند العطفة، وتفحصت الشارع حولي، فرأيت الناس يسيرون على مهل من متجر إلى آخر، بيد أنني استشعرت تحولاً في الجو، وشممت تلك الرائحة الحارة؛ دخان نبتة البوصير.

نظرت إلى العطفة التي يضيق عندها الزقاق وتفضي إلى حارة صغيرة متوارية بين المباني. ومن فوق كتفي رأيت ويلا من خلال النافذة منتظرة عند المنضدة.

التوى فمي، وتكورت يداي داخل جيبيّ قبل أن أنطلق في الزقاق وأنعطف مع العطفة، ولمحت وميض اللون الأزرق وهو ينعطف العطفة التالية تاركًا الزقاق خاليًا في قبضة الصمت.

وسرت بخطوات ثقيلة يتردد صداها، وألقيت نظرة خاطفة على الشارع لأتأكد من عدم وجود أحد يلاحقني. وعندما انعطفت العطفة التالية تجمدت في موقفي وصدري ينثني مع احتباس النفس. هناك، وجدت أبي متكئًا على الطوب الملطخ بالسخام، وأسنانه قابضة على غليونه، وقبعته هابطة على عينيه.

وارتسمت شفتاي باسمه دون أن أصدر صوتًا.

وعلى الفور خانتني عيناي، واحتشدت دموع غادرة بسرعة خاطفة حتى اضطررت إلى أن أطرف بعيني لأشتت جمعها. لقد لملمت كل ذرة من إرادتي لأمنع نفسي من معانقته، ولم أكن أعرف كيف أتصرف مع هذا الشعور. أردت أن أترك ساقي للريح وأجعله يحتضنني.

كثيرًا ما راودتني فكرة أنني ربما لن أراه مرة أخرى أبدًا، أنني ربما لست أريد رؤيته، وهأنذا أزدرد صرخة محبوسة في حلقي تريد أن تنفلت من فرط الشوق.

تبدّى وسيمًا ورهيبًا وباردًا برزانة، هذا هو سينت بشيمه المعهودة.

وانطلقت من بين شفتيه نفخة دخان قبل أن يرفع ناظريه نحوي، وخُيّل لي أنني ربما لمحتُ في عينيه الزرقاوين الجامدتين نظرة تشي بما يعتلج بين جنباته من عواطف جياشة. ولكنها تلاشت حالما تحركت عيناه.

ثم شبّك يديه في طرفي معطفه من عند الصدر وانطلق نحوي قائلًا: «وصلتني رسالتك».

قلت: «لم أظن أنك ستحضر بنفسك»، وقد كانت هذه حقيقة، كنت أتوقع حضور كلوف، بيد أنني سُررت غاية السرور برؤية أبي لدرجة أخجلتني من نفسي. وحملقت إلى طرف حذائه

الأسود المقابل لطرف حذائي، ثم سألته: «هل أتيت بالمطلوب؟».

فاختلجت شفتاه بابتسامة تَسلٍّ قبل أن يدس يده في جيبه ويُخرج طردًا ورقيًا صغيرًا لونه بُني، وأمسكه في المسافة الفاصلة بيننا، ولكن عندما مددت يدي نحوه أبعده عن متناول يدي.

سألني بصوت أجش: «هل تعرفين ما تفعلينه؟».

فحدجته بنظرة مباشرة وأنا أنتزع الطرد من بين أصابعه. كان هذا هو السؤال ذاته الذي طرحه عليّ ويست، وهو السؤال ذاته الذي لم أكن أعرف ما إذا كان لديَّ جواب عليه. قلت كاذبة: «إنني أعرف ما أفعله».

وسحب نفسًا طويلًا من الغليون وقد ضيّق عينيه وهو ينظر إليّ أثناء تمزيقي ورق الطرد السميك من الطرف إلى أن تسنى لي رؤية زاوية العلبة بداخله. ثم أخرجتُ العلبة ورفعت غطاءها، وفي داخلها لاح خاتم مرصع بحجر عين الببر ذي اللون الذهبي، هذا هو خاتم اعتماد التجار في نقابة الأحجار الكريمة. وتنهدتُ تنهدة ارتياح طويلة.

قال: «تبدين بخير».

فانطلقت عيناي نحوه، ورأيت بصره يمسحني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. كانت تلك محاولته الواهية لسؤالي عما إذا كنت بخير. قلت: «كان بإمكانك أن تخبرني بشأن هولاند».

فتفحصني هنيهة قبل أن يجيب: «نعم، كان هذا ممكنًا».

قلت: «ربما تخلصتَ من زولا بمخططك هذا، بيد أنني أعلم أنك أردت إبعادي عن ماريجولد أيضًا. ولم ينجح مخططك في هذا الجانب».

فضاقت عيناه وهو يقول: «حسبت أن جدتك ستعرض عليك الانضمام إليها».

أجبته: «قد فعلتُ، بيد أنني رفضت».

فرفع يده وجعل يمشّط شاربه بأصابعه. أكاد أقسم أنني رأيت ابتسامة محبوسة على شفتيه. بدا أنه ... فخور. ثم قال محولًا مسار الحوار: «قال كلوف إن هذا الخاتم من أجل هنريك».

أجبت: «نعم».

ونفخ نفخة دخان أخرى من بين شفتيه وقال: «إنه غير جدير بالثقة».

سألته: «أتقول إنك لا تعتقد أنه سوف يفي بوعده؟».

أجاب: «أقول إن احتمالية وفائه كاحتمالية عدم وفائه».

لم تكن تلك نسبة جيدة. اتكأتُ على الجدار بجواره وأنا أراقب مدخل الزقاق حيث يملأ الناس الشارع، ثم قلت: «أريد أن أسألك سؤالًا».

رفع حاجبيه وبدا أن الفضول قد تولاه، ثم قال: «تفضلي».

فسألته: «هل أخبَرَتْك؟».

فتجهم حالما أدرك أنني أتحدث عن أمي، ثم سألني: «أخبرتني بماذا؟».

قلت: «إيزولد. هل أخبرتك أين وجدتْ حجر قلب الليل؟»، لقد نطقت اسمها وأنا أعلم أن هذا لن يروقه، فانبثت فيه موجة اضطراب.

وضع الغليون في فمه وأجاب: «لم تخبرني قط».

وارتفع صوتي وأنا أسأله: «ماذا؟ طيلة تلك السنوات؟ كيف يتأتى أنها لم تخبرك قط؟».

فأشاح بعينيه، ربما لمواراة أيًّا ما قد تشي به تعابير وجهه، ولاح على محياه مسحة أقرب للوهن. ثم قال: «لم أسأل قط»، لكنه نطقها باقتضاب وتوتر.

فقلت بارتياب: «لست أصدقك».

انبرى يقول: «أنا...»، بيد أنه لم يُكمل جملته، وبدا أنه غير متأكد مما سيقوله، أو كيف يقوله. وهذا ليس من شِيم سينت على الإطلاق. واستجمع رباطة جأشه قبل أن يستدير ليواجهني وعيناه يلوح فيهما نظرة تكشف عن مشاعر مختلفة تمامًا الآن، ثم قال: «لقد جعلتها تقسم على ألا تخبرني بهذه المعلومة أبدًا».

اتكأت بثقلي كله على الجدار. لقد أخبرته أمي عن حجر قلب الليل. لكن يبدو أنني لست الوحيدة التي تعرف حقيقة الرجل الذي أناديه بأبي؛ هو أيضًا عرف نفسه جيدًا بما جعله يتخذ خطوات تهدف إلى حماية إيزولد.

حمايتها من نفسه.

كانت الفكرة تفطر القلب، حتى إنني اضطررت إلى أن أشيح بعينيّ عنه خشية مما قد أراه إذا نظرت في عينيه. إنه الإنسان الوحيد الذي أحبها حبًّا يفوق حبي لها. وعاد ألم فقدانها حادًّا كنصل سكين قد انغرز في قلبينا.

تنحنح قبل أن ينفخ نفخة أخرى من غليونه، ثم سألني: «هل ستخبرينني بخطتك؟».

فقلت: «ألا تثق بي؟»، وارتسمت ابتسامة على شفتي، بيد أن خطر انهمار الدموع ما زال يتهددني.

فقال بصوت هادئ لم أسمعه يتحدث به من قبل: «إنني أثق بك»، ثم سألني: «هل ستخبرينني بالسبب؟».

كان جليًّا لي أنه يريد أن يعرف، كان يكِد لفهم الأمر. لقد بوغت عندما أخبره كلوف برسالتي، وأراد أن يعرف الباعث على سلوكي هذا المسلك؛ لماذا أخاطر بأي شيء من أجله بعد كل ما فعله.

رفعت عيني تجاهه وأجبته بالحقيقة، الحقيقة المحضة الكاملة: «لأنني لا أريد أن أفقدك».

كان هذا هو مناط الأمر كله، ولم أكن أعرف ذلك حتى تلك اللحظة التي نطقت فيها هولاند اسمه ونحن في غرفتها؛ لم أكن أعرف أنني أحببته بقدر ما بغضته، وأنه إذا أصاب سينت أي مكروه فسوف يقتطع جزءًا من روحي معه.

انحرف فمه جانبًا، قبل أن يومئ إيماءة حادة وهو ينظر إلى الشارع ويقول: «هل ستحضرين اجتماع مجلس التجارة؟».

فأومأت برأسي بالإيجاب وأنا عاجزة عن نطق كلمة أخرى.

واحتكت حاشية معطفه بحاشية معطفي وهو يمضي من أمامي، ولاحقته ببصري وهو ينعطف تاركًا إياي وحدي في الزقاق. وهبّت رياح البحر مشتملة إياي، وآلمتني الغصة في حلقي وأنا أعود أدراجي.

كانت ويلا تنتظر أمام نافذة الحداد حين عدتُ إلى الشارع وبين ذراعيها طرد ملفوف، وعندما وقعت عيناها عليّ تنهدتْ تنهدة ارتياح وسألتني: «أين كنتِ؟».

تريثتُ حتى اجتازنا أحد المارة ثم همست قائلة: «سينت».

فسألتني: «أهو هنا؟ هل...؟»

أخرجتُ العلبة من جيبي بما يكفي لتراها.

فشهقت وقالت: «هل فعلها؟».

فقلت: «لقد فعلها. لست أريد أن أعرف كيف، لكن ذلك الوغد قد فعلها».

الخامس والثلاثون



ترامت أصوات من وراء باب غرفة ويست المغلق مع عودتنا إلى ماريجولد. وقد تنهدت ارتياحًا حين وقعت عيناي على الغرفة، وعاودني إحساس الثبات والطمأنينة في الحال.

بيد أنني أوقفت خطواتي عندما سمعت نبرة باج الغاضبة الساخطة وهو يقول: «كان عليك أن تسألني».

فتحت الباب دون طَرق، ورأيت ويست وهاميش وباج متحلقين حول المكتب. وعلى الفور صوّب الجميع أعينهم نحوي ولاذوا بالصمت.

ثم أخذ هاميش يعبث في كومة أوراق أمامه بأصابعه الملطخة بالحبر. لكن ثمة شيئًا في أسلوبه غير طبيعي، كان غاضبًا هو الآخر.

سألت هاميش وأنا أشاهده يفتح الدرج ويضع الأوراق في الداخل: «هل وجدتم صانع السفن؟».

فأجاب هاميش وهو ينهض وبصره يجوب أرجاء الغرفة كلها دون أن تستقر عليّ أنا بالذات: «وجدناه»، ثم قال وهو يومئ إلى ويست: «سوف أعمل على هذه الحسابات الليلة».

فأجابه ويست بإيماءة: «حسنًا».

واجتازني هاميش قاصدًا الباب وهو يلف جسده كي لا يلمسني. وراح باج يحدج ويست هنيهة أخرى قبل أن يتبع هاميش. واكفهر وجهي وأنا أشاهد كليهما يختفي من الممر، لكن

في الغرفة بدا ويست غير غاضب، بدا أكثر هدوءًا من ليلة أمس.

سألته وأنا أسلط عليه نظرة فاحصة: «ما الخطب؟».

فرفع عينيه تجاهي وقال: «لا شيء. مجرد تقرير عن دفتر الحسابات»، لكن سرعان ما نزع عينيه من عينيّ.

قلت: «بدا باج غاضبًا».

فزفر ويست زفرة حادة وقال: «باج غاضب دائمًا».

أيًّا كان ما وقع بينهما، فمن الواضح أن ويست لن يخبرني بشأنه، ليس الآن على أية حال.
قلت وأنا أغلق الباب: «رأيتُ سينت».

فاشتدت يدا ويست على حافة المكتب وهو ينظر إليّ وسألني: «هل أحضره؟».

أخرجت العلبة من جيب سترتي ووضعتها على المكتب أمامه. فأخرج الخاتم واضعًا إياه في راحة يده، كان الخاتم مصقولًا من فترة وجيزة، وقد التمع الحجر الكريم الذي يرصعه.

قلت: «الآن كل ما نحتاجه هم آل روث».

فدس ويست يده في سترته وسحب ورقة مطوية من جيبه وسلمني إياها وهو يقول: «وصلت هذه قبل ساعة. كنت أنتظر عودتك لأسلمكِ إياها».

أخذت الورقة منه وفتحتها وقرأت النص المائل المكتوب على عجل. كانت هذه رسالة من عِزرا.

حانة ليث، بعد قرع الجرس.

أرسلتُ بصري إلى خارج النافذة، كانت الشمس قد زايلت موضعها في كبد السماء، وسوف تغرب في غضون سويعات. ستكون هولاند في انتظاري بمقهى وولف آند إنجل الآن، وعلينا أن نسرع إذا أردنا مقابلة عزرا. قلت: «حسنًا. لننطلق».

دس ويست الرسالة مرة أخرى في سترته، ونزع سترته من الخطاف وتبعني إلى سطح السفينة. وحين هبطتُ السلم وجدتُ ويلا تعمل على الإصلاحات وهي مُتدلية على ميمنة السفينة، حيث عملت على سد ثغرة هناك.

قال لها ويست وهو يهبط على الرصيف بجواري: «سوف نعود بعد غروب الشمس».

فتمتمتْ وهي تسحب مسمارًا آخر من جرابها: «آخر مرة قلتَ فيها ذلك غِبت ليومين».

ولاح في عينيها كل ما لم تفصح عنه بلسانها. لقد نالت حريتها بعيدًا عن ماريجولد، لكن لم يعجبها فكرة عملي لصالح هولاند. عما قريب سوف تفترق الطُّرق وسيسلك كلٌّ منا طريقه الخاص، ولست أدري ما إذا كان ثمة اجتماع بعد الافتراق.

انطلقنا نقطع الشارع الرئيسي المفضي إلى ساجساي هولم، ووجدنا المقهى على قمة التل في الناحية الشرقية من القرية بإطلالة على البحر والساحب الصخري.

وعُلِّقت اللافتة المطلية باللون الذهبي اللامع في إطار مزخرف زخرفة فاخرة: «وولف آند إنجل».

ازدردتُ ريقي وأنا أشعر باضطراب أحشائي يعاودني. عكس زجاج النوافذ منظر المباني من خلفنا، وفجأة أدركت مدى التباين بين مظهري المتأثر بالشمس والرياح وبين ترف هذا المكان.

كان مظهر ويست بجواري مثل مظهري الغريب على المكان. لم يقل شيئًا، وأنا أيضًا هربت مني الكلمات. بحلول مغادرتي المقهى سوف أكون قد وقعتُ على عقد هولاند، ولم أكن

أعرف ما إذا كان آل روث سوف ينجدونني.

قلت: «سأتدبر هذا وحدي». آخر شيء كنت أحتاجه هو أن يعمق ويست عداوته لهولاند. أحسست بأن أنفاسي محبوسة وأنا أنتظره أن يجيبني.

لم يجادلني، وقد أدهشني ذلك. ثم رفع نظره صوب النافذة قائلًا: «سوف أنتظر».

قلت: «حسنًا».

ظَل قناع الرصانة على وجه ويست وهو يتبعني بناظريه أثناء إمساكي بالمقبض النحاسي وفتحي للباب. تدفقت رائحة الليمون العطري والخزامى من حولي وأفعمتْ أنفي وأنا أحاول تكييف عيني مع الضوء الخافت.

تراصت على طول الجدار حجيرات خشبية مكسوة بالمخمل الأحمر، وتنضوي على طاولات ذهبية. وتدلى النجف الكريستالي من السقف مضاء بالشموع التي جعلت المشهد يبدو كحلم.

لم يكن من قبيل المصادفة أن هولاند أرادت مقابلتي هنا، في مكان فخم وفاخر كمنزلها. مثل هذه الأماكن توفر لها إحساسًا بأن لها اليد العليا المتحكمة في مجريات الأمور، كما هي الحال دائمًا.

وقف رجل أمامي وعيناه تتفحصان ثيابي، وقال: «فيبل؟».

فأجبته بريبة: «نعم؟».

بدا خائب الأمل وهو يقول: «مِن هنا».

نظرت ورائي نحو النافذة، بيد أن ويست كان قد غادر، ورأيت الشارع خاويًا. تبعت الرجل إلى الجزء الخلفي من المقهى، حيث انسدلت ستارة فاخرة سميكة أمام حجيرة خاصة.

سحب الرجل الستارة فرفعت هولاند عينيها وشعرها الفضي مثبت بنسق جميل كأمواج لطيفة منحسرة عن وجهها.

حنى الرجل رأسه بعض الشيء ولم ينظر في عيني هولاند وهو يقول: «ضيفتك يا سيدتي».

فقالت بعبوس: «شكرًا»، ولبثت نظرة العبوس مرتسمة على وجهها وهي تنظر إليّ وتقول: «أرى أنكِ لم تكلفي نفسك عناء تنظيف نفسك بعد رحلتك في البحر».

دلفت إلى الحجيرة وجلست قبالتها والطاولة بيننا، وحاولت توخي الحرص في التعامل مع القماش المخملي. لم يرقني هذا. لم يرقني ما كانت تفعله بعقد المقابلة معي هنا، وكرهتُ شعوري بالضآلة. ارتكزتُ بمرفقيّ على الطاولة وانحنيت تجاهها، وتلوّى وجهها وهي ترمقني.

ظهر النادل مرة أخرى حاملًا صينية عليها كأسان فاخران حوافهما مرصعة بالألماس الأزرق وبداخلهما سائل صافٍ جعل الفضة تبدو كأنها مذابة. وانحنى الرجل انحناءة أخرى قبل أن ينصرف.

انتظرت هولاند انغلاق الستارة قبل أن ترفع كأسًا وتشير إليّ برفع الكأس الأخرى، وترددتُ قبل أن أرفع الكأس عن الصينية.

انجرف كوبها تجاهي وقالت: «نخبك».

فنقرت حافة كأسي بكأسها وسألت: «نخب ماذا؟».

بيد أنها رنت إليّ بنظرة ذات مغزى كأنما تجد سؤالًا باعثًا على التسلية، وقالت: «نخب شراكتنا».

فقلت وأنا أرمقها وهي ترتشف رشفة: «الشراكة تنضوي على قوة متساوية». فزمّت شفتيها وهي تبتلع الشراب، ثم أعادت الكأس إلى الطاولة بحذر شديد.

وارتشفتُ رشفة وابتلعتها بصعوبة مع اندلاع لهيب في فمي، كان المشروب باعثًا على الغثيان.

حولتْ مجرى الحوار قائلة: «غدًا»، وأحسست بالامتنان لأننا لم نوغل في الحديث غير العملي. إنها جدتي، بيد أنني لست بلهاء. إن عملي تحت إمرتها لا يختلف عن عمل ويست تحت إمرة سينت. إذا جرت الأمور على غير ما يرام في اجتماع مجلس التجارة واكتشفتْ ما كنتُ أحاول فعله فسوف يكون مصير أفراد الطاقم جميعًا كمصير زولا. سوف تُلقى جثثهم في الميناء ويُقضى على السفينة ماريجولد أو تُضم إلى أسطول هولاند.

قالت وهي تطوي أصابعها المزيّنة بالخواتم أمامها: «كل شيء مرتب وجاهز. سوف يفتح المجلس المجال للأعمال التجارية وسوف أتقدم بالاقتراح، وسوف أقدمكِ لهم بصفتك المسئولة عن مساري التجاري الجديد في منطقة المضايق».

سألتها: «ما الذي يجعلك تعتقدين أنهم سيصوّتون لصالحك؟».

كادت تضحك، ثم قالت: «فيبل، أنا لست حمقاء. إن أعضاء مجلس التجارة يكرهونني، كلا المجلسين في المنطقتين. إنهم بحاجة إلى نقودي لمواصلة حركة التجارة، لكنهم رسموا حدودًا واضحة جدًّا للحيلولة دون سيطرتي على أعمالهم. أنت من أبناء منطقة المضايق، وجرّافة ماهرة، وتعرفين كيف تبحرين». ثم ارتشفت رشفة أخرى من الكأس وأردفت: «وخبيرة أحجار كريمة».

خبطت كأسي على الطاولة بشيء من القوة، وسألتها: «سوف تخبرينهم بأنني خبيرة أحجار كريمة؟».

فتساءلت: «لِمَ لا أفعل؟».

احتدت نظراتي إليها وأنا أحاول قراءة النظرة التي تلوح في عينيها، وقلت: «لأن ذلك خطر».

ثمة سبب لاختفاء خبراء الأحجار الكريمة الكامل الآن. لقد ولّى زمن كان فيه لقب خبير أحجار كريمة منشودًا، أما الآن فما من أحد يريد أن يكون له شأن بهذا اللقب؛ إذ صار التجار يفعلون أي شيء للسيطرة على خبراء الأحجار الكريمة.

وأردفتُ: «أنا لست خبيرة أحجار كريمة. لم أُتم تدريبي».

فلوّحت بيدها معترضة على كلامي وعقبت: «هذه بالضبط هي التفاصيل التي لا يحتاجون إلى معرفتها».

اتكأت بظهري على المقعد وهززت رأسي، ربما كان هذا سببًا آخر لرحيل إيزولد عن باستيان. أظن أن هولاند حاولت استغلال أمي أيضًا.

وواصلت كلامها: «الآن، من المهم أن تتصرفي بثقة وثبات إذا أردنا ترك الانطباع المنشود. ما من طريقة لجعلك تندمجين في هذه البيئة على نحو طبيعي، لكني أظن أن هذا سوف يصب في صالحنا».

ها هي ذي تستخدم ضمائر الجمع مرة أخرى.

وتابعت: «لا تتحدثي ما لم يُوجه إليك الحديث. سوف تدعين لي مهمة الإجابة عن أسئلة المجلس التجاري. وسوف تظهرين بمظهر لائق»، وحدقتْ إلى ثيابي مرة أخرى قبل أن تكمل: «سوف أكلف خيّاطة بتهيئة فستان يليق بكِ الليلة».

حدجتها وأنا أسأل: «ماذا لو لم يمنحوك الترخيص؟».

فانبرت تقول بلهجة دفاعية: «سوف يمنحونني إياه. بخروج زولا وسينت من المشهد ستكون منطقة المضايق مضطرة إلى تجارة قوية بديلة لتربط بينها وبين منطقة البحر

المجهول. وإذا توليت إدارة التجارة فسوف يربح الجميع».

إلا سينت، وأنا.

حاولت الاسترخاء، واستنشقتُ نفسًا بطيئًا وأنا أمسك بالكأس الفضية وأرتشف رشفة أخرى. لقد أحكمت هولاند التدبير. مع خروج زولا من المشهد سوف ينبري كل قباطنة منطقة المضايق لأخذ مكانه والتنافس مع سينت على القوة القليلة المتبقية، ولكن إذا حصلت هولاند على ترخيصها فسوف تكون القوة كلها بين بيديها بحلول مغيب شمس الغد.

قلت: «لنُتمّ هذا».

فسألتني: «نُتمّ ماذا؟».

أجبت: «العقد».

فمدت يدها وسحبت حقيبة جلدية بجوارها على المقعد وفتحتها. وراقبتُها وهي تعبث في الأوراق قبل أن تعثر على ما تبحث عنه - مظروف لا تميزه علامة. ووضعته على الطاولة أمامي.

التقطتُ أنفاسي بغية تهدئة خفقان قلبي. حالما أوقّع على العقد فلا رجعة. سيكون مصيري بين يدي هنريك. رفعتُ إحدى يديّ من حِجري وفتحت المظروف وأخرجت الورقة من داخله، وأحسست بانقباضة في أحشائي وأنا أفتحها أمامي.

جرت عيناي على العبارة المكتوبة بالحبر الأسود مرارًا وتكرارًا.

وثيقة ملكية سفينة

وتحت العبارة مذكور اسم ماريجولد.

سألتها بتلعثم: «ما هذا؟».

فقالت وهي تغلق حقيبتها: «إنها وثيقة ملكية السفينة كما وعدتك».

قلت: «لكني لم أوقع العقد بعد».

فابتسمت هولاند وقالت: «أوه، لقد دُفع ثمنها. لقد أَجريتُ التغييرات التي تم طلبها في مكتب التجارة. يجب أن يكون كل شيء جاهزًا».

فقلت: «ماذا؟»، وحملت الوثيقة وقرأتها على ضوء الشموع بقلق.

نقل ملكية:

استنشقتُ نفسًا وفُغر فمي حين رأيت اسمي. كان مكتوبًا بالخط نفسه المكتوب به بقية الوثيقة. ثم شهقت وأنا أتساءل والوثيقة تهتز في يديّ بالفعل: «ماذا فعلتِ؟».

واجتاح الإدراك ذهني حتى آلمني رأسي وأنا أربط الخيوط ببعضها، ثم قلت: «ويست».

لقد وقّع ويست عقد العمل الممتد لعامين مع هولاند.

وقالت هولاند: «لقد تغيرت شروط اتفاقنا. وقع ويست العقد مقابل ماريجولد»، وسحبت ورقة أخرى من داخل الحقيبة وأردفت: «لكن لديّ عرضًا جديدًا لكِ».

حدقتُ إلى الوثيقة التي أخرجتها، كان ثمة عقد آخر.

وتابعتْ وهي تبتسم بسرور: «هل ما زلت تريدين إنقاذ أبيك؟ هذه فرصتك».

لقد انزلقنا في فخها، ليس مرة، بل مرتين. عندما وقّع ويست عقد هولاند اعتقد أنه كان ينقذني. لكن هولاند ضربت عصفورين بحجر واحد. وقد عرفتُ ذلك. لا يداخلها شك في أنني سأوقع العقد.

التقطتُ الريشة وأجريتها فوق الورقة، وبعد أن وقعتُ طالعتُ اسمي وهو متلألئ بالحبر الرطب.

نهضت من المقعد وفتحت الستارة بيدي القابضة على الوثيقة. ووخزتني الحرارة تحت جلدي وأنا منطلقة في المقهى إلى الخارج. وفتحتُ الباب وخرجتُ أبحث عنه في الشارع.

كان ويست واقفًا في الجانب الآخر من الطريق متكئًا على جدار.

وهتفت بصوت متوتر وأنا أعبر الطريق تجاهه: «ما الذي فعلته؟».

انتصب في وقفته وأخرج يديه من جيبيه حين توقفت أمامه وأنا أغلي غيظًا. قال: «فيبل...»

دفعتُ الوثيقة المجعدة في صدره وسألته بسخط: «لماذا اسمي مدوّن على هذه؟».

حدق ويست إلى المظروف.

واستطردتُ: «أهذا سبب غضب باج وهاميش؟ الجميع يعرف بهذا إلا أنا؟».

فقال: «ويلا وأوستر لا يعرفان».

فقلت بحنق: «هل ستتخلى عن ماريجولد بهذه البساطة؟ هل ستغادر هكذا؟».

فقال: «إني أفعل ما كنتِ ستفعلينه. عامان مع هولاند ثم العودة إلى منطقة المضايق».

كنت أستشيط غضبًا لدرجة أنني شعرت بغليان الدم في عروقي، قلت: «أنت القبطان يا ويست».

بدا ويست يزن كلماته قبل أن يقول: «سوف يتولى باج قيادة السفينة».

صحت مستهجنة ما نطق به: «ماذا؟»، وصار الناس يتوقفون للتحديق في المشهد، بيد أنني لم أكترث.

قال: «سوف يباشر الطاقم تهيئة مسارنا التجاري على النحو الذي قلناه. وسيكونون في انتظاري عندما أعود إلى منطقة المضايق».

أردت أن أصرخ، وأن أضربه، ثم سألته بغضب: «لماذا اسمي مدون على الوثيقة؟».

فزفر ويست بسخط وقال: «لست أريد اسمي عليها إذا...»، ولم يتم جملته.

فحدجته بنظرات أشد حدة وتساءلت: «إذا ماذا؟».

فأكمل: «إذا حدث شيء لي وكانت السفينة باسمي فإن ملكيتها ستؤول إلى مجلس التجارة إلى أن يتمكن الطاقم من دفع مبلغ لقاء نقل الملكية. أما إذا كانت الملكية باسمك فلن يحدث شيء».

ألهبتنى الدموع المحتشدة خلف عينيّ حتى ماجت صورته التي أراها، وقلت: «إذن ستعمل لصالح هولاند، وتفعل ما تأمرك به».

فردد الكلمات التي جعلته يقطع وعدًا بها ليلة أمس: «سوف أفعل ما يتعين عليّ فعله».

قلت: «ليس هذا ما قصدته. أنت تعلم أن هذا ليس ما قصدته».

لم يكن لديه رد على ذلك.

وسألته بصوت مبحوح: «كيف أمكنك فعل هذا؟».

وشرعتُ في السير، لكن دبيب خطوات ويست الثقيلة تردد ورائي قبل أن يمسك بذراعي ويجذبني للخلف ويقول: «لن أعود إلى منطقة المضايق من دونك».

كان جليًّا أنه لن يتراجع عن موقفه، ولم يكن ليستطيع التراجع على أية حال، لقد وقّع العقد. لكن نفس ويست كانت مسكونة بالشر بالفعل، إذ كانت روحه مظلمة. ولم أكن أريد أن أعرف الشخص الذي سوف يكونه إذا أمضى عامين آخرين في اقتراف شرور بأوامر شرير آخر.

يمكنني الشعور بذلك، إذا خسرتُ أمام هولاند في اجتماع مجلس التجارة فسوف أخسر ويست.

قلت ودمعة تنسل على خدي: «لن تضطر إلى ذلك، ولا أنا».

تساءل: «ماذا؟».

أجبته: «لقد وقعت على عقد أيضًا».

فعاد يتساءل: «لماذا؟ كيف؟».

فنظرت إليه وقلت: «من أجل سينت. الآن كلنا حصلنا على ما نريد. أنت، وأنا، وهولاند» وكدت أضحك من عبثية الوضع كله.

زفر ويست زفرة ثقيلة مرسلًا بصره ورائي. كان عقله يمور مفتشًا عن مخرج.

وأردفت: «لا يمكنك الاستمرار في محاولة السيطرة على كل شيء. لا يمكنك إنقاذ الجميع يا ويست».

بيد أنه لا يعرف كيف يكُف دَيدَنه ذلك.

هززت رأسي، وشرعت في هبوط التل من دونه.

الآن ليس مصيري فقط هو الذي بين يدي هنريك، بل مصير ويست أيضًا.

السادس والثلاثون



ربضت حانة ليث عند طرف شارع ليندن، وكان يعج بالمتوافدين إلى السوق والخارجين منه قبل أن يُقرع جرس إغلاق السوق.

سلط ويست ناظريه عليّ وأنا أرسل بصري عبر النافذة بحثًا عن رأس مكسو بشعر داكن قصير. ستكون طامة كبرى إن اكتشفت هولاند أننا نلتقي بأحد أفراد آل روث. إذا اكتشفت ذلك فستغرق جثتنا جميعًا في مياه الميناء، بدماء أو من دون دماء.

إذا أنجز آل روث الاتفاق فسيؤدي ذلك إلى تدمير تجارة هولاند في باستيان. لم يكن تجار منطقة المضايق وحدهم مَن سيستفيدون من سقوطها؛ فسطوة هولاند تتعدى تجارة الأحجار الكريمة، إذ كانت لها روابط وعلاقات جيدة مع أعضاء النقابات لتنفيذ ما تحتاجه، لأنها كانت الوحيدة القادرة على رد تلك الأنواع من الخدمات. لكن آل روث يعتمدون بدرجة كبيرة على هولاند ومواردها، وسيخسرون إذا سقطت عن عرشها.

كان أملي معقودًا على أن ما يمكن أن يكسبوه من سقوطها سوف يفوق ما يمكن أن يخسروه.

قال ويست وهو يراقب أصابعي تعبث بالزر على سترتي: «سوف يأتي».

فقلت ببرود: «أعرف». بيد أنني لم أكن متأكدة من أي شيء، لا سيما بعد ما قاله سينت عن أن احتمالية إنجاز آل روث للوعد كاحتمالية نكثهم له. بثت كلماته في نفسي شعورًا بالاضطراب الهائل كالشعور الذي يخالجني حين أقتحم عاصفة في البحر وأنا لا أدري ما إذا كنت سأنجو منها.

ناداني ويست: «فيبل»، وانتظرني أن أشيح ببصري عن النافذة وأنظر إليه.

ولكن كل ما كان يشغل فكري هو اسمه المدون في عقد هولاند. كيف لم أتوقع ذلك. لم يُخفِ ويست الأمر عني فقط، بل تلاعب بي. قلت: «لا تفعل»، وأعدت ناظريّ إلى النافذة.

امتلأت الطاولات والحجيرات داخل الحانة بالناس. وضغطت يدي على الكأس ورحت أبحث عن عِزرا مرة أخرى.

شد ويست كم سترتي وبصره مثبت عند نهاية الزقاق، حيث وقف أربعة أو خمسة أشخاص في زاوية.

ثم همس قائلًا: «إنه هو».

سرتُ على طول جدار الحانة حتى رأيته. كان عزرا يراقبني من تحت غطاء الرأس الملحق بسترته، ولا يظهر منه سوى يديه المليئتين بالندوب. وعندما توقفتُ أمامه خرج الآخرون من حيث كانوا متوارين واصطفوا بجواره، ثلاثة شبان وفتاة، ولم أتعرف على أيٍّ منهم. وكان معهم أيضًا الصبي الذي ناداه هنريك باسم ثُرو، حيث ارتدى سترة فاخرة يتدلى منها سلسلة ساعة ذهبية مدسوسة في جيب السترة.

خطا الشاب ذو الشعر الكستنائي المجاور لعزرا خطوة تجاهي وصعّد بصره نحوي، وظهر وشم آل روث من تحت كم قميصه المطوي.

لم يهدر عزرا أي وقت، ليسألني مباشرة: «هل أحضرتِه؟».

فسحبت يدي من جيب سترتي ومددتها أمامه حتى يتسنى له رؤية خاتم تجارة الأحجار الكريمة المعتمد الذي أزين به إصبعي الوسطى.

هز رأسه بنصف ضحكة وقال: «كيف حصلتِ على هذا بحق الجحيم؟».

فقلت: «هل يهم هذا؟».

فابتسم الشاب ذو الشعر البني قائلًا: «لقد أخبرت هنريك بأن إنجازك لهذه المهمة مستحيل»، وخطا خطوة للأمام ثم مد يده قائلًا: «مورو. لا بد أنك فيبل».

فحدقت إلى يده دون حراك، إلى أن أعاد يده إلى جانبه.

ثم قلت وأنا أحاول قراءة تعابير وجهه: «هذا يجعلني أتساءل عما إذا كنت قد أنجزت جانبك من الاتفاق».

لكن خلفه كان وجه عزرا يخلو من التعابير، في حين كانت ملامحه ساكنة. وقال مورو: «لقد فعلتُ، لكنني أخذت حيطتي». عندئذ خرجت مجموعة رجال من الباب الجانبي للحانة، وراقبهم عزرا بطرف عينيه.

ثم خلعت الخاتم من إصبعي ووضعته في كفه. وعلى الفور أخرج نظارته أحادية العدسة من سترته ووضعها على عينه وهو يبتعد عني حتى يتمكن من فحص الحجر الكريم الذي يرصع الخاتم. وحين انتهى دسه في جيبه.

قلت بنبرة تزداد صلابة: «لقد أوفيت بجانبي من الاتفاق، والآن حان دورك. كيف أعرف أنك ستنجز ما وعدت به؟».

لاحت ابتسامة عريضة على شفتي مورو وتألقت عيناه بالتماعة وهو يقول: «أعتقد أنه عليكِ الوثوق بنا».

عندئذ تحرك ويست من موقفه بجواري، وفي طرفة عين وقبل أن أدرك ما يجري كانت يداه تطوقان حلق ترو وتسحبانه نحونا.

ناديته: «ويست!».

واستل كل من عزرا ومورو سكينًا، واندفع عزرا إلى الأمام، ثم تجمد عندما ضغط ويست بطرف النصل على حلق ترو الذي اتسعت عيناه وامتقع وجهه.

قلت بحشرجة: «ماذا تفعل؟».

ووضعت يدي على ذراع ويست. ورغم مظهره الخارجي الهادئ استشعرت نبضه القوي المتفجر في جسمه. أردت أن أصدق أن هذه خدعة، وأنه لن يؤذي طفلًا، بيد أن النظرة التي لاحت في عينيه شكّكتني في ذلك، كان هذا هو ويست الذي وظّفه أبي، الشخص الذي اعتمد عليه في تنفيذ المهمات القذرة.

قال ويست بوجه هادئ وترو يقاوم بين يديه بصراخ تكتمه يد ويست الموضوعة على فمه: «هذه هي المشكلة. لست أثق بكم».

وانسلت قطرة دم متلألئة تجري أسفل عنق ترو إلى أن لطختْ ياقة قميصه الأبيض النظيف. وراقبتُ عيني ويست اللتين بدتا خاويتين.

أردف قائلًا: «خذ الخاتم، وسنأخذ الصبي. وسوف نعيده لك غدًا، بعد اجتماع مجلس التجارة».

فقال عزرا: «لن تمضي به إلى أي مكان». ووثبت عيناه من ويست إلى ترو وقد بدا خائفًا. وتذكرت أن آل روث كانوا عائلة يتشاركون دمًا واحدًا باستثناء عزرا.

لكن كان ثمة شيء غريب بشأنه. كانت عيناه تلتمعان بالتماعة مختلفة عن تلك التي تلتمع في عيون هنريك أو هولاند أو سينت. بدا قلقا حقًّا على الصبي، وأدركت أن أوستر كان محقًّا حين قال إن عزرا ينتمي إلى طينة مختلفة، فلماذا إذن لا يزال مع آل روث؟».

وفي تلك اللحظة سألته بما يشبه الهمس: «رأيته تلك الليلة، أليس كذلك؟».

فبدا عزرا متحيرًا وهو يسأل: «مَن؟».

قلت: «أوستر. رأيته في تلك الليلة، بيد أنك تظاهرت أنك لم تره».

ولاح الجواب جليًا في طريقة تضييق عينيه. أيًا كانت أسبابه فقد سمح لأوستر بالاختفاء ليلة رحيله عن عائلة روث. لا يسعني إلا أن آمل أن طيفًا من إخلاصه هذا قد يمتد إلينا جميعًا.

قال عزرا وهو يصر على أسنانه ويتحدث بنبرة تهديد واضحة: «سوف أسلم المطلوب الليلة. إذا لحق الصبي أذى أو سمع أي أحد كلمة واحدة عن هذا فسوف تدفعين الثمن. أنت لا تريدين أن تطأ قدمك حِمى هنريك، أتفهمين؟».

فأومأت برأسي وأنا أشعر بأن صدق الكلمات يجعلها تتعمّق في نفسي، وقلت: «أفهم». استطعت أن أرى أن جزءًا منه راقه المكر الذي اكتنف الوضع، بيد أنه لم يكن على استعداد لمواجهة ردة فعل هنريك أو هولاند من أجلي، ولم يكن ليضحي بالصبي من أجلهم أيضًا.

ثم تحدث إلى ترو قائلًا: «لن يمسك سوء».

ورفع ياقة سترته قبل أن ينطلق مرة أخرى رفقة الآخرين.

اتسعت عينا الصبي وأطلق أنينًا رهيبًا حين أدرك أنهم قد غادروا من دونه حقًا. أمسكتُ بسترته وانتزعته من يدي ويست، وطوقته بذراعيّ على نحو وقائي. ثم قلت لويست: «ماذا تفعل بحق الجحيم؟».

أغمد ويست سكينه في حزامه وقال: «كنا بحاجة إلى نقطة قوة تعزز موقفنا. وقد حصلنا عليها».

مسحتُ الدم عن عنق ترو بحاشية قميصي، وقلت له: «هيا بنا»، ووضعت إحدى ذراعيّ حوله وشرعنا في السير، وأردفت: «لا بأس عليك. لن نؤذيك».

لم يبد مقتنعًا وهو ينظر من فوق كتفه إلى الزقاق المظلم من ورائه حيث اختفى عزرا ومورو.

وسار ويست في إثرنا دون أن يبدو عليه أي أثر للانزعاج أو التأثر. كان كل هذا في غاية البساطة عنده: إصدار أمر للطاقم بالتوجه إلى كوكبة يوري، والكذب بشأن وثيقة الملكية، وتوقيع عقد مع هولاند، واختطاف صبي وتهديده بالقتل.

ما الأمور الأخرى التي لن يتوانى عن فعلها؟

تردد صدى كلمات ويلا متزامنًا مع دبيب خطواتي.

لقد حذرنا أوستر من عدم الثقة في آل روث، بيد أنني وضعت كل القوة بين أيديهم، أما الآن فقد استعاد ويست شيئًا منها.

السابع والثلاثون



اختارت هولاند أعمق طيفٍ من أطياف اللون الأخضر الزمردي ليكون لون فستاني، وتهادى القماش الحريري في الضوء كأنه أوتار من زجاج أخضر. وقد استشعرت أن هذا المشهد قد أثار ذكرى من مرقدها، كالنفخة التي تؤجج الجمر، لكن لم أستطع تبيُّن تفاصيل تلك الذكرى.

ركضت أصابع الخيّاطة على الحاشية بعناية وهي تثبّتها عند خصري حتى التف القماش على ساقيّ.

ما انفكت عيناي تنجرفان نحو الباب المغلق بحثًا عن ظهور ظِل. كانت الخيّاطة التي أرسلتها هولاند في انتظارنا عندما عدنا إلى السفينة، كما وعدث، وانطلق ويست مباشرة إلى مؤخرة السفينة لمساعدة ويلا في تركيب المرساة الجديدة. وردد أفراد الطاقم نظرة تساؤل بيننا وبين ثُرو في صمت مطبق.

وأوكلتُ رعاية الصبي لهاميش الذي ارتأيت أنه الشخص الذي لن يُقدم على رمي الصبي في البحر.

قالت الخيّاطة بطرب وهي تسحب إبرة من وسادة معصمها: «لقد أوشكت على الانتهاء». وثبتت الزاوية بثلاث غرز وقصّت بعض الخيوط قبل أن تنهض واقفة خلفي قائلة: «استديري». ترددتُ قبل أن أمتثل، وراحت عيناها تتفحصان كل أنملة مني، ثم قالت: «حسنًا»، وقد بدت راضية وهي ترفع لفة القماش وتسندها على خصرها قبل أن تخرج من الباب.

عدت إلى المرآة التي أحضرها رجال هولاند إلى السفينة ماريجولد، وركضتْ يداي على التنورة بعصبية. بدا قماش التنورة أشبه بالزبدة الذائبة؛ ناعمًا وسلسًا على ضوء الشموع. لكن لم يكن هذا ما بثّ شعور الاضطراب في نفسي.

ازدردتُ ريقي وأنا أتذكر، هذا هو الفستان الذي ترتديه أمي في الصورة المعلقة بمكتب هولاند. لقد بدوتُ شبيهة بها؛ لقد بدوت شبيهة بهولاند؛ بدوت لائقة بحضور حفل فخم أو الجلوس في حجيرة خاصة بمقهى فاخر.

لكن السفينة ماريجولد كانت هي المكان الوحيد الذي أردت أن أنتمي إليه.

تناهى إلى أذني صوت طرقة على الباب قبل أن يدور المقبض.

عندما فُتح الباب رأيت ويست واقفًا في الممر وهو يقول: «هل يمكنني الدخول؟».

طوقتُ نفسي بذراعيّ خجلًا وأنا أحاول تغطية خصر الفستان، وقلت: «إنها غرفتك».

دلف إلى الداخل وخلع سترته، ولم ينبس بشيء وهو يعلقها على الخطاف، في حين حامت عيناه فوقي. لم ترقني النظرة التي لاحت في عينيه، ولم يرقني الشعور بوجود هذا الحاجز النفسي بيننا، بيد أن ويست لا يفصح عما يعتلج في نفسه، فينزوي بمعزل نفسيّ عني.

شاهدته يخلع حذاءه البالي، وسرت لسعة برودة في الرياح المتدفقة إلى الغرفة فانبثت رعدة في جسدي.

قلت بلطف: «أنت وغد عنيد».

فارتسم طيف ابتسامة على وجهه وهو يقول: «وأنتِ كذلك».

قلت: «كان ينبغي أن تخبرني بتوقيعك على العقد».

فازدرد ريقه قائلًا: «أعرف».

أمسكت التنورة ورفعتها واقتربت منه، بيد أنه ثبت عينيه على الأرضية، إنه لا يزال يهرب مني. قلت: «لست شخصًا آخر يتعين عليكَ الاعتناء به. عليك أن تغير أسلوبك هذا».

فأقر قائلًا: «لست أدري كيف أكف نفسي عن ذلك».

فعقدت ذراعيّ وقلت: «أنا أدري. لكن عليك اكتشاف ذلك بنفسك. يجب أن أراك جديرًا بالثقة، يجب أن أكون متأكدة أننا نتعاون حتى في خلافنا».

فقال: «نحن نتعاون».

فقلت: «كلا. أنت تحاول اتخاذ قرارات نيابة عني، تمامًا مثل سينت».

استفزته تلك الجملة.

وتابعت: «عندما أبرمت هذا الاتفاق مع هولاند فقد أبرمته وحدي. ولم يكن يجدر بك أن تتدخل في الأمر».

فزفر وهو لا يزال مثبتًا عينيه عند قدميّ وقال: «أنا أحبك يا فيبل. لا أريد أن أضطلع بشيء من دونك».

وفجأة اكتسحتني موجة أسى بددت الغضب الذي كان يملأ نفسي. كان ويست يفعل الشيء الوحيد الذي يتقنه. سألته: «هل ستنظر إليّ؟».

وأخيرًا رفع بصره.

عدت أسأله: «هل كنت ستؤذي ذلك الطفل؟ حقًا؟».

فعض على خده من الداخل قائلًا: «لا أظن ذلك».

كانت إجابة صادقة، بيد أنها لم ترقني. وقلت: « لقد قطعنا وعدًا بعدم فعل ذلك. هل تتذكر؟».

أجاب: «نعم».

قلت: «أنت لست سينت. ولا أنا».

حامت عيناه فوقي وقد توترت أعصابه.

سألته: «ما الخطب؟».

فزفر زفرة إحباط وهو يشير إلى المسافة الفاصلة بيننا ثم إلى الفستان وقال: «هذا، كل هذا».

فنظرت إلى تنورة فستاني وأنا أحاول حبس ضحكتي. وحنيت رأسي جانبًا وضيّقت عيني بطريقة مازحة وسألته: «هل تحاول أن تقول إن فستاني لا يروقك؟».

لكنه لم يبتلع الطُّعم، وقال بفتور: «لا يروقني».

سألته: «ولِمَ لا؟».

أجرى يده في شعره مزيحًا إياه عن وجهه وهو يلقي نظرة باردة على الحرير المتلألئ. ثم قال: «أنتِ لا تشبهين نفسك. والرائحة ليست كرائحتك».

لم يسعني إلا الابتسام رغم أنني رأيت أن ذلك أزعجه. بيد أن مشهده راقني وهو واقف بجوار النافذة حافي القدمين ونصف قميصه غير مدسوس في سرواله. كان ذلك جانبًا من ويست لم أعرف عنه سوى لمحات.

خطوت خطوة أخرى نحوه وحاشية الفستان تتدلى على الأرضية ورائي.

قال وهو يبتسم أخيرًا: «سأكون سعيدًا إن لم أركِ ترتدين شيئًا من تلك السخافات مرة أخرى».

فقلت: «حسنًا»، ورفعت يدي لأفك الأزرار واحدًا تلو الآخر حتى ارتخى الفستان بما يكفي للانزلاق فوق كتفي، وشاهده ويست وهو يسقط على الأرضية متكومًا فيما يشبه البركة الخضراء. وقد كان الفستان الداخلي يضاهي سخافة الفستان الخارجي، إذ كان مربوطًا بقصاصات من الحرير الأبيض تلتقي عند الوركين. ثم سألته: «هكذا أفضل؟».

فقال: «أفضل».

ولوهلة بدا الأمر كأننا لسنا في ساجساي هولم، وكأننا لم نأتِ قط إلى منطقة البحر المجهول ولم نتقابل مع هولاند. لكن ابتسامته توارت مرة أخرى، وكأن الخاطرة ذاتها تجوب في ذهنه.

وتساءلتُ عما إذا كان يتمنى لو أنه اتخذ قرارًا مختلفًا في تلك الليلة عند جزر الحاجز. لقد حررته من قبضة سينت، بيد أنني اجتررته إلى منطقة البحر المجهول ووضعته بين أنياب هولاند. كنت على وشك أن أفقد ماريجولد، ولا يَخفى أثر ذلك عليه، وليس لديّ أي سيطرة على ما سوف يحدث.

ارتمت الظلال على خديه فبدا لوهلة كأنه شبح. وكززت على أسناني وغاص قلبي في صدري؛ إذ كان خوفي يتلوّى تحت غضبي، كنت أخشى أنه يتصرف وفق ما يناسب طبيعته فقط، وأنه وقّع العقد مع هولاند لأنه أراد أن يتصرف بسلوكيات الشخص الذي صنعه سينت.

يمكنني أن أحب هذه النسخة من ويست، هذه النسخة التي لها ماضٍ مظلم، بيد أنني لا أقبل أن تربطني به آصرة إذا عاد إلى ذاك الماضي المظلم.

قلت: «أريد أن أطرح عليك سؤالًا».

فقال: «حسنًا».

فقلت وأنا غير متأكدة من كيفية طرح السؤال حقًّا: «لماذا وقّعت على العقد؟».

فسألني: «هل تريدين أن تعرفي حقًّا؟».

أجبت: «نعم».

فطرف بعينيه في هدوء، وساورني خوف مما قد يقوله. ثم قال: «أخشى أن ما ستقدمه لك هولاند سوف يغريكِ، وهو ما لن أستطيع تقديم مثله لك أبدًا»، ولاحت في عينيه نظرة وهن جعلتني أزدرد ريقي بصعوبة، وواصل: «لا أريدك أن تعملي لصالح هولاند لأنني أخشى أنك لن تعودي إلى منطقة المضايق، لن تعودي إليّ».

أحسست بغصة في حلقى من أثر جيشان العاطفة، وقلت بصوت غير مستقر: «لست أريد ما تملكه هولاند. أريدك أنت. ليس بوسعها أبدًا أن تقدم لي ما يمكنك تقديمه لي».

فتوردت وجنتاه، لم يكن من اليسير عليه البوح بالحقيقة بهذه الصراحة.

وأردفت: «لا أريدك أن تعمل تحت إمرة هولاند أيضًا. لست أريدك أن تكون ذلك الشخص بعد الآن».

فقال: «لن أضطر لذلك إذا سارت الأمور غدًا كما هو مخطط لها».

فخطوت خطوة تجاهه وقلت: «حتى إن سارت على غير ما يرام. فلا أريدك أن تعمل تحت إمرتها».

قال: «لقد وقّعت على العقد بالفعل يا فيبل».

قلت: «لست أهتم. عِدني، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن ماريجولد؛ حتى لو كان علينا البدء من جديد».

واضطربت عضلات فكه حين التقت عيناه بعيني، وقال: «حسنًا».

فقلت: «أتقسم على ذلك؟».

فقال: «أُقسم».

عندئذ تنهدتُ ارتياحًا وأخيرًا انقشع التوتر الذي اشتملني، لكن ويست بدا بائسًا وهو يفرك وجهه بيديه ويتململ في وقفته بقلق.

كنت أعرف الباعث على ذلك، كان ذلك إثر الشعور بالمحاصرة، من عدم وجود مخرج. عرفتُ ذلك لأن هذا الشعور خالجني أيضًا. وقلت بصوت خفيض: «قال أبي إن أسوأ خطأ ارتكبه على الإطلاق هو السماح لإيزولد بالصعود على سفينته».

فرفع ويست ناظريه وكأنه يعرف ما سأقوله.

وهمستُ: «أظن أنه ربما كره حقيقة أنه أحبها».

وجثم صمت على أرجاء الغرفة، وقد تلاشت أصوات البحر والقرية.

ثم سألني: «هل تسألينني ما إذا كنت أشعر بهذا الشعور؟».

فأومأت برأسي إيجابًا، وندمت على ذلك في الحال.

رمقني بنظرة بدا فيها وكأنه يُقيّمني ويحاول أن يقرر ما إذا كان سيجيب، ما إذا كان يأتمنني على الجواب الصريح. ثم أقر: «أحيانًا».

لكن ذلك لم يورثني الفزع الذي كنت متأكدة من أنه سيتولاني حين أسمع مثل هذه الإجابة؛ وذلك لأن ويست لم يُشح بناظريه عني وهو ينطقها.

وأردف: «لكن هذا لم يبدأ في تلك الليلة عند جزيرة جيفال حينما طلبتِ مني نقلك إلى سيروس. لقد كانت البداية قبل هذا بوقت طويل».

ترقرقت الدموع في عينيّ وأنا أرفع ناظريّ نحوه وأقول: «لكن ماذا لو...»

فقاطعني: «فيبل»، واقترب مني حتى التصق بي ورفع يديه إلى وجهي وانزلقت أصابعه في شعري. ملمس يده هيّج الحرارة في جسدي، ونشقتُ وقد ملأني الابتهاج لأنه لمسني أخيرًا. كان فمه فوق فمي بمسافة أنملة، وقال: «الإجابة عن هذا السؤال ستكون هي ذاتها دائمًا. لن يغيرها أي شيء»، واشتدت يده عليّ وهو يردف: «أنتِ وأنا، بيننا ميثاق غليظ لا ينفصم».

بدت الكلمات وكأنها عهود. ولكن ثمة أسى اندلع في صدري وهو ينطقها، كأنما قوة عواطفه قد أثقلت نفسي بوطأتها الشديدة.

سألته بصوت ازداد عمقًا وأنا منتظرة أن يلمس فمه فمي: «إلى متى يمكنك العيش هكذا؟».

فانفرجت شفتاه قبيل القبلة العميقة، وقال بصوت عميق: «للأبد».

تلوت أصابعي في قميصه وأنا أشده نحوي، وفي طرفة عين انقشع الحاجز النفسي الذي كان يفصل بيننا منذ دقائق، لقد تلاشى في اللحظة التي تلامسنا فيها. لقد استشعر ذلك أيضًا، بدا ذلك في تحول قبلته إلى نهم وشوق جارف، وفي لمساته الحميمية لي.

ابتسمت وفمي ملتصق بفمه وقدماي الحافيتان تتخطيان الفستان الحريري المُكوّم على الأرضية وقد تأججت عواطفنا معًا.

وفي خضم اللحظة تلاشى العالم كله، هولاند وسينت واجتماع مجلس التجارة وحجر قلب الليل وآل روث. قد تكون هذه ليلتنا الأخيرة على ماريجولد، قد تكون هذه ليلتنا الأخيرة وسط هذا الطاقم، لكن أيًّا ما سيحدث غدا فسوف نخوضه معًا.

أنتِ وأنا.

ولأول مرة، صدقته.

الثامن والثلاثون



ترددت دقات جرس الميناء فوق صمت ساجساي هولم وأنا واقفة عند النافذة أشاهد الضباب ينسكب فوق الأرصفة.

دس ويست خصلات شعره الجامحة خلف أذنه، وكانت عيناه مثبتتين على أزرار سترته، بيد أنني كنت أفكر في منظره في ضوء الشموع ليلة أمس، حيث ارتمى الضوء الدافئ على جلده البرونزي. ما زلت أستشعر ملمس جلده الملتحم بجلدي؛ وتوردت وجنتاي إثر تلك الذكرى. لكن ويست لم يبد محرجًا، في الواقع بدا أكثر استقرارًا وثباتًا.

استنشقتُ نفسًا طويلًا وبطيئًا في محاولة تهدئة أعصابي. وطبع ويست قبلة على خدي كأنه يقرأ ما يدور بخلدي. ثم سألني: «أمستعدة؟».

أومأت برأسي والتقطت الفستان حيث كان مكومًا على الأرضية. كنت مستعدة. لقد وعدني ويست بأنه حتى لو خاننا آل روث فلن يحترم هو عقد هولاند، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن ماريجولد وقضاء بقية حياتنا في حقول الجاودار أو الغوص في مياه جزيرة جيفال.

الحق أنني لم أعد أكترث. لقد أحسست بأن ويست أهلي وعائلتي، وتعلمت من الأحداث السابقة ما يكفي ليجعلني أقايض أي شيء في سبيل الأهل والعائلة.

عندما خرجنا من الممر الجانبي المفتوح، رأينا ويلا وباج وأوستر وهاميش وكوي واقفين باستقامة على سطح السفينة. أما ترو فقد وقف عند صدر السفينة يلقي عملة معدنية في الهواء ويلتقطها.

مشيت باتجاه سور الجانب الأيمن ورميت الفستان في البحر، فتهاوى القماش الحريري الأخضر متماوجًا في الجو قبل أن يسقط في المياه الزرقاء المشوبة بطيف رمادي.

أصاب ويست الرأي، هولاند لم تفهم طبيعة منطقة المضايق، لقد ظنت أن الثروة والسلطة سيشقان لها طريقًا إلى سيروس، بيد أنها استخفت بنا. ثمة شريان حياة يربط بين أهالي تلك السواحل، أولئك الذين أبحروا في تلك المياه يتشاركون الدم؛ لا يمكن شراء أبناء منطقة المضايق.

وكذلك فقد استخفّت هولاند بي.

شاهدت الفستان وهو يغطس ويتواري تحت الفقاقيع البيضاء.

لست أهتم بمحاولات هولاند التي تهدف إلى جعلي متأنقة. أنا لست والدتي.

وقال باج لويست: «متأكد أنك لا تريدنا أن نأتي معك؟»، وكان من الجلي أنه غير مرتاح لفكرة ذهابي أنا وويست إلى اجتماع مجلس التجارة وحدنا.

أجابه ويست: «لا أريد أيًّا منكم في أي مكان بالقرب من هولاند»، وأمال رأسه ناحية ترو وأردف: «أيًّا يكن ما يحدث، فتجهزوا للإبحار بحلول الليل، واتركوا الصبي يذهب إلى حال سبيله».

ونظرتُ إلى كوي ثم إلى الآخرين، وقلت: «حتى لو اضطررتم إلى المغادرة من دوننا، أعيدوه إلى منزله».

فأومأ هاميش، لكن قلق ويلا تجلى على وجهها وهي تردد بصرها بيننا. رنا إليها ويست بنظرة طمأنة، لكن لم يبد للنظرة أثر في تخفيف ما يعتلج بين جوانحها. وارتقت الصاري من دون أن تنبس بكلمة.

قال أوستر: «إنها بخير. سوف نراكما في غضون سويعات».

هبط ويست السلم أولا وتبعته على الأثر. وألقيت نظرة أخيرة على ماريجولد ونحن نشق طريقنا إلى خارج الميناء، نظرة وداع خاص.

ربض مقر المجلس عند سفح التل الذي يقبع عليه مقهى وولف آند إيجل. وقد أحيط المقر بمداخل مقوسة مزينة بزخارف متشابكة تحمل أختام النقابات الخمس: نقابة الجاودار، ونقابة الأحجار الكريمة، ونقابة صُناع الأشرعة، ونقابة الحدادين، ونقابة صُناع السفن. هؤلاء هم أقوى الناس نفوذًا في البحر وعلى اليابسة.

شُيّد على الرصيف المفضي إلى المقر عوارض سميكة من خشب الماهوجني المطلي بالزيت، ومحفور عليه الأختام ذاتها المحفورة على المداخل المقوسة. بقي ويست على كثب مني وأنا أدخل وسط حشد من نساء يرتدين فساتين فاخرة وشعورهن مضفرة في ضفائر مثبتة بعناية على رؤوسهن، ورجال يرتدون بدلات فخمة مصممة للحضور في هذا المقر. كان بوسعي رصد التجار القادمين من منطقة المضايق بسهولة؛ إذ الشعر متأثر بآثار البحر والملابس فاتحة زاهية. وقد انجرفوا جميعًا صوب الباب الضخم المفتوح أمامهم.

وقفت هولاند منتظرة عند المدخل، ويداها ذواتا القفازين مدسوستان في وشاح الفرو الذي يطوق كتفيها. وعندما رصدتنا قطبتْ جبينها.

نظرت بأسف إلى ثيابي ونحن نقترب منها، ثم قالت: «ماذا تظنين نفسك فاعلة؟».

فتمتمتُ: «لن يصدق أحد أنني جرافة ولا تاجرة إن ارتديت ذاك الفستان السخيف. لا يمكن أن أبدو شبيهة بذوي الدم المملح إذا كنت تريدين استغلالي في إغراء مجلس تجارة منطقة المضايق بقبول طلبك».

رمقتني بنظرة هازئة. كانت تعلم أنني محقة، بيد أن ذلك لم يرقها. ثم قالت دون أن يلوح في عينيها أي بارقة تدل على غضب: «سوف أُغرق تلك السفينة بحلول غروب الشمس إذا حاول أي منكما اعتراض ما أفعله هنا. أتفهمان؟».

أجبتها: «أفهم».

وترامى صوت هادئ من خلفي يقول: «في الوقت المناسب»، واستدرت فرأيت هنريك روث واقفًا ورائي بربطة عنق أرجوانية تطوق عنقه وقد بدا شعر وجهه محلوقًا للتو.

وحاولت أن أستشف شيئًا من تعابيره وأنا آمل ألا يكون على وشك تدمير كل شيء.

سألته هولاند بسخط: «ما الذي تفعله هنا؟».

فشبك هنريك إبهاميه في الحمالتين المعلقتين على كتفيه تحت سترته، وقال: «ارتأيت أن أحضر وأستمتع بالمشهد الظريف».

ثمة شيء في ابتسامته باعث على القلق، وكأن شفتيه سوف تنداحان في أية لحظة لتكشفا عن أنياب.

وتابع حديثه: «لا يمكنني الدخول دون خاتم تجارة معتمد أو ترخيص تجاري. فقلت إنك ستقدمين لي دعوة الدخول بصفتي ضيفك».

راحت هولاند تزن خياراتها. كان يمكنها الرفض والمخاطرة بجذب انتباه الحضور بما يكشف علاقتها بهنريك، أو يمكنها الموافقة والمخاطرة بالأمر ذاته داخل المقر. وفي كلتا الحالتين قد يضرها ذلك.

واقتربت منه خطوة وقالت: «حاول أن تفعل أي شيء ولن تخرج من هنا حيًّا».

فابتسم وقال: «هذا يرضيني».

زفرت هولاند زفرة غضب قبل أن تتصدر مسيرتنا إلى عتبة الرصيف المفضي إلى المقر.

ثم قالت بهدوء للرجل الواقف عند المدخل والذي أخذ يتفحص خاتم التجارة الذي ترتديه: «إنهم معي».

فأجابها بإيماءة وهو يرمق هنريك. لقد تعرّف عليه، ولن يكون الوحيد الذي يتعرّف عليه هنا.

وفي الداخل كانت الفوانيس الزجاجية تتدلى من العوارض الخشبية وتنشر ضوءها على السقف فيما يشبه أشعة الشمس الذهبية. وانطلقت عيون كثيرة نحوي ونحو ويست أثناء سيرنا في أعقاب هولاند، وترددت همسات. وانطلقت هولاند تشق طريقها وسط البدلات الفخمة والفساتين الفاخرة حتى وصلت إلى قاعة مستطيلة تحتوي على طاولتين خاويتين متقابلتين، وكل منهما وراءها خمسة كراسي، وثمة سور خشبي يطوق الطاولتين. ووقف حولهما الحاضرون الذين ملأوا المكان كله، وأحسست بانقباض في حلقي عندما أدركت ما كانوا ينظرون إليه.

إنه طاقم الشاي الذي صنعه عزرا؛ أباريق وفناجين موضوعة أمام كل كرسي.

لقد كانت مطابقة للتصميم الذي تصورته هولاند بالضبط، بأشكال مدهشة وفخامة مذهلة، وتألقت أوجه الأحجار الكريمة التي ترصع الأباريق والفناجين فجذبت انتباه الحضور جميعًا.

وأمام تلك المنصة تراصت مقاعد متدرجة عليها شعارات تجارية. وجلست هولاند في مجلسها على المقعد الأقرب للطاولتين.

وراحت تبحث عن شعار سينت على المقاعد الأخرى؛ شراع مثلث تعلوه موجة كاسحة. وعندما استقرت عيناها على مقعده وجدته فارغًا، وخلفه كان المقعد الذي يحمل شعار زولا خاويًا أيضًا.

نظرتُ إلى ويست الذي كانت عيناه مصوبتين على الناحية ذاتها.

وهمست له: «هل تراه؟».

فمسح الغرفة ببصره وقال: «كلا».

ولمستُ ظهر يد ويست قبل أن أنطلق صوب العتبات المفضية إلى مقعد هولاند.

وجلست بجوارها أشاهد الغرفة. وقف هنريك عند جانب المنصة بجوار ويست وقد لاح على محياه نظرة متعة خالصة. لم يقل عزرا إن هنريك سيحضر الاجتماع، إذا كان أحكم تدبيرًا للغدر بهولاند وسينت فنحن على وشك اكتشاف ذلك.

وجاءت امرأة حاملة كئوسًا مترعة بشراب الكافا، فأخذت هولاند كأسين وأعطتني كأسًا.

دوت طرقة مطرقة على الطاولة فجفلتُ، وسقط هدوء فوري على الحضور وهم يتقاربون من بعضهم مع انفتاح الباب المفضي إلى الشرفة المطلة على القاعة.

وتقدم صف من رجال ونساء هابطين العتبات ومنطلقين إلى المنصة نحو مقاعدهم. وكانت معاطفهم وأثوابهم المصممة حديثًا مزينة بالذهب والمخمل الفاخر، وأصابعهم مليئة بخواتم مرصعة بالأحجار الكريمة. إنهم أعضاء مجلس تجارة منطقة المضايق. حتى في ملابسهم المبهرجة يمكن ملاحظة مسحة الجلافة التي لم تزايلهم. أخذوا أماكنهم عند الطاولة البعيدة قبل أن يأتي بعدهم أعضاء مجلس تجارة منطقة البحر المجهول الذين ظهروا في بهرجة أكثر أناقة.

وعندما أخذوا أماكنهم، جلس جميع أعضاء المجلسين في آن واحد، وتردد صدى احتكاك أرجل الكراسي في الصمت.

ومرة أخرى نظرتُ إلى مقعد سينت الذي كان لا يزال خاويًا.

انحنت المرأة التي تمثل نقابة الحدادين نحو زعيم نقابة صُناع السفن وهمست له بشيء، في حين راح رجلان يرتديان قفازات بيضاء يملآن أباريق الشاي المزخرفة المتراصة أمام

الأعضاء. وتجلت الأباريق كأنما تطفو على الطاولة، وراق هولاند إعجابهم بها، هذه هي الغاية.

وراحت تلف الكأس في يدها حتى دار سائل الكافا في دوامة وهي تراقب جميع الأعضاء يلقون نظرة فاحصة، وقد ارتسمت ابتسامة راضية على وجهها. كانت تُهيئهم لاقتراحها.

هوت المطرقة مرة أخرى مع وقوف زعيم نقابة الجاودار في منطقة البحر المجهول، والذي نفض معطفه قبل أن يلتفت إلى الحشد ويقول: «أود أن أرحب بكم باسم منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق في اجتماع مجلس التجارة الذي يُعقد مرة كل عامين».

وانغلق باب القاعة فحجب أشعة الشمس، وهبط هدوء شامل على المكان، وتعرقت راحتاي في توتر وأنا أفتش في الوجوه عن أبي، وعيناي تبحثان عن معطفه ذي الزرقة اللامعة.

وبجواري كانت هولاند مسترخية الأعصاب وتنتظر بصبر لحظتها.

ودوّى صوت زعيم النقابة عميقًا وهو يقول: «سوف نفتتح الجلسة بالأعمال الجديدة»، فانجرفت العيون نحو مقاعد التجار.

وتريثت هولاند مليًا قبل أن تنهض وتجيل بصرها في الغرفة، كانت تستمتع باللحظة، ثم قالت: «أعضاء المجلسين الموقرين، أود أن أتقدم اليوم بطلب رسمي للحصول على ترخيص يسمح لي بمد طريقي التجاري من باستيان إلى سيروس».

ساد صمت مطبق، وسُلطت أعين الأعضاء جميعًا على جدتي.

وانبرت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة المضايق للحديث أولًا، فنهضت وفنجان الشاي في يدها وقالت: «هذه هي المرة الرابعة خلال ثماني سنوات تتقدمين فيها بطلب للحصول على هذا الترخيص، ودائمًا ما كان الجواب واحدًا لا يتغير».

فنهضت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة البحر المجهول وقالت: «إن تجارة هولاند الناجحة قد عادت بالنفع على منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق. معظم الأحجار الكريمة المتداولة في منطقتك مستخرجة بأيدي طواقمها. نحن ندعم طلبها كما دعمناه سابقًا». كما كنت أظن، لم يكن مدير الميناء وحده طوع أمر هولاند.

فردت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة المضايق: «من الضروري أن يتمكن تجار منطقة المضايق من مواصلة تشغيل تجارتهم».

فقالت هولاند: «فليفعلوا».

فقالت الزعيمة: «نعلم جميعًا أنه إذا بدأت سفنك في الإبحار بمنطقة المضايق فسوف يُقضى على التجار في سيروس».

فقالت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة البحر المجهول: «أية تجارة؟ تسري الأقاول بأن نصف أسطول زولا قد احترق في صراع تجاري تافه ولم يره أحد منذ أسابيع. ولم يكلف سينت نفسه عناء حضور اجتماع اليوم».

واشتد خفقان قلبي وأنا أرمق المقعد الفارغ مرة أخرى. أين هو؟

وانفتلت أحشائي بشعور اضطراب طاغٍ مع اتضاح الرؤية رويدًا رويدًا. غياب سينت يعني أحد أمرين؛ إما أنه لم يحضر الاجتماع لأن هولاند تدبرت أمر غيابه، أو.... وازدردت ريقي حين خطرت لي الخاطرة.

ماذا لو أنه لم يكن عازمًا أصلًا على المشاركة في الأمر، ماذا لو كان هذا مخططًا من مخططاته الخبيثة؟ وأنه يبحث عن مصلحته الخاصة فقط. لعله استغلني في إشغال هولاند حتى لا تركز عليه نيرانها. لعله أبرم صفقته الخاصة، ولعله الآن قد عاد إلى منطقة المضايق.

عضضت على شفتي في حين جاش الألم في صدري. ذاك الوغد.

عادت هولاند تقول: «لديَّ اقتراح أحسب أنه لن يلقى معارضة من المجلسين».

عندئذ اتكأت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة البحر المجهول على ظهر كرسيها، وكذلك فعلت زعيمة نقابة الأحجار بمنطقة المضايق، والتفت الجميع إلى جدتي مصغين.

أشارت بإصبعها لي لأنهض، فنهضت وصُوبت نحوي مئات الأعين.

ماجت في ذهني الأفكار المتلاطمة، وهبطت ببصري على أكواب الشاي الموضوعة على الطاولات أمامنا. في غياب سينت ليست هناك سوى طريقة واحدة لإسقاط هولاند، ولكن إن فعلتُ ما يلزم فعله فلن تصب هولاند غضبها عليّ وحدي، بل على ويست أيضًا.

ورصدته عيني وسط الحشد، واقفًا عند الزاوية الخلفية وعيناه تنفذان إلى دخيلة نفسي، وكتفاه مشدودتان وهو يهز رأسه بحركة طفيفة ذات مغزى.

كأنه يقول: لا تفعلي ذلك يا فيبل.

وواصلت هولاند حديثها: «أود أن أقدم حفيدتي لتكون المسئولة عن تجارتي في سيروس».

تواصل الصمت المطبق.

وتابعت: «لقد وُلدت على متن سفينة تجارية في منطقة المضايق، حيث عاشت حياتها كلها هناك. إنها جرافة، وتاجرة، وخبيرة أحجار كريمة».

جفلتُ عند سماع كلامها. وخيّم الصمت على القاعة الضخمة، وحاولتُ ألا أتحرك. أما هولاند فثبتت عينيها على أعضاء مجلس التجارة أمامنا، حيث تهامس أعضاء مجلس تجارة منطقة المضايق.

وأضافت: «سوف تُبحر تحت شعاري بأسطول قوامه ست سفن، وسوف تنشئ مقرًا في سيروس تحت سلطة مجلس تجارة منطقة المضايق ونقابة الأحجار الكريمة. وسوف تنحصر تجارتنا على الأحجار الكريمة، الأحجار الكريمة فقط دون غيرها».

لكن كل من في القاعة يعرف حقيقة الأمر. سوف تبدأ بالأحجار الكريمة، ومع ازدياد مكاسبها سوف تتوسع الأغراض التي ستتاجر فيها. والتجار الصغار سوف تسوء حالهم، أما هي فستقطف الثمار وتحوز الأرباح. وخلال فترة وجيزة سوف تُحكِم قبضتها على منطقة المضايق.

نهض زعيم نقابة الجاودار بمنطقة المضايق وقد دس يديه في جيبيه المطرزين بحافة ذهبية: «هلا نُصوِّت على هذا القرار؟».

فأومأ الزعماء بإيماءات مترددة، وتكورت قبضتاي داخل جيبي سترتي، واشتد خفقان قلبي. سوف تفوز، سوف تحوز كل شيء.

خطوتُ خطوة للأمام قبل أن يتغير رأيي، وازدادت برودة جسمي. لكن مع انفراج شفتي لأتكلم، انفتح باب القاعة فانسكبت أشعة الشمس الساطعة في الغرفة، وطرفتُ بحركة قوية وعيناي تتكيفان مع الضوء لاستبيان شبح إنسان يتحرك بين الحشد.

ثم تردد صدى صوت أبي العميق في شتى أرجاء الغرفة وهو يقول: «أعتذر. لقد تأخرت»، فزفرتُ زفرة طافحة بالألم وازدردت ريقي.

صوّب أعضاء مجلس تجارة منطقة البحر المجهول نظرات مرتابة إلى سينت وهو يشق طريقه بين الطاولات نحو المنصة.

لم ينظر نحوي وهو يسير إلى مقعده، وألقى معطفه خلفه قبل أن يجلس، ثم قال: «والآن، ما الذي فاتني؟».

التاسع والثلاثون



تجلّت الصدمة والحنق كأشد ما يكونان على هولاند، وبدا أنها تحاول مواراة عاصفة شديدة اجتاحت نفسها.

ردت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة المضايق على سينت وقد بدت مرتاحة لرؤيته: «كنا بصدد التصويت على اقتراح هولاند لفتح مسارها التجاري إلى سيروس».

فقال سينت: «آه»، وأخرج غليونه من جيبه وفرك التبغ بإبهامه وكأنه يفكر في إشعاله، ثم أردف: «أخشى أن هذا لن يحدث».

عندئذ تصدّع قناع الهدوء المُحكم الذي كانت تتقنع به هولاند وهي تقول: «معذرة؟».

فانحنى سينت للأمام وهو يحدجها بنظرة مباشرة في عينيها وقال: «لن تحظي بخاتم التجارة هذا في إصبعك بعد الآن؛ وسيكون من المؤسف إهدار ورقة على إصدار رخصة تجارية لكِ».

انشدت عضلات كتف هولاند في تأهب وهي تسلط نظراتها الفتاكة على سينت وتقول: «لا بد أنك...»

قاطعها سينت وهو ينهض مرة أخرى ويمسك بفتحة سترته بإحدي يديه ويقول: «أود توجيه اتهام رسمي».

لاح خط أحمر فاتح ممتد من ترقوته إلى ذقنه، يبدو أنه حاول مسح هذا الأثر تمامًا. ولم ألمح جرحًا، ما يعني أن هذا ليس أثر دمائه.

وتابع حديثه: «اتهام رسمي لهولاند وتجارة الأحجار الكريمة المرخصة التي تديرها».

فقالت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة في منطقة البحر المجهول بصوت حاد: «وما الاتهام؟».

أجابها سينت: «تصنيع الأحجار الكريمة المزيفة والمتاجرة فيها».

دوّت شهقة جماعية في القاعة، ونهض زعيم نقابة الأحجار الكريمة في منطقة المضايق واقفًا على قدميه وهو يقول: «أتمنى أن تفهم خطورة هذا الاتهام أيها السيد».

فقال سينت بطريقة رسمية مصطنعة: «إنني أفهم ذلك. هولاند تُهرّب أحجارًا كريمة مزيفة في الشحنات المرسلة إلى منطقة المضايق في عملية تهريب منظّمة، وأود أن أطلب سحب خاتم التجارة منها، بالإضافة إلى ترخيصها للتجارة في منطقة البحر المجهول».

كانت هولاند ترتجف بجواري وهي تستشيط غضبًا حتى اضطرت إلى مد يدها للسور الخشبي الممتد أمامها لتستند عليه كي لا تسقط، وقالت: «هذا سخف! هذا الاتهام باطل!».

وسأل الرجل الجالس عند طرف الطاولة وهو يرمق سينت بعين الريبة: «أفترض أن معك دليلًا؟».

لن يضر هذا تجارة هولاند فقط، بل سيلقي بتبعاته السلبية على منطقة البحر المجهول كلها.

رد سينت وهو يلوح بحركة متراخية من يده نحو الطاولتين: «الدليل بين أيديكم بالفعل، فأنتم تمسكون الآن بالأحجار المزيفة التي تُهرّبها هولاند إلى منطقة المضايق».

خبط الرجل الفنجان على الطبق بشدة ونظر إلى الفنجان كأنما قد عضّه، وقال: «لا بد أنك تمزح».

وصاحت هولاند وعيناها تتحركان بحركة محمومة: «أنت مخبول. لا يوجد حجر مزيف واحد في تلك الفناجين!»، وتعثرت تعثرًا طفيفًا وهي تخطو للأمام قبل أن تحافظ على توازنها بالإمساك بذراع كرسيها وهي تقول: «تحقق منها بنفسك!».

سكبت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة بمنطقة البحر المجهول الشاي من فنجانها على الأرضية، وذهبت إلى أقرب شمعة وقربت الفنجان من اللهب.

ثم راحت تتفحصه بعناية وتقلبه كي يغزو الضوء الأحجار، ثم قالت: «ليحضر لي أحد مصباح فحص الأحجار الكريمة. الآن!».

قال سينت: «وفي أثناء انتظار المصباح...»، وجلس على طرف الطاولة وهو يؤرجح ساقه قبل أن يتابع: «ثمة اتهام آخر أوجهه لها».

كان الغضب يغلي في عروق هولاند وهي تقول: «اتهام آخر».

أومأ سينت بالإيجاب وسحب ورقة من سترته وقال: «منذ ستة أيام رست السفينة لونا بقبطانها زولا في باستيان، ولم يرها أحد منذ ذاك الحين، لا هي ولا قبطانها».

جمُدت هولاند في مكانها.

وواصل سينت: «بعد رسو السفينة بليلة قُتل زولا في الحفل الذي أقيم بمنزل آزمث».

لا شك أنه إذا كانت لا تزال ثمة ثمالة من الدفء متبقية في الغرفة فقد تلاشت الآن.

وتابع: «آخر ما أعرفه أن التآمر لقتل تاجر آخر جريمة تقتضي إلغاء الترخيص التجاري».

كان يأخذ جميع الاحتياطات، كان يؤمّن نفسه بخطة احتياطية في حالة أن يكون آل روث قد وضعوا أحجارًا كريمة حقيقية في فناجين الشاي. لكن سينت كان يخاطر مخاطرة كبيرة بتوجيه مثل هذا الاتهام، فجميع التجار في الغرفة بوسعهم اتهامه بالجريمة ذاتها.

تصلب جسدي، وانجرفت عيناي نحو ويست وسط الحشد. لكن كلا، لا يسع أحد اتهامه بمثل هذه الجريمة؛ لأن سينت لم يلوث يديه بتنفيذ أعماله القذرة بنفسه مطلقًا.

ولهذا كان لديه ويست، ليضطلع بهذه الأعمال.

وأضاف: «أود أن أقدم شهادة شاهد، ملّاح سفينة زولا الذي شهد مقتل قبطانه في الحفل بنفسه».

عندئذ لاح رأس مكتسٍ بشعر أشقر فاتح بين الحشد، وصعد كلوف على المنصة. فُغر فمي وأنا أرى المشهد، كانا يُسقطان هولاند بالمكيدة التي دبراها بنفسيهما.

فقالت زعيمة الأحجار الكريمة بمنطقة البحر المجهول بانفعال ظاهر: «حسنًا؟».

فقال كلوف: «هذا حقيقي. رأيت ذلك بأمّ عيني. أمرت هولاند بقتل زولا في مكتبها، ثم أمرت بتفكيك السفينة لونا وإغراقها في خليج باستيان».

صاحت هولاند بذعر الآن: «إنه يكذب!»، وانطلقت إلى المنصة ويدها ممسكة بطيات تنورتها لترفعها، وأردفت بصوت متهدج: «لقد دبرا هذا معًا. كلاهما».

قلت: «كلا»، انفلتت من بين شفتي هذه الكلمة وصداها يتردد. لقد تحدثتُ دون أن أخطط لذلك. كنت في حالة نشوة ذهبت بعقلي من تأثير المشهد المبهر، من تأثير التدبير العبقري. وتابعت: «إنهما لا يكذبان. كنتُ شاهدة». حانت التفاتة من هولاند إليّ وقد اتسعت عيناها بنظرة خاوية. وأضفت: «ما يقولانه حق».

هاج صخب في القاعة مع ظهور رجل في المدخل يمسك بمصباح فحص الأحجار الكريمة بين يديه الكبيرتين. انطلق الرجل نحو المنصة ووضع المصباح على الطاولة.

وفي هذه الأثناء، أمسكت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة في منطقة المضايق بالفنجان وخبطته بقوة على الطاولة، وجفلتُ وهي تخبطه مرة أخرى قبل أن يقع منه أحد الأحجار

التي ترصعه. وأشعل الرجل فتيل المصباح، وخلعت الزعيمة سترتها قبل أن تضع الحجر على الزجاج. وراقبها الجميع في صمت مطبق.

دوى صرير احتكاك الحجر بالزجاج وهي تقلبه، وانشدت عضلات فكها وهي تتفحصه. ثم أعلنت: «اتهام صحيح. إنه حجر مزيف».

امتلأت الغرفة بصخب هادر.

صاحت هولاند: «هذا مستحيل! الصانع! لا بد أنه...»

رفع سينت حاجبه قائلًا: «إن الفناجين مصنوعة في مستودعك، أليس كذلك؟».

لقد حوصرت الآن حتى لم يبق لها منفذ. سوف تفقد خاتمها إن علموا بأنها أوكلت عملًا لتاجر لا يحمل ترخيصًا، ولهذا لا تستطيع أن تنبس بحقيقة مصدر هذه الفناجين. لقد وقعتْ في فخ مُحكم.

نهض جميع أعضاء المجلسين وقوفًا، وانضمت أصواتهم إلى موجة الصخب وهم يتصايحون عبر المنصة. إن سقوطها سيؤثر على منطقة البحر المجهول بأكملها.

ارتمت هولاند على عتبات المنصة ويداها ترتجفان في حِجرها، وسارت زعيمة نقابة الأحجار الكريمة باتجاهها وقالت: «خاتمك مسحوب. وإذا لم نعثر على زولا بحلول غروب الشمس فستُسحب رُخصتك أيضًا».

عبثت أصابع هولاند بالخاتم وهي تخلعه، ثم وضعته في يد الزعيمة، وقالت: «أنتِ لا تفهمين. إنهما... إنهما دبرا هذا».

فتجاهلتها وهي تشير إلى الرجلين المنتظرين خلفها، وتقدما إلى الأمام ولبثا منتظرين وقوف هولاند قبل أن يسوقاها نحو الباب.

دوى صوت المطرقة مرة أخرى داعية الأصوات إلى الهدوء، وراح زعيم نقابة الجاودار المرتبك يعبث في المطرقة بين يديه وهو يقول: «أخشى أننا سنضطر إلى الاجتماع مرة أخرى...»

فقاطعه سينت وهو لا يزال واقفًا وسط المنصة: «ليس بعد. ما زلت أريد تقديم نشاط تجاري جديد».

فحدجه الرجل قائلًا: «نشاط تجاري جديد؟ الآن».

فقال سينت: «نعم. أود تقديم طلب للحصول على ترخيص للتجارة في ميناء باستيان»، وتردد صدى صوته وهو يتابع: «نيابة عن ابنتي وسفينتها ماريجولد».

لحظتئذ حُبست أنفاسي وجمُدت كل قطرة دم في عروقي.

ابنتي.

لم أسمعه في حياتي ينطق بهذه الكلمة.

وحانت التفاتة من سينت نحوي والتقت عيناي بعينيّ. وتلاشت ملامح كل وجوه الحضور في الغرفة حتى لم يبق أمام عينيّ سوى وجهه فقط، هو وأنا، وعاصفة تعصف فيما بيننا.

دار بخلدي أنه ربما مدفوع في ذلك برغبة تسديد الدين، وأنه يبذل لي ما بادرت ببذله له. لعله يحرص على ألا يبقى في عنقه دين لأحد.

لكن هذا كان يتعلق بمسألة الترخيص، ولا علاقة له بالكلمة التي نطقها، لم يكن هذا هو السبب في أنه ناداني بابنته.

واستنشقت نفسًا وقد أحسست بغصة مؤلمة تعترض حلقي، ولم أستطع حبس دموعي التي انسلت على خدي في صمت وأنا أرنو إليه. واتقدت عيناه بنظرة متألقة، مفعمة بالقوة

والرسوخ والفخر.

كان بذلك يضع نصلًا حادًّا في أيدي خصومه يمكنهم استخدامه ضده، بيد أن الأهم أنه كان ينسبني إليه.

وتناهى إلى أذني صوت يقول: «طلب مقبول»، فانتشلني من الأثير الذي غاب فيه ذهني وأعادني إلى عالم الواقع، حيث ردد الجميع أبصارهم بيننا.

قبطان. جرّافة. تاجر. محرومة الأم. أب.

ابنة.

الأربعون



اكتسى البحر بحُلة جديدة ذاك الصباح.

وقفت عند رأس الشارع مرسلةً بصري إلى ميناء ساجساي هولم الذي لا يزال رداء الظلام يكتنفه، لكن تسنى لي رؤية اللون الأزرق يتهادى على الأمواج.

اختفت سفينة سيدراجون من الميناء، ورأيت رجلًا متدليًا على جانب سفينة أخرى يكشط شعار هولاند من هيكلها. مع وصول الأنباء إلى بقية موانئ منطقة البحر المجهول سوف يختفي شعارها تمامًا، وكأن كل تلك الأعوام وكل تلك الأحجار الكريمة وكل تلك السفن لم تُوجد قط. بيد أن اختفاء هولاند سوف يُخلف فراغًا؛ فراغًا له تبعات بعيدة المدى.

لاح ظل معطف طويل على حجارة الرصيف بجوار ظلي، وراقبت الظل يتحرك هنيهة قبل أن ألتفت نحو صاحب المعطف.

رأيت سينت حليق الذقن وكانت عيناه الزرقاوان متألقتين فوق وجنتيه المرتفعتين، وسألني: «شاي؟».

فابتسمت وقلت: «بالتأكيد».

وسرنا متحاذيين في وسط الشارع، وأحذيتنا تصفع ظهر الطريق بإيقاع متزامن. لم أصحبه هكذا قط. لم أقف بجواره أو أحادثه في أي مكان عدا السفينة لارك أو في مقره. راقبنا الناس أثناء مرورنا، وتساءلتُ ما إذا كانوا يرونني شبيهة به أو يرونه شبيهًا بي، تساءلت عن وجود طيف مشترك بيننا يخبر الناس عن الآصرة التي تربط بيننا. وخالجني شعور غريب، في الواقع كان شعورًا طيبًا.

لأول مرة في حياتي لم أكن متخفية، وهو أيضًا.

توقف تحت لافتة تهتز فوق حانة وفتح الباب ودلفنا إلى الداخل.

ونهض الساقي من مقعده حيث كان يكتب شيئًا في دفتر، وشد أشرطة مئزره وهو يحيينا: «صباح الخير».

فرد سينت: «صباح الخير»، وانطلق نحو طاولة صغيرة بجوار أكبر نافذة تطل على الشارع؛ هذا موضعه المفضل في أي مكان. ثم قال: «إبريق شاي من فضلك».

جلست على المقعد المجاور له وفككت أزرار سترتي وارتكزت بمرفقيّ على الطاولة. لم ينبس بشيء وهو يرسل بصره خارج النافذة وهو يضيق عينيه مع تزايد سطوع الضوء خلف الزجاج. وكان متخففًا من التوتر الذي يشتمله دائمًا.

وعندما وضع الساقي طبقًا من الخبز المحمص أمامنا، أخذ سينت سكينًا وراح يدهن الزبدة على الخبز بعناية.

وحل بيننا صمت مستساغ مُترع بالأريحية. ودارت في رأسي كل الأسئلة التي أردت طرحها طيلة عمري، دارت بسرعة بالغة لدرجة أنني تعذر عليّ استبيانها كل على حدة. بيد أنها لم تشق طريقها إلى لساني، وفجأة بدا لي أنني لست بحاجة إلى أن أطرحها، ولم يبد أي سؤال منها مهمًّا.

وضع الساقي إبريق شاي على الطاولة متبوعًا بفنجانين وطبقين وقد حرص على تنظيمها في صف مستقيم دقيق، وعندما رضي عن المشهد أمامه انصرف عنا بإيماءة طيبة.

أمسكتُ الإبريق وملأت فنجان سينت أولًا، وتصاعدت أمامه ألسنة بخار الشاي المتلوية. هكذا تراءى لي مألوفًا، كعادته متواريًا وراء حجاب ما، لا يبدو واضحًا بالكامل مطلقًا.

ودفعت طبقه تجاهه وقلت: «خشيت البارحة أنك لن تحضر الاجتماع».

فأمسك بالملعقة المجاورة لطبقه وحرك الشاي ببطء وسأل: «اعتقدتِ ذلك حقًّا؟».

فأجبت وأنا أدرك حقيقة الإجابة في نفسي: «كلا».

جزء مني كان يعلم أنه سيحضر، لم أكن متأكدة من السبب، إذ لم يكن ثمة باعث يدفعني للثقة به.

لم يخبرني سينت بأنه يحبني طيلة حياتي. لقد أطعمنى وكساني وآواني، لكن الآصرة بيننا كان لها حد. ومع ذلك، فحتى في تلك السنوات التي قضيتها على جزيرة جيفال كان ثمة وشيجة ربطتني بأبي، وهذا أشعرني بأنه يخصني وينتمي إليّ، وهذا ما تشبثت به في تلك الدقائق وأنا أراقب الباب وأنتظره أن يمرق منه.

قال موضحًا تأخره البارحة: «لقد اقتضى الأمر تنفيذ بعض الأمور؛ إذ كان لا بد من الحصول على دفاتر مدير الميناء».

تذكرت أثر الدم الذي رأيته البارحة ممتدًّا بين ترقوته وذقنه، وسألته: «كيف حصلت عليها؟».

فسألني: «هل تريدين أن تعرفي هذا حقًّا؟».

فاتكأت على ظهر مقعدي وقلت: «كلا».

اكتنفه هدوء وهو يرتشف الشاي. وبدا الفنجان بالغ الضآلة في يده وقد التمع اللون الأزرق الذي يطوق حافة الفنجان في الضوء. ثم دس يده في جيبه قبل أن يضع ورقة مطوية على الطاولة قائلًا: «رُخصتك».

رنوت إليه هنيهة وقد راودني شيء من الخوف من لمس الورقة، وكأنها ستتلاشى في اللحظة التي أقرأ فيها الكلمات المدونة فيها، ومرة أخرى أحسست بالرغبة في البكاء تستبد بحلقي.

اخترق صوته الصمت قائلًا دون أن ينظر إليّ: «تلك الليلة. لست متأكدًا كيف فقدتُها».

فانتصب جذعي وارتج الفنجان في يدي قبل أن أضعه على الطاولة.

تابع حديثه: «رأيتها هناك لوهلة، ثم...»، وزفر زفرة قبل أن يواصل: «ضربتنا عاصفة واختفت إيزولد».

لم أفوّت أنه نطق اسمها، ولم أفوّت نبرة صوته وهو ينطقها، كأنها نبرة ابتهال، وقد تغلغلت نبرته في قلبي ونكأت الجراح بقوة.

واصل كلامه: «لم يكن الباعث على تَركي إياكِ في جزيرة جيفال عدم الحب».

عند هذه النقطة حاولت إيقافه: «سينت».

بيد أنه تجاهلني وأردف: «لقد تركتك هناك لأن...»

قلت: «لا يهم».

فقال: «بل يهم»، ورفع عينيه نحوي وقد احتل اللون الأحمر بياض عينيه، وأردف: «لقد تركتك هناك لأنني لم أحب شيئًا في حياتي كحبي لكِ. لا إيزولد، ولا التجارة، ولا شيء».

لفحتني الكلمات وملأت الحانة واشتملتني اشتمالًا حتى حُبست أنفاسي، وسحقتني سحقًا.

استطرد قائلًا: «لم أكن أخطط أن أصبح أبًا، ولم أود أن أكون أبًا. لكن في أول مرة حملتكِ فيها بين يديّ كنتِ صغيرة جدًا، ولم يراودني شعور بالخوف على شيء في حياتي كالذي راودني لحظتئذ، إنني أحس كأنني لم يغمض لي جفن منذ ليلة مولدك».

مسحت دمعة منسربة على ذقني.

ثم سألني: «هل تفهمين ما أقول؟».

فأومأت برأسي بالإيجاب وأنا عاجزة عن إصدار أي صوت. وانبسطت يده على الطاولة بيننا حتى وصلت إليّ، بيد أنني لم آخذها، وبدلًا من ذلك لففت ذراعيّ حول جسدي بإحكام وأنا أميل إليه حتى دفنت وجهي في معطفه كما كنت أفعل وأنا صغيرة، وطوقني بذراعيه محتضنًا إياي. وأغمضت عينيّ وانهمرت دموع ساخنة على خديّ؛ دموع له، ولي، ولإيزولد.

لقد انتهى الأمر، ثروات الدنيا وقوى العالم لا يمكن أن تعيد الزمن إلى تلك الليلة في بحر شرك العواصف، أو إلى ذلك اليوم الذي ظهرت فيه إيزولد تطلب مكانًا ضمن طاقم سينت. إن تاريخنا نحن الثلاثة سلسال طويل من العُقد المكتسية بُحسن مأساوي التي ربطت بيننا.

وكان مكمن الأسى الأعظم أنني بطريقة ما، ورغم كل شيء، وبباعث غامض يتعذر تفسيره، كنت لا أزال فخورًا بكوني ابنة سينت.

علا صدره وهبط، واشتد احتضانه لي قبل أن يفلتني. ومسحتُ وجهي وأنا أنشق، في حين دس يده في جيبه.

بعد هنيهة تألق بريق سلسلة فضية بين أصابعه، كانت قلادة أمي.

وقال بصوت لا يخلو من اضطراب: «كانت ستود أن تحوزيها».

فأمسكت القلادة ووضعتها في يدي، وتألق في الضوء شكل تنين البحر وقد جرت عليه موجات من اللون الأزرق والأرجواني. بوسعي استشعار روح أمي تسكن هذه القلادة، وقد ملأ طيفها المكان من حولي.

وهمست: «أأنت متأكد؟».

فقال: «نعم».

فأغلقت قبضتي عليها واشتملتني الأصداء الصادرة عن القلادة.

دق جرس الميناء وأنا أدس القلادة في جيبي، وقلت بصوت متهدج: «حان وقت الذهاب»، إذ كان الطاقم في انتظاري.

وملأ سينت فنجانه مرة أخرى وهو يسألني: «هل ستتوجهون إلى سيروس؟».

فأومأت بالإيجاب وأنا أنهض، وارتسمت ابتسامة على شفتيّ، وسألته: «أراكَ هناك؟».

رفع الفنجان وجعل يحدق إلى الشاي وهو يقول: «أراكِ هناك».

مرقت من الباب وأنا أرفع ياقة سترتي اتقاءً لبرد الصباح. كانت الحياة قد دبت في القرية بالفعل وامتلأ الشارع بعربات النقل ونوافذ المتاجر المفتوحة. ثبتُّ بصري على الماء ويمّمت وجهي شطر الميناء.

وعندما التمع انعكاس لون بنفسجي عبر الزجاج بجواري تجمدت في مكاني، ومددت بصري عبر الشارع. رأيت هولاند واقفة في المدخل المقوس لمقهى وولف آند إيجل وعيناها الحادتان مصوبتان نحوي. وقد تطايرت ياقة سترتها المكتسية بالفرو الأبيض مع هبوب الرياح حتى لامست فكها، والتمعت الجوهرتان المتدليتان من أذنيها.

لا تزال بهية محتفظة برونقها وجمالها. وإن فقدت خاتمها ورخصتها، فلا تزال تمتلك ثروة طائلة. إنها لن تتوانى عن نيل ما تبتغيه، وقد حدّثتني نفسي أنها ستجد طريقة لاستعادة قوتها في باستيان. وأيًّا ما يكون فلن يكون لها نصيب في منطقة المضايق.

وقفت جامدة كصخرة، لا يُطرف لها جفن، ثم دلفت إلى الداخل.

وأُقسم أنني رأيتها تبتسم عندما نظرت نحوي من فوق كتفها وهي تتوغل في المقهى.

الواحد والأربعون



اختفت ساجساي هولم من المشهد كاختفاء ذكرى حلم ضبابي.

وقفت عند قمة الصاري الأمامي أربط الحبال، في حين ملأت الرياح الأشرعة حتى تقوست قبالة السماء الزرقاء، وترامى صوت النسيم المالح وهو يجري على قماش الأشرعة، وأغمضت عيني ونفسي مفعمة بعناصر هذا المشهد. وملأتُ صدري بالهواء وعانقت الصاري وأنا أحس بأنني لا أرغب في مغادرة هذه السفينة ما حييت.

نظرت إلى الأسفل فوجدت ويست واقفًا على سطح السفينة يراقبني وقد ضيّق عينيه وقد غمرته أشعة الشمس الذهبية، وتلقفت الريح قميصه فألصقته بجسده على نحو أظهر قدّه الممشوق، حتى وددت أن أختلي به في غرفته الآن.

هبطت الصاري حتى وطئت قدماي الحافيتان سطح السفينة الساخن.

سألني وهو يشمر أكمام قميصه: «هل تريدين تفقّد البيانات؟».

فأجبته: «نعم».

فأمسك بيدي حين جاوزته جاذبًا إياي للوراء، وحالما استدرت قبّلني وطوّق خصري بذراعيه، وألقيت بثقلي عليه إلى أن أفلتني. انزلقت أصابعه من أصابعي، وتوجهتُ إلى الممر الجانبي المفتوح ودلفت إلى غرفته حيث كان هاميش جالسًا على مكتب ويست وأمامه دفتران مفتوحان.

رمقني بنظرة من فوق نظارته وقال: «هيأتُ لك العدة هنا».

وأومأ ناحية مصباح فحص الأحجار الكريمة الموضوع على الطاولة بجوار علبة صغيرة تحوي أحجارًا كريمة.

مع تداعيات حادثة هولاند سوف يُحكم جميع تجار المنطقتين قبضتهم على عملياتهم التجارية، وسوف يتحققون مرتين وثلاث مرات من الأحجار التي يبيعونها لكيلا يحيق بهم سخط مجلس التجارة.

جلستُ على المقعد وأشعلت عود ثقاب وأشعلت فتيل الشمعة تحت العدسة، وعندما توهج اللهب أمسكت بأول حجر، كان حجر زبرجد، ورفعته حتى تخلله الضوء ورحت أتفحص اللون بالطريقة التي علمتنيها أمي. ثم وضعته على زجاج مصباح فحص الأحجار الكريمة ونظرتُ عبر العدسة وأنا ألحظ تركيب الحجر. وعندما انتهيت منه نحيته جانبا وأمسكت بآخر.

كل شيء له لغة، كل شيء يحمل رسالة.

كان هذا أول ما علمتنيه أمي أثناء تدريبها لي. بيد أنني لم أفهم ما يعنيه ذلك حقًّا إلا حين أدركت أنها نفسها لها نغمتها الخاصة، نغمة تستحث في نفسي شعورًا قويًّا في أي وقت تكون فيه أمي قريبة مني.

وقد كنت أستشعر تلك النغمة في الظلام حين كانت تنحني فوقي وأنا مستلقية على أرجوحتي لتلثمني على جبيني، كنت أستشعرها وأنا ألمح التماعة الضوء على قلادتها المتدلية فوقي.

كان ذلك الشعور متغلغلًا في نفسي.

الشعور بحضور إيزولد.

نظرت من فوق كتفي إلى الوراء، حيث تتدلى قلادة تنين البحر من مسمار بجوار السرير وتتهادى مع تمايل السفينة. ثم نهضتُ وانطلقت نحوها ونزعتها من حيث كانت معلقة وأمسكتها أمامي.

خالجني الشعور ذاته الذي كان قد خالجني في مقر سينت بوادي الضنك، كانت روح أمي تناديني من خلال القلادة حين كانت قابعة على الرف هناك. وقد خالجني هذا الشعور مرة أخرى أثناء غوصي عند الجزيرة الصخرية، حيث أحسست بأن أجزاء من أمي تتدفق حولي في المياه الزرقاء.

مسحت شكل تنين البحر بإبهامي وأنا أشاهد أطياف اللون البنفسجي تتماوج تحت أمواج اللون الأخضر. كانت الذبذبات واضحة جدًّا وأحسست بتأثيرها في كفي، كأنما إيزولد لا تزال موجودة داخلها، كأنما...

وفجأة انحبست أنفاسي، وسرت ارتجافة في يدي حتى انزلقت السلسلة الفضية من أصابعي.

فوضع هاميش ريشته على المكتب وقال: «ما الخطب؟».

فهمست بكلمات مضطربة: «ماذا لو لم تكن هي؟».

تساءل: «ماذا؟».

فقلت: «ماذا لو أن الشعور الذي استشعرته أثناء غوصي عند الجزيرة الصخرية لم يكن مرتبطًا بإيزولد؟»، ورفعت عينيّ نحوه، بيد أنه بدا متحيرًا.

حملت القلادة في الضوء المتدفق من النافذة وأنا أتفحص صياغة الفضة بعناية، كانت مصاغة بدقة فائقة، وتفاصيل شكل تنين البحر مثالية. ثم قلبت القلادة.

فُغر فمي دهشة حين رأيته، شعار آل روث، محفورًا في السطح الأملس. كان حجمه صغيرًا جدًّا، لكنه كان موجودًا، وهو شيء لم أكن لأتعرف عليه أبدًا لو لم أره في باستيان.

لم يكن من قبيل المصادفة أن سينت صنعها في باستيان. لم يكن من قبيل المصادفة أن تكون القلادة من صُنع آل روث. ولم تكن العاطفة هي التي دفعته إلى الرجوع إلى حطام السفينة لارك للبحث عنه.

فتحتُ درج مكتب ويست وفتشت في محتوياته حتى عثرت على سكين. وتهاويت على الأرضية، وثبتتُ القلادة أمامي. وحين رفعت النصل في الهواء مد هاميش يده نحوي وهو ينادي: «فيبل...»

وفي طرفة عين هويتُ بمقبض السكين على وجه القلادة، فتصدع شكل تنين البحر، وبضربة أخرى تناثرت شظاياه.

وانزلقت السكين من أصابعي وأنا أضغط يدي على فمي وعيناي تتسعان.

لاح أمامي وجه أسود لامع ناعم، حتى في الضوء الخافت، كان بوسعي رؤية التماعة الطيف البنفسجي تحوم داخله.

شهق هاميش وتقهقر خطوة وهو يقول: «ما هذا بحق الجحـ...»

ذاك الشعور الذي كان يشتملني في كل مرة أكون فيها بالقرب من أمي لم تكن هي من تستحثه، بل كانت القلادة التي لم تخلعها قط.

لم يكن سينت يعرف أين يجد مخزون حجر قلب الليل، لكنه عرف كيف يجده، ولهذا أعطاني القلادة. كان ذلك خيطًا لا يدركه سوى خبراء الأحجار الكريمة.

لم يكن الشعور الذي خالجني عند الجزيرة الصخرية هو شعوري بأمي، بل كان شعوري بمخزون حجر قلب الليل!!

الثاني والأربعون



لاحت جزيرة فيبل الصخرية كعملاق نائم في الظلام.

وكانت حدود الجزيرة الصخرية بالكاد مرئية تحت سماء الليل عندما أسقطنا المرساة.

كان بوسعي استشعار مخزون حجر قلب الليل من موقفي عند صدر السفينة والرياح تشتملني. لم يكن حول جزيرة فيبل الصخرية شعاب مرجانية يمكن تجريفها، بيد أن مخزون حجر قلب الليل رابض هنا، لا بد أنه هنا.

ربما عثرت إيزولد عليه مصادفة، لعلها انجذبت إلى النغمة المنبعثة منه كما تنجذب الفراشة إلى اللهب.

وتساءلتُ كم استغرقت من الوقت لتدرك ما فعلته، لتدرك قيمة الحجر، لتقرر أن تخون أمها.

سلمني سينت القلادة لأنها كانت بمثابة المفتاح. إذا كان معي حجر قلب الليل، إذا كنت أعرف الشعور الذي يثيره في نفسي، فعندئذ يمكنني العثور على المخزون. كنت أعرف النغمة الصادرة عن هذا الحجر كما أعرف إيقاع دقات قلبي، بوسعي أن أعثر عليه وعيناي مغمضتان.

وضع ويست حزامي بين يديّ قبل أن يرتدي حزامه. وارتديت حزامي وأنا أغلق المشبك بحركة سريعة دون أن أكلف نفسي عناء فحص أدواتي. ودبت قشعريرة في كل أنملة من جلدي من فرط الإثارة.

انحنت ويلا على جانب السفينة وهي تنظر لأسفل نحو الماء المعتم، وسألتني: «أتظنين حقًّا أنه هنا بالأسفل؟».

فابتسمت وأجبتها: «إنني أعلم أنه هنا».

وارتقى ويست السور، وتبعته دون تلكؤ، وحالما وقفت بجواره قفزنا معًا. ابتلعتنا مياه البحر المصطبغة بالسواد، ووجدتني يد ويست الدافئة في المياه وأنا أركل صعودًا إلى السطح. ولاحت السفينة ماريجولد شاهقة فوق رأسينا، بينما كانت الجزيرة الصخرية وراء ظهرينا.

وجرت عيناي على قمة الجزيرة الصخرية لأرصد أعلى نقطة، وحين رصدتها أشرت إليها وقلت: «هناك. هناك كهف بالقرب من هذه النقطة».

فنظر إليها ويست نظرة ريبة، لعل الخاطرة ذاتها خطرت له، أننا إذا غُصنا في الكهف البحري فلسنا ندري طبيعته ولا مدخله. لكن إذا كانت إيزولد غاصت فيه فلا بد من وجود طريقة ما.

هتف ويست للطاقم: «حبل!»، وبعد لحظة سقطت لفافة حبل في الماء.

فوضع ويست اللفافة على كتفه بحيث صارت تطوق صدره وظهره. ثم شرع في ملء صدره بالهواء، وتابعتُه وأنا أشهق شهيقًا كاملًا وأزفر زفيرًا كاملًا.

شهيق وزفير، شهيق وزفير.

تخفف صدري من الشد مع كل شهيق وزفير حتى أحسست بأن رئتي تتمتع بالمرونة الكافية لحمل الهواء الذي أحتاجه. ثم زممت شفتيّ وأومأت برأسي إلى ويست قبل أن أغطس في الماء وأركل بقدميّ. جعله الحبل يغرق بشكل أسرع، وغطست في إثره وأنا أبطئ وتيرتي حتى لا يتمكن مني الإرهاق بسرعة.

تخللت أشعة ضوء القمر الماء فتراءي لي وجه ويست في ومضات أسفل مني أثناء نزولنا، وغصنا حتى وجدنا فتحة الكهف المائي؛ ثقب أسود ضخم في وجه الصخرة. واشتدت قوة تردد الذبذبات الصادرة عن مخزون الحجر الكريم عبر الماء حتى شعرت بأثرها في أسناني. طيلة هذا الوقت كان رابضًا هنا، على مرمى حجر من باستيان.

خلع ويست الحبل وسلمني طرفه، فثبتُّه خلف صخرة كبيرة وطوقتها بطول الحبل حتى صار محكم الوثاق لدرجة تحول دون تأثره بقوة الشد. وطوّق ويست خصره بالحبل وعَقده قبل أن يعطيني طرفه الآخر لأفعل الشيء ذاته.

ثم ضغطتُ على معصمه حين صرت جاهزة، وانطلقنا نحو فم الكهف الواسع. وبمجرد أن دلفنا إلى الداخل تحول الماء في الظلام الدامس إلى سواد حالك؛ سواد لم يتسن لي فيه حتى رؤية يديّ أمامي وأنا أشق بهما سبيلي في الماء.

وكلما أوغلنا اشتدت برودة الماء. تركتُ بضع فقاعات من الهواء تنفلت من أنفي، وواصلت الركل وأنا أضيق عينيّ، بيد أنني لم ألمح أي أثر للضوء أمامي.

اصطدم شيء حاد بجبيني، ومددت يدي وأنا أدرك أنني اصطدمت بقمة الصخرة. كان الممر يزداد ضيقًا. وتركتُ المزيد من الهواء ينفلت من بين شفتيّ وأنا أندفع بعيدًا عن الصخرة تمامًا مع اندلاع شعور باحتراق طفيف في صدري. ازدردت ريقي بحركة غريزية، وعاودني الألم. وعندما نظرت إلى الوراء لم أستطع رؤية ويست، لكنني ما زلت أستشعر ثقله خلفي على الحبل.

وتحسّست طول الجدار الصخري البارد وأنا أصيخ السمع إلى الدقات العميقة التي تتردد حولي في الماء، كانت تزداد قوة ووضوحًا.

واندلع بداخلي إحساس لاذع، فكان بمثابة تحذير من أن الوقت يكاد ينفد مني. وانضغط قلبي على أضلعي في استجداء للهواء، ودب الخدر الخفيف في أطراف أصابعي.

واستشعرت توقف ويست من خلفي، إذا توغلنا أكثر من ذلك فلن نعود إلى السطح في الوقت المناسب للحصول على الهواء. لكن إذا لم نبتعد مسافة كافية عن فتحة الكهف فـ.... ضيقت عيني وأنا أتفحص الظلام، ثم رأيته، ذاك الوهج الساطع للغاية.

دفعتُ الجدار وانطلقت أسبح. تراءى لي الضوء الأخضر يزداد قوة في خِضم اللون الأسود، ومع اقترابنا منه وجدته يمتد في شريحة، كأنه حائط كريستالي في الماء. ورحت أسحب نفسي على طول الجدار وأنا أفتش عن أي نتوء يمكنني التشبث به أثناء اندفاعي نحوه. وعندما تشبثت يدي بحافة الجدار دفعت نفسي للأعلى وشققت سطح الماء وأنا أشهق شهقة جذبت الهواء والماء إلى رئتي.

وسعلت وأنا متشبثة في الحافة مع ظهور ويست خلفي، حيث ملأ صوت أنفاسه المرهقة الصمت من حولي. بالكاد استطعت استبيان شيء، لم ألمح سوى الانعكاس على شعره الأشقر، ومددت يديّ تجاهه حتى وجدت يداه يديّ

وسألني وهو يلهث: «أأنت بخير؟».

فأجبته بأنفاس متقطعة: «بخير».

ومن فوقنا، لاح وريد رقيق من ضوء القمر ينسرب من فتحة ضيقة في أعلى الكهف إلى المساحة الداخلية التي كنا فيها، والتي كانت بعرض ثلاثة أمتار ونصف متر على أكثر تقدير، والجدران تتقارب من بعضها مع ارتفاعها حتى تكاد تلتقي عند الفتحة الضيقة التي تعتلي رأسينا بارتفاع يتراوح بين تسعة أمتار واثني عشر مترًا.

ورفعت نفسي من الماء لأستقر على الصخرة الملساء، وكان قلبي يخفق بسرعة، وثمة هدير يجلجل في صدري، والاحتراق يسري من حلقي إلى معدتي. ورفع ويست نفسه من الماء حتى استقر بجواري، وعندما تكيفت عيناي مع الضوء الساطع استبنت شبحه في الظلام.

قال ويست: «أنت تنزفين»، ومد يده ولمس جبيني بلطف وهو يميل ذقني كي يسقط الضوء على وجهي.

وشعرت بالجلد الزلق مكان الجرح. وعندما نظرتُ إلى أصابعي وجدتها ملطخة بالدماء.
قلت: «إنه بسيط».

وترامت أصوات الطيور البحرية من فوقنا، ورفعت بصري تجاه السماء، فرصدت أشباح الطيور تمر من فوق الفتحة التي تعتلى رأسينا.

ثم نهضت على قدميّ في الكهف الصامت الذي لم يقطع صمته سوى صوت الماء المتقاطر من بناني. تجمدتُ حين ومض بريق في الظلام، فلبثت منتظرة وأنا أحدق إلى الفراغ حتى لمحته مرة أخرى؛ وميضًا، ككشاف المنارة المتحرك في الظلام. واقتربت خطوة نحوه وأنا أمد يدي أمامي.

وانجرفت يداي تحت ضوء القمر المنتشر حتى لامست الجدار، وجعلت أتحسس وجه الجدار حتى عثرت يدي في نتوءات حادة لشيء مخبأ في الظل.

تغلغلت ذبذبات الحجر الكريم في جسدي.

حجر قلب الليل.

ورفع ويست بصره لأعلى وهو يستدير حول نفسه ليرى تلألؤ أوجه الحجر تحت الضوء المتدفق من فوقنا، كان في شتى أرجاء المكان.

همستُ وأنا أستل الإزميل من حزامي: «هذا هو المكان الذي وجدتْه فيه».

وتحسست الحجر قبل أن أثبت الإزميل تحت طية بارزة في محيطه وأمسك بالمطرقة. وتطلب الأمر ثلاث ضربات حتى تحرر الحجر وسقط بقوة في يدي، وحملته تحت شعاع ضوء القمر بيننا.

تراقصت الأطياف البنفسجية تحت السطح، وتجمدتُ دهشة حين أضاءت انعكاساتها جدران الكهف في مشهد بدا كأنه سماء مزينة بنجوم أرجوانية.

استشعرت الشعور الذي كان يكتنفني في حضور أمي، استشعرته يكتنفني اكتنافًا. ولعلها كانت قريبة مني في هذه اللحظة حقًّا. كان بوسعها أن تلقي الحجر في البحر، بيد أنها لم تفعل. لقد احتفظت به رغم أنها لم تعد أدراجها قط إلى الجزيرة الصخرية. ولا يسعني إلا أن أظن أنها ربما احتفظت به من أجلي، ربما تكون سمّتني باسم الجزيرة الصخرية حتى يتسنى لي إيجاد هذا المخزون يومًا ما.

أخذ ويست الحجر من يدي، وراح يقلبه بين يديه فالتمع، ثم قال: «لم أرَ شيئًا كهذا من قبل».

فهمستُ: «ما من أحد رأى شيئًا كهذا من قبل».

ثم رفع عينيه نحوي بنظرة متسائلة، وسألني: «ماذا تريدين أن تفعلي؟».

إن حجر قلب الليل بمثابة فجر عالم جديد، سوف يقلب العالم رأسًا على عقب، ولم أكن أدري ما إذا كانت منطقة المضايق مستعدة لذلك، لم أكن أعرف ما إذا كنتُ مستعدة لذلك. ولاحت ابتسامة حزينة على شفتيّ عندما أعاد الحجر إلى يدي. ثم قلت: «ماذا لو لم نفعل شيئًا؟».

فتساءل: «ماذا؟».

لقد دعا حجر قلب الليل أمي إليه، وفي الأوان المناسب دعاني أيضًا إليه. أجبته: «ماذا لو تركناه هنا؟ كما فعلتْ أمي».

فتساءل وقطرات من الضوء تسبح على وجهه: «للأبد؟».

فجُلتُ ببصري على جدران الكهف المتلألئة وقلت: «حتى نحتاجه».

أمعن التفكير في الأمر وهو يزيح شعره المبلل عن وجهه، ثم قال: «لدينا مخزون السفينة لارك».

فكررت جملته بابتسامة عريضة: «لدينا مخزون السفينة لارك». ذلك المخزون يكفي تدشين مسارنا التجاري وزيادة. يكفي لملء مخزن ماريجولد بالبضائع ولإنشاء مقر تجاري ويفيض منه أيضًا.

خطا ويست خطوة تجاهي، وعندما حنيت رأسي للخلف قبّلني بهدوء، ثم قال: «لنعد إلى منطقة المضايق».

فثار طعم الملح على لساني وأنا أكرر الكلمات وشفتاي تقترب من شفتيه: «نعم، لنعد إلى منطقة المضايق».

خاتمة



أتى صرير مع اندفاع الرياح، وانبسطت أشرعة ماريجولد كالأجنحة.

وقفتُ عند صدر السفينة أشاهد المياه المصطبغة بزرقة عميقة وهي تتسارع تحت السفينة. كنا نشق البحر بسرعة بالغة، وعندما رفعت بصري لمحت جزيرة جيفال.

هتف ويست من مكانه عند عجلة الدفة: «لنجعلها ترسو! اطووا كل الأشرعة!».

تسلق باج وأوستر الصاريين وعملا على طي الأشرعة حتى تتباطأ السفينة، وفتح هاميش ذراع تدوير المرساة.

أمسكت بالحبل عند أسفل الصاري الأمامي وعيناي على جزر الحاجز التي تبدت كأسنان مثلمة سوداء، والأمواج الزرقاء تتدفق مع الرياح الشديدة وتتكسر على حافة اليابسة.

تبدلت الأرصفة التي اعتدت على رؤيتها خلال السنوات التي قضيتها في جيفال وحل محلها ما يشبه الميناء الصغير؛ حيث انبثقت أعمدة خشبية ضخمة من الماء شكلت اثنتي عشرة قناة مائية جاهزة لرسو السفن.

وعلى مرمى البصر رأيت قاربًا صغيرًا يتجه نحو تلك الجزر قادمًا من الشاطئ.

وراقب ويست المشهد من مقدمة السفينة ويداه مدسوستان في جيبيه، هذا دأبه عند الرسو هنا، إذ تبدو عضلات كتفيه وفكه مشدودة.

فككت حبال التثبيت ثم ذهبت إلى الميسرة مع اقتراب السفينة من الصخور. وكان على الرصيف بالفعل مجموعة من الجيفاليين ينتظرون وأيديهم متهيئة لدفع السفينة كي لا يحتكّ هيكلها بالصخور.

حافظت على توازني بالتشبث بالصناديق ورميت حبال التثبيت إلى الصبي الواقف عند نهاية الرصيف، فثبت حبلًا تلو الآخر، ونشر أوستر السلم الحبلي مع ظهور كوي في الميناء ملوحًا بيده.

هتف كوي وهو يلقي نظرة خاطفة على الدفتر المفتوح بين يديه: «ماريجولد! ليس مدونًا عندي موعد لوصولكم قبل أسبوع من الآن!».

نظر إليّ باج بنظرة ذات مغزة من موقفه عند عجلة الدفة. كان كوي محقًّا. لكن ويست دائمًا لديه سبب يجعلنا نعود إلى جيفال في وقت مبكر.

تناهى إلى أذني صوت ويلا تقول: «لا تقولوا إنكم خضتم تلك العاصفة!»، ففتشت الأرصفة بعينيّ بحثًا عنها.

وانحنى ويست على السور وهو يبتسم عندما رصد أخته، واسترخت عضلاته في الحال.

لكن ويلا بدت ساخطة وهي تشق طريقها عبر حشد الجرّافين، وعلى الفور شرعت في فحص السفينة. وتوقفت بالقرب من المقدمة وضغطت بيدها على صدع جرى إصلاحه على نحو غير متقن.

شاهدها ويست مقطبة الحاجبين وهي تنظر إلى الصدع قبل أن يقول: «ثمة أشياء تحتاج إلى اهتمام».

فقالت متذمرة: «متى ستضم إلى طاقمك مَن يشغل منصب رئيس البحارة».

فقال ويست: «لم نعثر على شخص جديد بعد».

نظر إليّ كوي من الأسفل، وابتسمتُ. لقد عينّا ستة أشخاص في هذا المنصب خلال الأشهر الثمانية المنصرمة، وقد طردهم ويست جميعًا.

هبطتُ السلم الحبلي وقفزت بجوار كوي. لقد أوكل مهمة إعادة بناء الأرصفة إلى أفراد جيفاليين، وجيفاليين فقط، ودفع لهم بنقود قادمة من منطقة البحر المجهول، والآن يدير الأرصفة بصفته مدير الميناء.

وعقب بضعة أسابيع من انتهاء العمل في الميناء طلب من ويلا إنشاء مقر لإصلاح السفن. وقفا على تلك الأرصفة فبدوا ينتميان إلى هذا المكان، معًا.

لقد سخر مني أبي حين أخبرته بأننا ننشئ ثلاثة مسارات تجارية تنتهي في جيفال. ولكن مثلما توقع كوي فقد امتلأت جزر الحاجز بالسفن. وفي غضون عام آخر سوف نستخدم ترخيصنا للتجارة في باستيان.

لا تجارة في أحجار كريمة، أو أباريق شاي فضية مبهرجة، أو أمشاط شعر خيالية، أو حرير لفساتين فاخرة.

كنا نتاجر في الجاودار ونبتة البوصير؛وهما سلعتان يصنعهما غوغاء منطقة المضايق.

ما زال بريق حجر قلب الليل يلتمع في أحلامي، وكذلك يراودني صوت أمي. لكننا لم نعد إلى جزيرة فيبل الصخرية، ليس بعد.

استلقيت بجوار ويست على الشاطئ في الظلام والأمواج تلامس أقدامنا الحافية، وحملت الرياح أصوات الطاقم إلينا وهم يتجرعون الجاودار متحلّقين حول النار، في حين كنت أراقب نجمة تشق طريقها في صفحة السماء مخلفة وراءها ذيلًا من الضوء.

وعندما التفتُّ إلى ويست، لمحت في عينيه التماعة هذه النجمة ذاتها. أمسكت بيده ورفعتها إلى خدي وأنا أستحضر ذكرى المرة الأولى التي رأيته فيها على الأرصفة، والمرة

الأولى التي رأيته يبتسم فيها، والمرة الأولى التي اطّلعت فيها على جوانبه المظلمة، وكل مرة أطّلع فيها على جوانبي المظلمة.

كأنما خُلقنا من عناصر الملح والرمل والبحر والعواصف.

إننا من طينة منطقة المضايق.

شكر وتقدير



أتقدم بكل آيات المحبة لفريق عملي: جويل، إيثان، سياه، فينلي، وريفر. أشكركم على دعمكم وتهيئتكم الأجواء لي لأنغمس في عالم المضايق ومنطقة البحر المجهول أثناء تأليف هذه الرواية. أيًّا تكن المغامرة، فأنتم دائمًا خير ملجأ آوي إليه عقب كل مغامرة.

ومجددًا أتوجه بقدر عظيم من الامتنان إلى فريقي في قسم وينزداي بوكس بدار نشر سينت مارتن. كذلك الشكر لإيلين روتشيلد، المحررة البارعة المشرفة على رواياتي. والشكر لسارة جودمان، ودي جي ديسميتر، وأليكسيس نوفيل، وبرانت جانواي، وماري مواتس، وتيفاني شيلتون، وليزا بونفيسوتو، أشكركم جميعًا على كل ما بذلتموه من أجل رواياتي. والشكر لكيري ريسنيك على تصميمها غلافًا رائعًا آخر.

كما أشكر وكيلة أعمالي باربرا بويل التي تُبقي تركيزي مُنصبًّا على غايتي وعينيَّ مصوبتين على هدفي.

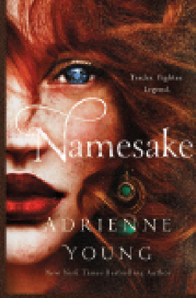
وكذلك أشكر عائلتي المذهلة العجيبة المرحة، لا سيما أمي التي أهديها هذا العمل. أحبكم!

هذه الرواية، حالها حال رواية فيبل، لم تكن لترى النور دون إسهامات ليل مور الذي أفادني بخبرته في جميع ما يتعلق بالإبحار والبحر والتجارة. أشكرك جزيل الشكر على مساعدتي في إتمام هاتين الروايتين! كما أشكر ناتالي فاريا، القارئة الشجاعة للإصدارات التجريبية من رواياتي.

وأشكر رفيقتي، ناقدة أعمالي كريستين دوير، لم تسهمي تقريبًا بأي شيء في هذه الرواية جراء انشغالك بتحقيق أحلامك. إن رؤيتك على قمة هذا المجال شيء بديع، وأنا أحصي الأيام التي تفصلنا عن رؤية كتابك بين أيدينا. لا تنسي ذِكري في الجزء الخاص بالشكر والتقدير.

كما أشكر الزملاء في مجال الكتابة، أولئك الذين يرشدونني في هذا الدرب حين أشرد عن الوجهة الصائبة. وشكرًا لأصدقائي من غير الكُتاب الذين يحققون لي التوازن النفسي في حياتي كي لا أنسحق في خِضم تحديات ومتطلبات الكتابة، أحبكم جميعًا.

الغلاف الخلفي



تاجرة. مناضلة. أسطورة.

بعد تحرير السفينة ماريجولد من قبضة والدها، عزمتْ فيبل وطاقمها على بدء مرحلةٍ جديدة، بيد أن هذه الحرية لم تدم طويلا عندما أصبحت فيبل بيدقًا في خطة مجرم خبيث، ولكي تصل إلى غايتها المنشودة يجب أن تعينه على تحقيق هدفه المتمثل في إقامة شراكة مع هولاند، وهي تاجرة أحجار كريمة، بالغة القوة والنفوذ.

ومع توغل فيبل في براثن عالمٍ طافحٍ بالخيانة والمكر، تدرك أن الأسرار التي دفنتْ مع والدتها تُعرِّض الآن الأشخاص الذين تهتم بهم فيبل للخطر، وإذا أرادت إنقاذهم فعليها المجازفة بكل شيء، وهذه المجازفة تشمل الفتى الذي تحبه، ومنزلها الذي وجدته أخيرًا.

إشادات برواية فيبل

"استغرقتني الرواية حتى خُيِّل لي أنني أتذوق الملح في الهواء، وأشعر بالأمواج المتهادية تحت السفينة ماريجولد. في عالم وحشي تبرز فيبل بشخصية عنيدة، رغم أنها لا تخلو من هشاشة، ولا تخشى الإقدام على فعل ما يتعين عليها فعله للنجاة. فهذه القصة أمسكت بتلابيبي، وأبت عليَّ أن أفلتها!".

الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

"حين تقرأ رواية فيبل لا تكون تجربة قراءة عادية، بل تنغمس فيها انغماسًا، فهذه أفضل أعمال أدريان يانج حتى الآن!".

- شيا إرنشو، مؤلفة رواية The Wicked Deep الأكثر مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز

"مسك الختام لثنائية رائعة في أدب الشباب".

- مركز كتب أدب الشباب

ISBN 628-1072-14-041-0



لشراء النسخة الإلكترونية



